رواية

AFTER NIGHTFALL

بَعد حُلول الظلاَم

بقلم كاتبة الرواية الأكثر مبيعاً
"زوجة الشفق"

إيه.جيه. بانر

ترجمة: عمر عبدالناصر

بعد حلول الظلام



لمزيد من المعلومات عن عصير الكتب www.booksjuice.com

العنوان الأصلي: Afternightfall

طبع بواسطة: LAKE UNION
AN IMPRINT OF AMAZON

ايه. جيه. بانر

بعد حلول الظلام: رواية/ ايه. جيه. بانر؛ ترجمة عمر عبد الناصر - القاهرة عصير الكتب للنشر والتوزيع ٢٠٢٠

٢٩٢ص: ٢١ سم

I . S . B . N: ٩٧٨-٩٧٧-٩٢٢-١٠٤-٩

رقم الإيداع: ٢٢١٨ / ٢٠٢٠

الطبعة الاولى: يناير ٢٠٢٠

تنسيق داخلي: عمر جوبا

تصميم الغلاف: كريم ادم

مدير الحقوق الاجنبية: محمد صلاح فضل

المدير العام: محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428

مراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الأراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

إيه.جيه.بانر

بعد حلول الظلام

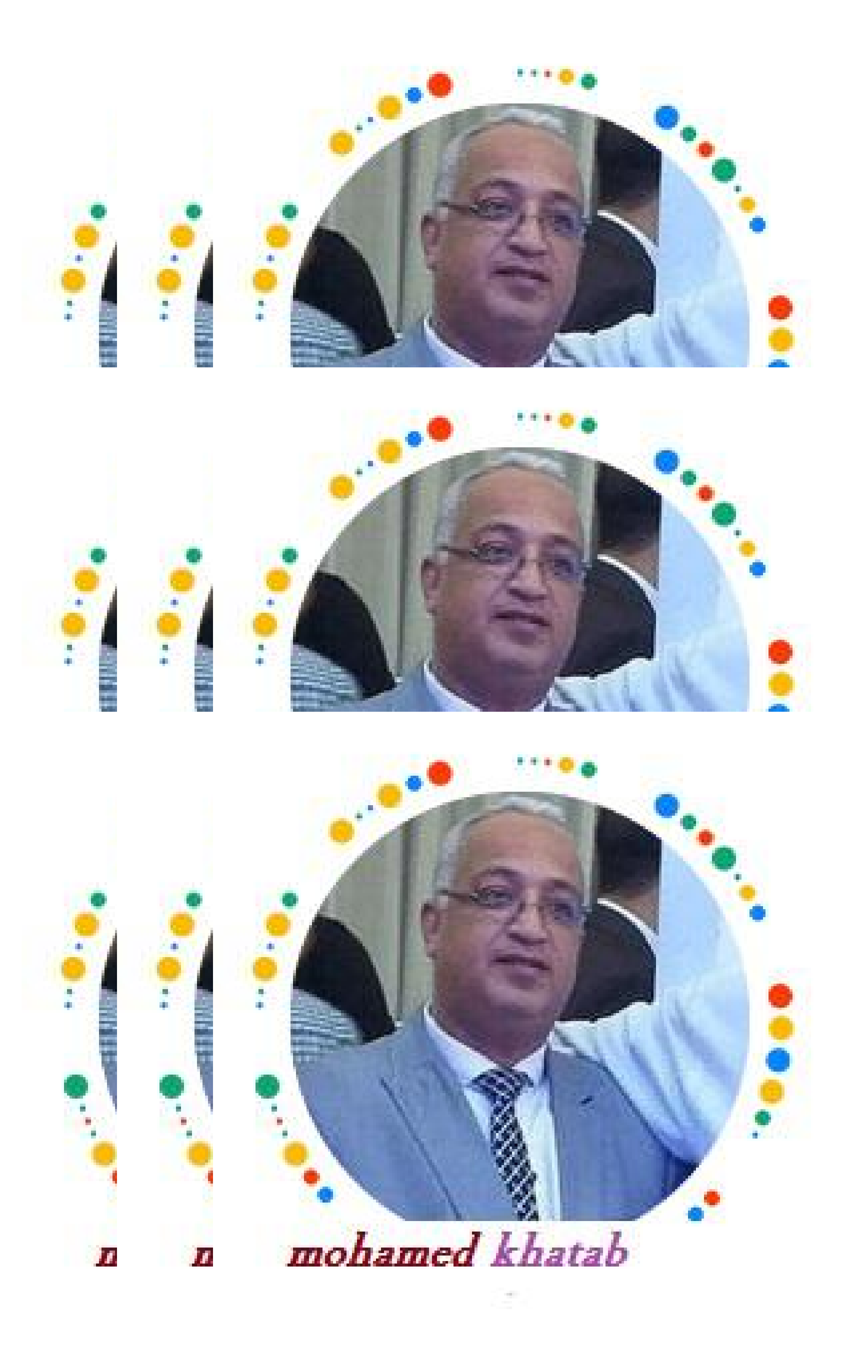
ترجمة
عمر عبد الناصر

مراجعة
محمد الجيزاوي



إهداء إلى جانين دونوهو، الصديقة العزيزة

مع وافر الامتنان


mohamed khatab



الفصل الأول

جلست لورين تغازل خطيبي على مائدة العشاء التي استغرقتني ساعات لإعدادها. هي تتصرف بتلك الطريقة حين تحتسي النبيذ أكثر من اللازم، ولكنني لم أشرب أقل منها بكثير حيث إنني أحتسي كأسي الثانية من شراب ميرلو[1]. لست متأكدة حتى لماذا أشرب؛ فعادة لا أفعل. لكن الليلة أنا وناثان نخطط لإعلان خطبتنا. ويتعلق مستقبلنا المشترك بقشة؛ وهي موافقة ابنته. آنا تبلغ من العمر تسعة أعوام فقط وهي مخلصة لأمها بشدة. وعدني ناثان بأنه سيطلعها على الأمر بأول اليوم، لكنها لم تقل لي أي شيء. باللحظة الحالية هي مشغولة بإخفاء حبات الزيتون بحجرها. لقد نسيت تمامًا أنها تكره الباستا بالزيتون.

أما لورين، يا إلهي، فكان زوجها جنسن يحاول التظاهر بأنه لا يلاحظ الأمر. لكن جفناه يرمشان كلما حركت رموشها باتجاه ناثان الذي يحاول التصرف بطبيعية رغم أن معظم الرجال لا يستطيعون تمالك أنفسهم بوجودها. ناهيك عن عينها اليمنى التي تتجول بحثًا

(١) بالفرنسية تعني الطير الأسود الصغير والميرلو هو نوع من النبيذ مصنوع من ثاني أشهر عنب أحمر بأمريكا.

وأنفها الذي يميل نحو اليسار. فهي تفيض جاذبية غريبة تشبه التنويم المغناطيسي. وفستاناها الأسود القصير الذي يلتصق بمنحنياتها وهي تنحني نحو ناثان لتملأ كأسه بالنبيذ، لامس ثديها الأيسر ذراعه ليفور الدم برأسي. أراهن أنها تحوم فوق مرضاها بنفس الطريقة، تمامًا كممرضة الأحلام التي يتخيلها الجميع.

بالمقارنة معها، أشعر بالضيق في فستاني الخزامي على الرغم من إبراز الحرير وركيّ وإظهار اللون لعينيّ البنيتين. مسحت على فمي بالمنديل القماشي، ثم شردت نحو غسق نوفمبر، نحو لمعان المحيط عبر الأشجار، وسفينة شحن بعيدة في الأفق على الأرجح في طريقها نحو سياتل. يعكس الظلام صورتنا في النافذة. آنا، شقراء ورقيقة مثل الطيور. ناثان، أجعد الشعر بطريقة ساحرة. جنسن، محارب الفايكينج الحانق على زوجته الشهوانية. لورين، التي تغازل كمراهقة غير واثقة بنفسها. وأنا، المضيفة المتوترة، أترنح على حافة مقعدي توترًا وشعري المجعد ينساب على كتفي، ووجهي بيضاوي غير واضح باستثناء عينين مضيئتين. على مائدة الطعام المستديرة تحت الثريا الخشبية الريفية، قد نشكّل تجمعا سعيدا، لكن سلوك لورين كان يوترنا جميعًا. ربما لم يكن عليّ أن أدعوها، لكنني أعرفها منذ زمن. أشتاق إلى صداقتنا أيام طفولتنا. كنّا نضحك تحت الأغطية بالفراش ونشارك الأسرار بحفلات النوم. ولكن تلك الأيام قد ولّت.

كانت آنا تراقب لورين خلسة وتقلّد تحركاتها بينما تمسك بكأس عصير التفاح بين سبابتها وإبهامها. كانت تقلّد لورين منذ بداية

الأمسية. سألت آنا وهي تنظر نحو الساعة المعلقة على الجدار والتي تعدت السابعة بقليل «أين العم كيث والعمة هيدرا؟». أجابها ناثان بضيق بينما كان يرتشف النبيذ «على الأرجح عالقون بالزحام». استنكرت آنا وهي تزيح خصلة شقراء وراء أذنها وقالت «مجددًا؟ لقد تأخروا لمدة ساعة. لقد وعدتني العمة هيدرا بتعليمي كيفية وضع أحمر الشفاه». أجابتها لورين وهي تعدّل المنديل القماشي على حجرها قائلة «أتريدين تعلم درس؟ يسعدني تعليمك». قال ناثان بحدة «ما زالت آنا صغيرة على التبرج» ثم التفت إلى ابنته مطمئنًا وأردف «تحلِّ بالصبر يا حلوتي، سيصلون قريبًا».

ولكن صبري كان ينفذ مثل آنا. أحتاج لشيء يمنعني عن خنقي للورين. أتمنى لو أن صديقتي المقربة جولي لم تسافر لحضور مؤتمر المعلمين، فأنا أحتاجها لتمنعني.

نظرت لورين إلى كأس ناثان نصف الممتلئة بالنبيذ وسألته «أهذا كل ما تتناوله؟ كم تحتاج لتثمل؟»

أردت أن أجاوبها «لن تعرفي أبدًا، تراجعي».

أجابها ناثان وهو يمد يده نحو قطعة أخرى من الباستا «لست من هواة الخمر»، قالت وهي تبتسم نحوي بغموض «فلتحظَ ببعض المرح، ربما تقنعك ماريسا».

قد أقنع ناثان بطردها لكنني أرقى من ذلك، كما أنه من المفترض على جنسن أن يكبح جماحها ولكنه يحدّق خارج النافذة بذهن شارد.

«قولي لي مجددًا منذ متى وأنتِ تعرفين لورين؟» قالها ناثان بينما يضع يده فوق يدي ودفء يده أدخل إلى قلبي راحة مؤقتة.

أجابت لورين بصوت ثمل «منذ أن كنّا بالخامسة، انتقلت ماريسا للبيت المجاور قبل أن تبدأ الدراسة بسبتمبر».

سأل ناثان قائلًا «في سيلفروود».

قالت وهي تلوّح بملعقتها للأمام والخلف كمايسترو الأوركسترا «كان يجب أن تراها وهي على الأرجوحة. كنت أظن أنها ستقع. منذ تلك اللحظة علمت أننا سنكون أعز أصدقاء. واعتدنا التظاهر بأننا شقيقتان».

نظر لي ناثان بسخرية قائلًا «لم تخبرني ماريسا بهذه التفاصيل، أعني تظاهركم بأنكم شقيقتان».

أجبته بلطف قائلة «سهي عليّ الأمر»، انقبضت أحشائي دفاعًا عن النفس، فأنا لا أتخيل التظاهر بقرابتي من لورين، على الرغم من أننا حين كنا أطفالًا كنا نرتدي ملابس متشابهة ونضع عطر والدتها النفاذ وهي تقول لي «رائحتنا واحدة الآن كالتوءم». وحتى الآن ما زالت تضع نفس العطر النفاذ.

أردفت وهي تمد يدها نحو كأسها «افترقنا بنهاية الأمر، أنت تعرف كيف تجري الأمور. لكننا التقينا صدفة العام الماضي وها نحن... من العظيم أن نعود أصدقاء مجددًا».

عظيم ليست بالكلمة التي قد أستخدمها لوصف صداقتنا الليلة.

أجابها ناثان قائلًا «أنا سعيد أنكم تتحدثون مجددًا»، ثم قبّل خدّي بلمسة خفيفة غرضها التهدئة، فبإمكانه قراءة مشاعري.

«الصدفة» قالتها لورين وهي تربت على ذراعه وأبقت أصابعها أكثر من اللازم، بينما يحدّق جنسن بطبقه ويضغط على سكينه بإحكام.

نظرت بعيدًا مرغمة نفسي على التنفس بعمق. واحد، اثنان، ثلاثة. حاولت تبرير أفعالها بالشك أو بلوم النبيذ أو ربما تكون رائحة عطرها قد أذهبت عقلها.

دهن جنسن خبزه بالزبدة ثم أخذ قضمه تلو الأخرى حتى حشر الخبز بكامله في فمه. وجلست آنا تراقبه باشمئزاز، فهي تهتم بآداب الطعام هذه الأيام.

«نخب الجيران» قالها ناثان وهو يرفع كأسه مبتسمًا لي بهدوء وخفة لتهدئة أعصابي التي أصابها التوتر. كان يبتسم لي نفس الابتسامة التي لا تقاوم عندما التقينا لأول مرة بمدرسة آنا. وعلى الرغم من أنني جلست أمام طفلته الخجولة المتلعثمة إلا أنني لم أستطع كبح نفسي عن التحديق به. بتلك العيون الداكنة الحادة والملامح الخشنة. بدا عشوائيًا وغير متوازن وغير جاهز. لم يمشط شعره بالكامل أبدًا كما لم يزرر قميصه بالكامل أبدًا.

لا عجب بانجذاب لورين له. لكنها تحتاج للتراجع. فزوجها يشيط غضبًا لكنه يكتمه.

قالت وهي لا تزال منحنية نحو ناثان «بربك، فلتشرب المزيد، فليس عليك أن تقود السيارة إلى المنزل. أم أنك تعمل بمناوبة ليلية؟».

رد ناثان بسلاسة قائلًا «ليس هذه المرة».

«لا محاولات جريئة للإنقاذ؟» قالتها وهي تلوح يدها بالهواء مظهرة أصابعها المرصعة بالمجوهرات.

أجابها ناثان وهو يطعن قطعة من الباستا بشوكته «لا تجري الأمور هكذا عادة».

«أنت لا تحتفل بالقدر الكافي. فأنت في مهنة رومانسية».

مدت يدها نحو زجاجة النبيذ، لكن جنسن أوقف يدها وقال بصوت حازم كتحذير «لورين، تروَّ قليلًا».

نعم، تروَّ قليلًا بحق الجحيم. ربما سيطرحها أرضًا ويجرها للمنزل ثم يتشاجر معها بسبب سلوكها الفظيع. لكنه اكتفى بإبعاد زجاجة النبيذ عن متناولها.

ماذا حدث للورين التي كنت أعرفها؟ تلك الفتاة التي شبكت ذراعها بذراعي ووعدتني بأن نكون أعز أصدقاء حتى يشيب شعرنا وتتساقط أسناننا؟ على الأرجح هي موجودة بمكان ما تغرق في غالون من شراب ميرلو.

قالت وهي ترفع كأسها «لماذا عليّ أن أتمهل؟ الحياة قصيرة لذلك نحتاج أن نحتفل بالصداقة» كان يشوب صوتها القليل من الحنق.

علّقت كأسها بالهواء وأخذت تتمايل بيدها قليلًا بينما كانت أظافرها مقلمة بصورة رائعة. رفعت آنا كأسها أيضا وقالت «نعم، لنحتفل!» ولكن عينيها كان يملؤهما الشك. هل أخبرها ناثان بأمرنا؟

قال لها ناثان مبتسمًا «شكرًا يا حلوتي».

مررت طبق المخبوزات للورين. فقد يساعد الخبز بامتصاص الكحول من جسدها، أو هذا ما أتمناه. قلت لها «ما زال هناك طبقان آخران، فهذه مجرد مقبلات».

قال لي جنسن بعيون تلمع إعجابًا «لقد تفوقت على نفسك بهذا العشاء».

ابتسمت له عبر كأسي قائلة «مفاجأة، لقد تعلمت الطهي».

نظرت له لورين نظرة قادرة على حرق الغرفة، ثم بدّل جنسن نظره نحو ناثان وأردف «اعتادت لورين أن تطلب الطعام طوال الوقت عندما كنت بمنزلها في الجامعة».

ربَت ناثان على يدي قائلًا «أصحيح؟» لم يكن متفاجئًا أنني اعتدت التسكع مع جنسن بالكلية. فثلاثتنا أنا وجنسن ولورين كنا أصدقاء قبل أن ألتقي به.

ابتسمت بأسي ثم قلت «لم أكن أفضل طاهية».

قاطعتنا لورين وأسقطت شوكتها على الطبق قائلة «لقد أوشكتِ على إضرام النار بالمطبخ».

اندفع الدم بخدّي غضبًا. ربما كان عليّ أن أحرق الشقة بأكملها ولورين بداخلها. لماذا وافقت بالأصل أن أكون رفيقة غرفتها؟ فقَد أفسدت حياتي بنهاية الأمر. لكنني تراجعت عن أفكاري الانتقامية. فأنا الآن أتمنى لها الأفضل. أليس كذلك؟

«لقد قطعتِ شوطًا طويلًا يا حبيبتي» قالها ناثان وهو يرفع يدي ويقبّل أصابعي ثم أردف قائلًا «أنتِ الآن أفضل طاهية بالعالم».

أجبته قائلة «ليس بهذا القدر»

التقطت لورين شوكتها وقالت «دعونا نوقف الحديث عن تلك الأيام فهي تشعرني بأنني تقدمت بالعمر».

أجبتها «نحن أكبر بسبعة عشر عامًا الآن» من الصعب تصديق أن كلينا بعمر الستة والثلاثين. كنا نعتقد أننا بالغان حين كنا بالتاسعة عشرة، يا لسذاجتنا.

قال ناثان «العمر مجرد رقم، أليس كذلك يا حبيبتي؟»

دق جرس الباب قبل أن أرد. قمت بسرعة وسعدت لوجود أي عذر لمغادرة المائدة. أسرعت لفتح الباب الأمامي. دخل كيث مصاحبًا نفحة من هواء الخريف البارد. رمى حقيبته في الردهة قائلًا «آسف على تأخرنا، لكن أخي يعيش هنا في تمبكتو بنهاية العالم». كان يرتدي ملابس أنيقة ومهندمة بعناية. يبدو كيث كالنسخة الأطول والأكثر أناقة من ناثان، ولكن مع وجه أنحف وعينين بلون سماء مطيرة ولا يوجد شعرة به خارج مكانها.

قلت له ممازحة «أنت تعلم أن تمبكتو هي الأفضل، كيف كانت الرحلة لهنا؟»

«بمجرد مغادرتنا للمدينة لم تكن سيئة».

تبعته هيدرا قائلة «لطالما أحببت الهدوء هنا». تبدو هيدرا بمثابة أميرة من حكاية خيالية ترفرف آتية من عالم آخر. ملامحها منحوتة بدقة وتحوم خصلات من الشعر الفضي حول وجهها ولكن الظل يشوب ما تحت عينيها. تذكرني بالنسخة المرهقة من جوينيث بالترو[١].

ناولتني زجاجة من النبيذ. أخذتها وأبديت إعجابي بالماركة قائلة «بيرسكو[٢]، سيشعر ناثان بسعادة غامرة».

«ناثان لا يعرف الفرق بين بيرسكو وبروشوتو[٣]» قالها كيث وهو ينفض معطفه الواقي من المطر. كان يرتدي سترة من الكشمير الرمادي وسروال أسود مفرود، كان على بعد خطوة واحدة من أن يرتدي توكسيدو[٤].

«بربك يا كيث، توقف»، قالتها هيدرا بينما كانت تفك وشاحها المحاك يدويًا كاشفة عن فستان ذي أكمام طويلة بلون الزمرد الملائم لعيناها. نسيج الساتان يعانق جسدها المثالي ولكن كيث لم ينظر

(١) ممثلة ومغنية وكاتبة أمريكية

(٢) نوع من أنواع النبيذ الإيطالي

(٣) طبق إيطالي يتكون من لحم الخنزير المقدد وعادة ما يقدم كشرائح رقيقة نيئة مثل البيكون الأمريكي

(٤) نوع من البدل الرسمية عادة ما يتم ارتداؤها بالسهرات الرسمية

إليها فقد دخل بالفعل إلى غرفة الطعام وتحولت نظراته نحو لورين. أظهرَت له ابتسامة. ثم انقبضت أحشائي. لورين لا تحتاج أكثر من التنفس لكي تجذب الرجال. حتى مع هذه الفجوة بين أسنانها. أو ربما الفجوة هي السبب.

لا بد أن هيدرا لاحظت الأمر. فقد ظهر الاحمرار على خديها بينما كنا نجلس على مقاعدنا حول المائدة.

نظر جنسن نحو كيث ثم قال «سعيد لرؤيتكم مجددًا. متى كانت آخر مرة تناولنا العشاء معًا جميعا؟».

رد ناثان مشيرًا بشوكته «بحفل شواء الحي في شهر أغسطس».

«صحيح»، رشف جنسن جرعة كبيرة من النبيذ ثم أردف قائلًا «ألا تجتمعوا أنتم الأربعة كثيرًا؟»، كان يشوب صوته لُكنة جنوبية متبقية منذ طفولته التي قضاها بهيوستن.

أجابته هيدرا بأدب قائلة «أنا وكيث نعيش في بالفيو» وكأن هذا تفسير لكل شيء.

طعنت لورين زيتونة بشوكتها ثم قالت «لكنكم لستم بنيويورك أو أوروبا مثلًا. بإمكانكم التحرك بعد ساعة الذروة، أليس كذلك؟»

أجابتها هيدرا بابتسامة ساخرة «بهذه السهولة؟» ثم تبادلت نظرة سريعة مع ناثان كما لو أنهم يتفقون على غباء لورين. أما أنا فشعرت بأنه من واجبي لحمايتها.

فسّر كيث قائلًا «أنا أعمل ستة أيام بالأسبوع، وعادة ما أكون مطلوبًا للعمل»، وضعت هيدرا يدها على معصمه ثم أردفت «فريقه مطلوب دائمًا للعمل فجراحاته..».

قاطعها كيث قائلًا «دعونا لا ندخل بالتفاصيل، فكلنا مجتمعون الآن وسعداء».

«نعم سعداء» قالتها آنا، ولكنها الوحيدة التي كانت مبتسمة بيننا.

حوّل كيث نظراته لأسفل فستان لورين، وإن كانت النظرات تقتل فإن هيدرا على الأرجح تقتله بوحشية الآن. على الأرجح ستعاتبه بغرفة الضيوف لاحقًا. وإن تشاجرا فمن الأفضل لهما أن يتشاجرا بهدوء لأن آنا خفيفة المنام. كانت آنا تحدق بهاتفها على حجرها وتكتب الرسائل مرة أخرى. إنها أصغر من أن تمتلك هاتفًا، لكنها تحتاج إلى واحد لنتمكن من تتبع المكان الذي تذهب إليه كل أسبوع، سواء هنا بمنزل ناثان أو هناك بمنزل والدتها.

مالت لورين نحو ناثان مرة أخرى، لكنه ابتعد بأدب وارتشف النبيذ ثم نظر نحو هيدرا قائلًا «ماذا حدث لذراعك؟»

رفعت يدها اليمنى وانزلق كمها ليكشف عن كدمة داكنة على معصمها، وقالت «كنت بجلسة تصوير الأسبوع الماضي. علق كعب حذائي بالسجادة وسقطت من فوق المنصة».

قلت لها جافلة «يبدو الأمر مؤلمًا، من المؤكد أنها سقطة قوية».

أومأت برأسها ووجهها يبهت شيئًا فشيئًا.

مدت لورين يدها لتلمس معصم هيدرا الرقيق ثم قالت «ما زالت الكدمة حمراء، لم ينخفض مستوى الهيموجلوبين بعد».

نظرتُ إلى لورين بدهشة فشلت بإخبائها. فقد اختفت غيمة الثمل من عينيها جزئيًا، ومن مخها أيضًا.

سألتها هيدرا بينما كانت تنظر نحو كيث بقلق «حقًا؟ ماذا يعني ذلك؟»

أمسك كيث بذراعها وتفحص معصمها ثم قال «كانت جلسة التصوير منذ يومين فقط، ليس الأسبوع الماضي، أتذكرين؟». ترك ذراعها تسقط بينما رمشت هيدرا وعيناها تغلبهما الارتباك.

أجابته هيدرا قائلة «أين ذهب عقلي؟ أنت محق، كانت الجلسة منذ يومين».

تدخل ناثان وسأل «كانت تلك الجلسة لكتالوج الملابس الشتوية، أليس كذلك؟».

ومض الظلام بعينيها ثم ابتسمت قائلة «أنت تملك ذاكرة فوتوغرافية». نظرت بلمحة سريعة نحو كيث لكنه كان يحدق بناثان بنظرات حادة كالصخر.

أردف ناثان متجنبًا نظرات كيث «التذكر جزء من عملي، لا أستطيع نسيان عملية أو جرعة، فقد أقع بورطة إن فعلت».

رد كيث ساخرًا «يا له من أمر جلل».

«أحمل ثلاثة وثلاثين مخدرا رئيسيا، بإمكاني تخديرك بأحدهم».

أجابه كيث رافعًا حاجبه الأيمن «هل أنت مسعف أم تاجر مخدرات؟».

أجابه ناثان «هل أنت جراح أم أحمق؟».

ناديته برعب زائف «ناثان!».

ضحك كيث مردفًا «هذا الأحمق يتيح للمرضى المحتضرين فرصة ثانية للحياة، من الممتع معرفة أن هذا الأمر ممكن بسببي».

أجابه ناثان بسخرية «ومن الواضح أنه أمر يدعو للتواضع أيضا».

تفحم وجه كيث وتبعه صمت غريب. كانت هيدرا تدلك معصمها بعينين خاليتين من التعبير. وآنا تصدر صوتًا وهي ترتشف عصيرها. بينما تحوّل لون وجه لورين للون الجدران الشاحب.

تنحنح جنسن ثم قال «ماذا رأيكم بطهي ماريسا؟ طيب للغاية».

قلت محاولة أن أبدو متفائلة «لقد أعددت حساء ليغوري بالطبق القادم»

جعدت آنا أنفها وسألت «ماذا يعني هذا؟»

«إنه حساء مصنوع من الخضروات والثوم..».

قاطعني ناثان قائلًا «قبل أن ننتقل إلى الطبق التالي، نود إعلان شيء ما»، سحبني نحوه ونظر إليّ بعينين فائضتين بالحب. شعرت بأنني أفقد أنفاسي. قلبي ينبض. أشعر بالدوار. كنت متأكدة من أنني سأفقد وعيي. سيفعل ذلك الآن أمام الجميع.

انحنى وجلس على ركبة واحدة بينما كانت الحرارة تغمر وجهي. أخرج علبة مخملية صغيرة وسوداء من جيبه ورفع نظره نحوي ثم قال «عندما رأيتكِ للمرة الأولى في مدرسة آنا وقعت بحبك من أول نظرة».

«أنا أيضا» قلتها والدموع تنبثق من عيني. «أقصد عندما رأيتك للمرة الأولى». أخبرني ناثان بوقت لاحق أنه كان يراقبني أثناء جلساتي مع آنا عبر نافذة مكتبي. وعندما دخل متظاهرًا بأنه وصل للتو تشابكت نظراتنا، وفي تلك الليلة حلمت به.

دخل رأسي ولم يغادر أبدًا. حتى الآن وهو يأخذ يدي أشعر بتواصل أثيري بيننا. أول مرة لمسني فيها، أول مرة قبّلني بها، أول مرة أحاطني فيها بذراعيه، أول عشاء رومانسي هنا في هذه الغرفة. جميع اللحظات الأولى اجتمعت في هذه اللحظة المذهلة. وعلى الرغم من همسه سابقًا في أذني «أتتزوجيني؟» إلا أن خطبتنا لم تكن حقيقية حتى الآن.

سألني وصوته يفيض بالمشاعر «ماريسا بارليت، هلا تقضين بقية حياتك معي؟ أتقبلين الزواج مني؟».

خيّم الصمت بالغرفة وحبس الجميع أنفاسهم. ثم شهق أحدهم. كانت لورين. رأيت آنا تكتب رسائل بغضب على هاتفها. ابتسمت لناثان ثم ضحكت. لقد أردت هذا، على الرغم من أن طلبه الزواج وهو يجلس على ركبة واحدة وإعلان الحب يبدو أمرًا مبتذلاً، إلا أنها ما زالت لحظة مثالية.

أجبته قائلة «نعم، أقبل الزواج منك، نعم».

مرر خاتم خطوبة من الذهب المزخرف بإصبعي ثم قام وعانقني بأحضانه متأرجحًا بينما يهتف الضيوف ويصفرون. أنزلني ثم رفع يدي عاليًا متفاخرًا بخاتمي الجديد. وبطرف عيني رأيت لورين منحنية إلى الأمام بينما كان وجهها يبهت.

قال كيث وهو يرفع كأسه «مبارك يا أخي ستتزوج طبيبة نفسية، ربما يمكنها معالجتك».

هل يعتقد أنه يمزح؟ نظرت لناثان بينما كنا نجلس مجددًا، لكنه كان لا يزال مبتسمًا ولم يسمح لأخيه بأن يعكر صفوه. قال له «بإمكان ماريسا معالجة أي شيء».

أردفت قائلة «أنا لست طبيبة نفسية على وجه التحديد. أنا أخصائية علاج أمراض النطق. أساعد الأطفال الذين يعانون من اضطرابات الكلام واللغة».

سأل كيث بنظرة اخترقتني «لستِ طبيبة نفسية؟ يا للأسف، فناثان يحتاج للعلاج».

«كيث!» قالتها هيدرا محذرة ثم نظرت لي نظرة اعتذارية وأردفت «نحن سعداء لكليكما».

«نعم، مبارك» قالها وهو يربت ظهر ناثان ثم أردف «متى ستقيمون حفل الزفاف؟».

نظر ناثان إليّ وقال «كنا نفكر... بنهاية الربيع؟».

قلت وأنا أبتسم له «كان موعدنا الأول في مايو سنتزوج في مايو أيضا».

كان أول ما لاحظته عندما كنت أقف ببابه الأمامي هو قميصه المقلوب وشعره الذي كان في حالة فوضى ونظرة الصدمة على وجهه، فقد أتيت مبكرًا لكن الصدمة تحولت على الفور إلى فرحة. انجرف هواء المحيط المالح وامتزج عطره الرقيق مع رائحة الصنوبر المنبعثة من الغابة. قال لي وهو يرشدني للداخل «أحاول الطهي، أتمنى ألا تؤلمك معدتك».

أجبته «لحسن حظي لدي طبيب بالقرب مني».

«لقد نسيت كيف تجري الأمور، أقصد المواعدة. لقد تحولت لوالد آنا منذ زمن طويل».

«أنت تطهو لها، أليس كذلك؟».

«المعكرونة والجبن والساندويتشات. إذا كنتِ تدعين هذا طهيًا».

لكنه لم ينسَ كيفية المواعدة. كان الأمر يمر بسلاسة معه، وضحكه السلس والطريقة التي جذبني بها بتلك الابتسامة وقصصه المضحكة.

قالت هيدرا «لن يقيم ناثان حفل الزفاف بالصيف، متمرد كعادته. ماذا سترتدي؟ زي العمل؟».

أجابها وهو يغمز لي «سأختار التوكسيدو».

قلت «لكنني أفكر بالخروج عن المألوف». أريتها صورة لي على هاتفي وأنا أرتدي فستانا طويلا من الحرير الأنيق باللون الأزرق الفاتح. خصره الضيق والتنورة الطويلة وتموج خط العنق تبرز معالم جسدي. أردفت «أعطته لورين لي بالكلية»، آخر هدية منها حين كنا على صداقة حقيقية.

«إنه رائع» قالتها هيدرا.

أضاءت عينا لورين ثم قالت «أنا وماريسا اعتدنا أن نذهب للتفتيش عن الملابس معًا. أنتِ تعرفين، التسوق بالمتاجر الرخيصة».

سألت هيدرا وهي تميل «هل وجدتِ هذا الفستان في متجر رخيص؟».

أجابتها لورين «إنه اكتشاف نادر من الثمانينيات».

«يا للروعة» قالتها آنا وهي تكتب الرسائل بغضب ثم أردفت «هذا فستان سينمائي. أمي تبيع مثل تلك الفساتين في متجرها».

شهقت هيدرا قائلة «إنه رائع».

أردفت لورين قائلة «الفستان بمقاسنا كلانا لكنه يناسب ماريسا أكثر».

كذبت لورين، فالفستان يناسبها تمامًا وقد ارتدته مرتين قبل إعطائه لي، فقد أحبت اللون الأزرق اللامع والحياكة اليدوية. كانت تحدق في الصورة بنظرة حنين في عينيها. بينما استيقظ بداخلي شعور بالخيانة بعد أن كان نائمًا لوقت طويل ثم تجمد الدم في عروقي. إذا

طلبت مني إعادة الفستان بعد كل هذا الوقت فسأرفض. لقد سرقت مني ما يكفي بالفعل.

سأل كيث هيدرا «لماذا لم ترتدي شيئًا كهذا في حفل زفافنا؟».

«أنت من اختار فستاني، أم أنك لا تتذكر؟».

«لقد كان مثاليًا عليكِ». مد يده نحو يدها لكنَها أزاحت مقعدها ووقفت فجأة:

«أستميحكم عذرًا» قالتها ثم ذهبت باتجاه الرواق نحو الحمام.

قال جنسن وهو يرفع كأسه «حسنا، نخبكم».

يحف الهواء بغياب هيدرا على الرغم من صوت الكؤوس وتبادل الأنخاب. كانت آنا تنقر بإبهاميها على شاشة هاتفها الخلوي، ويبدو أن كيث يرسل الرسائل أيضا. نظر إليها وابتسم ثم ابتسمت له بدورها ثم وضع هاتفه في جيبه.

وقفتُ لأنقل الأطباق إلى المطبخ، وعندما استدرت باتجاه الرواق رأيت هيدرا تخرج من الحمام وكانت الماسكارا ملطخة تحت عينيها. تقدم ناثان نحوها وهمس لها شيئًا باختصار. أومأت له ثم عبست. بعدها ذهب هو إلى غرفة نومنا وعادت هيدرا إلى غرفة الطعام. انتابني شعور بأن هناك شيئًا غريبًا يحدث لكنني تغاضيته.

تركت الأطباق في الحوض، وعندما جلست إلى المائدة مرة أخرى كان ناثان قد عاد إلى مقعده ويشاهد آنا تلتهم الحساء. كيف

وصلنا إلى الطبق الرئيسي؟ بالكاد أتذكر أخذ وعاء التقديم من المطبخ ووضعه بوسط المائدة.

دفعت آنا مقعدها إلى الخلف وقامت بخفة ثم قالت «هل يمكنني الذهاب إلى غرفتي الآن؟ لقد انتهيت. شبعت جدًا».

سألها ناثان عاقدًا حاجبيه «أكلُّ شيء على ما يرام؟ لا يزال الوقت مبكرًا».

«عليّ القيام ببعض الأشياء. الواجبات المنزلية وما إلى ذلك».

قال كيث «أو تصوير المزيد من مقاطع الفيديو الخاصة بالسناجب؟»

«إنها أفلام وثائقية عن الحياة البرية. لكنني غير مسموح لي الخروج بعد حلول الظلام» قالتها ثم سارت حول المائدة لتقبيل والدها على خدّه قبل أن تسرع نحو الرواق. لم تشتكِ من إعلان خطبتنا. لكنني أتساءل عن كل الرسائل التي كانت تكتبها وخروجها المفاجئ.

قال كيث «إنها جين جودل[1] الجديدة، عندما تكبر ستسافر إلى تنزانيا لتعيش مع قرود الشمبانزي»

أجابه ناثان «لا تقل ذلك بصوت عالٍ. فقد تجرب ذلك. لطالما كانت تجلس ساكنة بالغابة. وجدتها تتتبع صف من النمل وهي مفتونة بهم عندما كانت في الثالثة من عمرها».

---

(١) بريطانية متخصصة في الرئيسيات وعلم السلوك والأنثروبولوجيا، وسفيرة الأمم المتحدة للسلام. وتعتبر الأكثر خبرة في الشمبانزي على مستوى العالم.

سألته هيدرا «ممن ورثت تركيزها؟».

أجابها ناثان وهو يفرد الزبدة على الخبز «من والدتها. بإمكانهما كليهما أن تكونا مهووستين بشيء واحد لساعات».

أردفت هيدرا بصوت منخفض «عندما اعتادت أن تتلعثم. هل كان الأمر وراثيًا أيضا؟».

أجبتها قائلة «يمكن أن يكون الأمر وراثي، فالتلعثم حالة عصبية. يمكن أن تكون بسبب مشكلة في التحكم بالكلام».

أضافت هيدرا «لقد كانت محبطة من طلاق والديها أيضا، إنها على الأرجح..»..

قلت لها «التلعثم بسبب صدمة عاطفية أمر نادر الحدوث».

أومأت هيدرا واحمر وجهها قليلًا بينما تقلّب الحساء. استمر كيث في النظر إلى طبقها كما لو كان يراقب محتوياته. أما لورين فكانت تنظر إلى هاتفها الخلوي ثم رفعت نظرها نحونا ووجهها شاحب. «أوه، آه، يوجد حالة طارئة. أخشى أنه عليّ الذهاب» قالتها وقامت على الفور.

سألها جنسن وهو يسحب معصمها «ما الأمر؟».

تجهمت وشدّت ذراعها بعيدًا عنه ثم قالت «إنها برين. على أن أوصلها من حفل في المدينة».

قال لها «سأذهب معكِ».

«لا ابق أنت».

قال لها «لورين، لا يجب أن تقودي سيارتك هكذا».

قاطعه ناثان قائلًا «نعم، ابق لبعض الوقت».

«سأكون بخير. مبارك لكما على خطبتكما».

قمت وتبعتها نحو البهو ثم سألتها وأنا أسحب معطفها الواقي من المطر من الخزانة «أكُلُّ شيء على ما يرام؟».

«أحتاج بعض الهواء. لنتحدث بالخارج».

خرجت معها نحو البرد وكان المطر قد توقف. ابتعدنا بضع ياردات عن المنزل حيث كان الليل يفوح به رائحة عشب البحر والملح وخشب التنوب. سألتها مجددًا «هل برين بخير؟».

«إنها في السادسة عشرة من عمرها. يبدو كل شيء وكأنه نهاية العالم بالنسبة لها».

نظرت لورين خلف كتفي باتجاه منزلنا. كان القمر الساطع يضيء ملامحها ويخرجها من الظلام ويشكلها داخل شعاعه. قالت لي «شكرًا على العشاء يا ماريسا، أنا حقًا سعيدة لكِ ولناثان».

«كان من الممكن أن تخدعيني. ماذا كنتِ تظنين نفسك فاعلة عندما كنتِ تتقربين له؟».

«أعلم أنني أكثرت من الشراب. لم أقصد..».

«لا، أنت لا تقصدين شيئًا أبدًا» شبكت ذراعي نحو صدري من البرد ثم أردفت «اعتقدت أننا يمكن أن نكون أصدقاء مرة أخرى، ولكن..».

«يمكننا. لقد حدث الكثير من الأشياء التي لا تدري عنها شيئا. أحتاج أن أشرح لكِ..».

«ما الذي يمكن شرحه؟» تذكرت صورة لورين وهي تتقرب من ناثان ولم أشعر بالشفقة تجاهها. قلت لها «عليّ أن أعود للداخل..».

«أعلم أن لديكِ ضيوفًا، لكن..». قالتها وهي تتقدم نحوي بصوت مستعجل ثم سحبت ذراعي وحفرت أظافرها في جلدي. سحبت ذراعي بعيدا عنها. أردفت هي قائلة «أحتاج إلى التحدث معكِ».

ناداني ناثان من الباب «ماريسا؟». خرج تحت ضوء الشرفة ثم سأل «أستعودين؟»

قلت لها «عليّ أن أعود للداخل».

نظرت لورين نحوه ثم إليّ وقالت «هل يمكننا أن نتحدث غدًا؟ وحدنا؟».

«أخبريني الآن. ما الأمر؟».

نادى ناثان مجددًا «ماريسا؟».

لبيّت نداءه قائلة «سأعود حالًا!».

تردد قليلًا ثم عاد إلى الداخل.

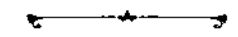
أردفت لورين وهي تراقبه يتراجع نحو الداخل «غدًا، الأمر مهم. أنتِ بحاجة لسماع الأمر، فهو يتعلق بناثان».

«ماذا عنه؟».

قالت وهي تستدير «في الصباح، سأقول لكِ».

«انتظري!».

لكنها هرعت نحو المنزل.



الفصل الثاني

فكرت في الركض وراءها، لكن لا يوجد شيء يمكن أن تخبرني به عن ناثان وأنا لا أعرفه بالفعل. لكن بينما كانت تعبر الياردات الخمسين بين منزلينا كنت أنا أفقد السيطرة بالفعل. ابتلعها الضباب ثم سمعت صوت ارتطام الباب السلكي من بعيد. بقيت بالخارج لتهدئة أفكاري.

ظهر ظل آنا من نافذة غرفة نومها وسمعت صوت الأغنية الرقيقة الصادرة من صندوق مجوهراتها. هذا اللحن المستوحى من بحيرة البجع[1] منحني الطاقة للعودة إلى الداخل ولعب دور المضيفة الكريمة التي تمت خطبتها حديثًا إلى رجل أوقعها بحبه سريعًا.

حين كنت أعالج آنا، لم أتخيل أبدًا أنه سيدخل إلى مكتبي ويرميني بتلك الدوامة. كان يرتدي زي العمل الأزرق وأتى مباشرة عقب مناوبة بعد الظهر. قال شيئًا مثل «ديكور رائع». صوته العميق فتنني. هذا كل ما تطلبه الأمر لأقع بحبه. حينها طارت آنا نحو ذراعيه. كانت مشكلتها أكثر صعوبة من معظم الحالات. كانت تتلعثم في منتصف

(١) أحد أشهر المقاطع الموسيقية للموسيقار تشايكوفسكي

الجملة وكثيرًا ما كانت تنغمس في الصمت. لكنني عملت معها على تشكيل الطلاقة وتركيز تنفسها وتخفيف القلق، وببطء خلال ما يقرب من عام تحسنت حالتها. آمل أن تقبلني في بيتها. آمل أن تحبني بقدر ما أحبها. بقدر ما أريد أن أحبها إذا سمحت لي.

في الوقت الحالي استمتعت ببضع دقائق في الهواء الطلق. تبعت الطريق الحجري عبر الحديقة على حافة غابة كثيفة. بعد هذه الغابة ينخفض جانب التل برفق نحو الشاطئ وينتهي بسلم خشبي طويل يؤدي إلى الأسفل، عددت درجات السلم ١١٥ درجة. تمرين عظيم لعضلة القلب.

لا يوجد سلم في منزل آل إكلوند المجاور لأن المنحدر مرتفع هناك والهاوية شديدة الانحدار والخطورة. خلف منزل آل إكلوند يعيش آرثر نجوين، محامي قضايا أسرة، والمفارقة أنه مطلق وفي الستين من عمره. هجرته طليقته الأصغر منه سنًا هي وبناته الثلاث وانتقلن إلى كاليفورنيا. يسلّي نفسه بتمشية كلبه من نوع كاير ن تيرير الذي يدعى بيرت، كما يحب التظاهر بالصيد في البركة الصناعية الكبيرة بالباحة الخلفية لمنزله. تبدو كبحيرة صغيرة أكثر من كونها بركة. دعاه ناثان للانضمام إلينا لتناول العشاء الليلة لكنه رد الدعوة.

استنشقت الهواء المالح واستمعت إلى صوت تدافع أمواج البحر الناعم. نسكن على بعد خمس عشرة دقيقة من ضواحي ترانكيل كوف وهي بلدة هادئة يسكنها عشرة آلاف نسمة بغرب سياتل على شاطئ خليج إنشانتد في شبه جزيرة أولمبيك، وهي مضيق محمي ومنحني يتدفق من المحيط الهادئ، شاعري وهادئ. لم أكن أتوقع

أن يقوم كل من لورين وجنسن بشراء المنزل المجاور لناثان، ولكن تتابعت الأحداث سريعًا كخرز المسبحة. منزل مطل على البحر معروض للبيع، نقص في سوق العقارات، والهندسة المعمارية الشمالية الغربية التي كانت تحلم بها لورين حين كنا أطفال.

كانت تقول لي «عوارض من خشب الأرز المكشوف ومقصورة من جذوع الشجر وأسقف مقببه، قد أموت سعيًا لأحصل عليه، أريد هذا المنزل».

بنى نفس المهندس المعماري كلا المنزلين، منزل ناثان ومنزل آل إكلوند. أما شرفة آرثر نجوين الساحرة والمعاصرة فكانت تظهر على الزاوية بشكل شاذ وغير مناسب لمحيطها.

سمعت صوت جنسن عبر الهواء عندما فتح باب المطبخ وهو يقول «شكرًا يا رجل.. بلّغ شكري لماريسا». لم يكن يراني هنا في الظلام. كان منكمشًا في معطفه وهو يهرع إلى المنزل لينضم إلى لورين. لم يستطع الابتعاد عنها بنهاية الأمر.

عدت إلى الداخل وخلعت معطفي. ابتسمت وأخرجت كعكة من الشوكولاتة المنزلية للتحلية.

ولاحقًا بعد ذهاب كيث وهيدرا للنوم، شعرت بالإرهاق لكن لم يمكنني إغلاق عيني. كنت أتذكر وجه لورين المضطرب في ضوء القمر. ربما كان عليّ أن أتبعها للمنزل. لكنني لم أكن أريدها أن تعكر صفو الليلة.

حاولت تذكر ذكريات أفضل حملتها معها منذ فترة طويلة. عندما كنا بالثامنة تقريبًا، ساعدتني في صنع منحوتات رملية على الشاطئ. شكّلنا معًا حوريتي بحر بذيلين متشابكين في الرمال. قالت لورين «سوف نخرج من البحر ونتزوج البشر ثم نعيش بسعادة إلى الأبد كشقيقات حوريات».

كنا أقرب الأصدقاء آنذاك وكنا نتشارك الآمال والأحلام. متى انهارت صداقتنا بالضبط؟ هل كان ذلك بعد أعوام عندما كنا شباب في الكلية مدفوعين بالهرمونات والطموح؟ أو أن الصدع تشكل بيننا في وقت سابق؟ أصبحت الذكرى غير واضحة بعد مرور كل تلك الأعوام.

في الحمام الرئيسي مددت يدي إلى الجزء الخلفي من خزانة الأدوية لأجد حبوب المنوم المخبأة هناك. وصفها طبيبي قبل ثلاثة أشهر لعلاج نوبة من الأرق غير المبرر. لكنني حينها تناولت حبة واحدة فقط كانت كافية لتفقدني وعيي. لا ينبغي عليّ تناول واحدة أخرى. يجب أن أتمكن من تهدئة قلقي. كنت قد شارفت على النجاح خلال الأعوام القليلة الماضية. فقد تفوقت في مهنتي حيث عالجت أكثر من خمسين طالبًا في الأسبوع بالمدرسة الابتدائية. وساعدت آلاف الأطفال في التغلب على اضطرابات النطق واللغة. ووقعت في حب رجل مخلص ومهتم. لم أدع الماضي يتحكم بي.

ابتلعت الحبة الصغيرة مع كوب من الماء في غرفة المعيشة ثم خلعت حذائي وانغمست بجسدي في الأريكة. لست مستعدة للنوم بعد. يغني المنزل تهويدة سلسة في أنفاس حارة تنبعث من فتحات

تهوية السقف مع همسة بعيدة من المياه الجارية. لا بد أن ناثان يفرّش أسنانه. جعلتني الأصوات أسترخي وأثقلت جفوني.

بعد بضع دقائق كان ناثان يتنفس في غرفة المعيشة مرتديًا منامته المخططة باللونين الأزرق والأبيض.

قلت له «أنت ترتدي ملابسك، يا لها من خيبة أمل»، فعادة ما ينام عاريًا.

أجابني بينما يجلس بجواري ويضمني بين ذراعيه «للأسف لدينا ضيوف بالمنزل»

همست وأنا أضع إصبعي على شفتي خجلًا «رويدك، الضيوف بنهاية الرواق».

«لا يمكنهم سماعنا. ينام كيث مثل الموتى عندما ينهي واجبه اليومي من التصرف مثل الحمقى».

«إنه شقيقك».

أخفض صوته قائلًا «شقيقي بالدم فقط».

«ماذا، ألا تحب عائلتك؟».

«حب. هذه كلمة قوية».

«أعرف أنه كان قاسيًا عليك، لكن هكذا يتصرف الأطفال».

همس لي قائلًا «لا تملكين أي إخوة أو أخوات. ليس لديكِ أدنى فكرة عن الأمر. أتعرفين ماذا فعل ذات مرة؟ حبسني في السقيفة

عندما كان من المفترض أن يرعاني. أراد الذهاب إلى حديقة التزلج مع أصدقائه. هددني بالقتل إذا وشيت به».

«هل وشيت به؟».

«قطعًا لا. كنت بالسابعة بينما كان في الثالثة عشرة من عمره. كنت متأكدًا أنه بإمكانه قتلي».

قلت هامسة «لم يكن علينا دعوته، أو أي منهم».

«دعينا نتخلى عنهم ونتزوج غدًا».

شبكت أصابعي بأصابعه قائلة «لكننا نحتاج إلى وقت للتخطيط».

«أي تخطيط؟ لنقيم حفل الزفاف في حديقة المنزل».

«أنت لا تملك حديقة. لديك طحالب وأشجار».

«إذًا سنقيم حفل الزفاف في الطحالب والأشجار».

«ماذا يجب أن أرتدي؟ الفستان الأزرق الذي أريته للجميع؟ إنه جريء.. الأزرق بدلًا من الأبيض».

«أفضّلك من دون ملابس. هذا ما كنت أفكر فيه باليوم الذي التقيت بكِ فيه».

«كنت ترتدي زي العمل المثير. لكن عينيك هي من لفتت انتباهي. فأنت تملك تلك العيون المذهلة».

«اخترتها فقط لأجلك».

«هل تعني أن لديك عيونًا أخرى؟».

«أنتِ واختيارك. كنتِ بهذا الجسد الرائع ترتدين قماشا رقيقا كالشاش».

«الكتان».

«أيًا كان. وكنت قد طليتِ أظافرك بلون وردي فاتح. كنت أرغب في تقبيل أصابع قدميك».

«لم أكن أعلم أنك تشتهين الأقدام» قلتها له وأنا أضرب ذراعه مازحة.

رد «أشتهي ماريسا».

«ولورين تشتهي ناثان».

أمال رأسه إلى الخلف وتأوه قائلًا «أوه لا، دعينا لا نتحدث بذلك».

«لقد كانت تتقرب إليك».

نظر إليّ بحاجبين منعقدين قائلًا «ماذا تقصدين بذلك؟ لم ألاحظ..».

«توقف عن المراوغة. لقد أحببت الاهتمام».

ضحك قائلًا «لقد تخطت حدودها قليلًا».

«عندما غادرت قالت إنها بحاجة إلى التحدث معي وحدي لتخبرني شيئا عنك»

قبّل عنقي وشعرت بالإثارة ثم سأل «فعلًا؟ ماذا عنّي؟».

«تريد أن تخبرني غدًا».

«أخبريني عما ستقوله. أنا متحمس لسماع أسراري».

سحبت جسدي بعيدًا قليلا ثم سألته «ماذا يمكنها أن تخبرني عنك؟».

هز كتفيه وكانت عيناه مرتخية وهو يقول «ليس لديّ أدنى فكرة. من يهتم؟ دعينا نذهب إلى الفراش».

التقطت هاتفي الخلوي وقلت له «لقد وعدت جولي بأن أحاول الاتصال، لكن الوقت متأخر الآن. أشعر بالغرابة أن تتم خطبتي من دونها».

«كنا مخطوبين بالفعل. لقد حافظت على سرنا».

«لكنها كانت لترقص معي الليلة» قلتها بصوت منخفض.

«كانت لتنعش الجو».

«سنؤكد على حضورها لحفل الزفاف. هل تحدثتِ معها مؤخرًا؟».

«راسلتني في آخر مؤتمر لها. كانت تدرّب معجبي الفن الشباب في العصر الحديث أو شيئا من هذا القبيل».

«الحياة السريعة لمعلمة الفن بالمدرسة الابتدائية».

«وأعيش أنا الحياة المنزلية لأخصائية علاج أمراض النطق» دفنت نفسي بين ذراعيه ثم أردفت «أريد أن أبقى هكذا إلى الأبد».

شد بقبضته عليّ وقال «لا أريد العودة إلى العمل أبدًا».

«لا تعُد إذًا. ابقَ هنا حتى أتمكن من شم رائحتك» شممت عنقه واستنشقت رائحة الصابون الباهتة ورائحة العطر الرجالي التي لا يمكن تحديدها.

«أهذا كل ما تحبينه فيّ؟ رائحتي؟».

«نعم، هذا كل ما أحبه فيك» قلتها وأنا أضغط على بطنه ممازحة.

«أوه، أنتِ تقتلينني». قبّلني مجددًا ولكن بشغف هذه المرة ثم قال «أحبكِ بجنون».

قلت له جملتي المشهورة «وأنا أحبك أكثر جنونًا، وأحب آنا أيضا».

«وهي تحبكِ أيضا».

«بدت مستاءة. اعتقدت أنك ستقول لها..».

«فعلت ذلك بطريقة لطيفة. ولكن أعتقد أنها لم تصدق إلا بعد أن طلبت الزواج منكِ رسميًا على العشاء أمام الجميع».

«كانت مستاءة. لقد هربت».

«إنها بخير. كانت نائمة بآخر مرة ألقيت نظرة عليها فيها. تعالي». وقف وشد ذراعي بلطف.

تذكرت لورين منذ أعوام وهي تشد ذراعي في شقتنا المشتركة. «تعالي، لنذهب إلى الحفل. يمكنكِ الدراسة في وقت لاحق»،

ذهبت معها بغباء بينما نبذتني طوال الليلة. لا شيء يفسد الجو مثل ذكرى سيئة.

«سأكون هناك خلال دقيقة» قلتها له وأنا أبتعد.

«لا تتأخري» قالها ثم اتجه إلى الفراش، أما أنا فأغمضت عيني سارحة في خيالي: أتجول في حقل عشبي، السماء مظلمة، وتنهار الأمواج على شاطئ بعيد. يتحول الحقل إلى الصف الدراسي. وأجد نفسي أساعد آنا على إرخاء حجابها الحاجز وهي تبتسم لي لكنها ليست آنا. إنها لورين، تبتسم ابتسامة عريضة وأسنانها حادة. إنها ستؤذيني. أنظر حولي بحثًا عن سلاح. لكن لا أجد شيئا. لورين تندفع نحوي وأنا أدفعها فتخر ساقطة. بإمكاني أن أشعر بهواء الليل البارد على جلدي. إنها تتراجع نحو الخلف وكلانا يسقط في الفضاء. يمر الوقت لدقائق وربما ساعات.

استيقظت مفزوعة وبحلق جاف. جلست بسرعة ألهث في الظلام. أشعر بالبرد والدوار وقدمي تعرقلني. كم الساعة؟ لا أستطيع التنبه. الساعة في المطبخ تشير إلى ١٢:١٥ صباحًا ويطل البدر من أعلى السماء. يمكنني سماع إيقاع الأمواج على بُعد.

كان حذائي الأسود على الأرض بجانب الأريكة. التقطته ومشيت على أطراف أصابعي عبر الرواق نحو غرفة النوم. غيرت ملابسي وارتديت منامة في الظلام ثم نمت على الفراش بجوار ناثان. كان يشخِّر بهدوء. غصت بالنوم مرة أخرى وضِعت في سبات عميق حتى أيقظني صوت. ربما صوت صرير الفراش أو تغيير وضع المرتبة عندما يقوم ناثان من الفراش. كانت الساعة الرقمية على الطاولة

تشير إلى ٢:٠٥ صباحًا. كان يحاول ناثان أن يكون هادئًا لكنني أسمع أنفاسه وأرى الصورة المشوشة لظله عبر رموشي. جسدي ثقيل بالنوم بسبب الدواء. ومن خلال النافذة المفتوحة قليلًا تسربت أصوات الليل، صوت تخبط الأغصان الصغيرة وصوت تقطير المطر المتبقي من مجراه التفريغ. كانت رائحة الهواء باردة ونظيفة. في البداية، كنت متأكدة من ذهابه إلى الحمام، لكنه كان يتحرك خلسة وسحب سروالًا وسترة وحذاء. هل لديه مناوبة ليلية؟ قال إنه ليس لديه. «ليس هذه المرة».

أريد أن أمد يدي نحوه، أريد أن أقول شيئًا ما، لكن تفكيري مشوش. حافظت على ثبات تنفسي كما لو كنت نائمة. أعتقد أنه كان ينظر إليّ في الظلام لكن لا أستطيع التأكد. أدار ظهره لي وحنى رأسه إلى أسفل، وجهه كان مضاء بنور شاشة هاتفه. هل يراسل أحدا؟ هل يقرأ رسالة؟ كان ليخبرني إذا كان هناك حالة طارئة. كان ليوقظني. لكنه لم يفعل. اتجه نحو الرواق وأغلق الباب خلفه.

تدفقت الأفكار إلى عقلي وسمعت النباح البعيد لكلب آرثر نجوين على بعد. عندما استيقظت مرة أخرى صدر صوت صرير من اللوح الخشبي لأرضية الرواق وانغلق باب قريب برفق. لا بد أن أحدهم استيقظ، لكن هذه المرة ليس ناثان. إنه في الفراش بجانبي، تنفسه سلس ومنتظم. بدا الأمر كما لو أنه لم يغادر أبدًا. وفجأة صارت الساعة ٦:٤٥ صباحًا. ربما كان إغلاق الباب وصوت صرير الأرضية ولورين مجرد حلم.

استيقظت بهدوء وارتديت سروالا جينز وسترة وجواربا. كان ناثان لا يتحرك. ارتديت معطفي في البهو ثم ارتديت حذائي الذي كان لا

يزال رطبًا ربما بسبب تمشية الأمس، وكان هناك بضع وريقات من العشب تتشبث بالنعال.

سرت في الخفاء نحو الخلف عبر الحديقة. وقادتني آثار أقدامي الخفيفة عبر التراب، لا بد أنها أيضا من أمس، لكن المطر هطل بالأمس. الأمر غريب! ارتجفت وألقيت نظرة خلفي. كنت أتوقع أن أرى ظلي يلاحقني.

نزلت على السلم الطويل إلى الشاطئ. وعندما وصلت للأسفل اتجهت يمينًا نحو الشَمال على طول الخط الساحلي الصخري المليء بالمخلفات. كانت ساقاي ترتجفان ولكن كلما مشيت كلما أشعر بأنني أقوى وكلما أكون أكثر يقظة. عندما وصلت إلى الجرف استدرت إلى الخلف وملت نحو الرياح. كانت أشجار المادرون والتنوب متناثرة في الجزء العلوي بشكل خطير. والآن يبدو اختفاء ناثان ليلًا عاديًا تقريبًا. خرج لتنشق الهواء. أو الاتصال بشخص ما في العمل. لا داعي للقلق. سنعيش في سعادة إلى الأبد. لن يقف شيء في طريقنا.

ولن أتناول هذا الدواء مرة أخرى أشعر بأن رأسي مشوش. لدي الكثير لأفعله مثل عرض منزلي الصغير للبيع واختيار الأثاث الذي سأحضره إلى منزل ناثان. قراري للانتقال إلى هنا أمر حقيقي. أنفذ خطط المستقبل بالفعل.

كنت أميل نحو الرياح بعزم متجدد. كنت قد عدت تقريبًا إلى السلم الخشبي على الجرف عندما رأيت كومة من الملابس أو مجموعة كبيرة من عشب البحر على بعد عدة ياردات جنوب السلم. أسرعت

نحوها والصداع يدق رأسي. غطيت ذقني من الهواء وحذائي كان يصدر صوتا من الأسفل. كما تخدرت أصابع قدمي وتخلل البرد إلى عظامي. كان عليّ أن أرتدي حذائي الجديد الحريري الطويل من ماركة جونز الذي اشتراه لي ناثان لفصل الشتاء.

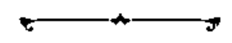
وبينما كنت أتجه نحو الكومة المظلمة في الرمال امتد الشاطئ أمامي ووجدت مظلة مكسورة ملقاة بأسفل الهاوية. المقبض مغروس في الرمال تمامًا كطير غريب تعثر ساقطًا من أعلى المنحدر. تعرفت على النقش الأزرق الساطع لقطط لوريل بورش[1] وخفق نبضي.

لا أستطيع التحرك بسرعة كافية. تسلل الحصى إلى حذائي وأبطأني لكنني قريبة بما فيه الكفاية الآن لأراها. لم تكن كومة عشب بحر على الإطلاق كما أنها لم تكن كومة من الملابس. إنها امرأة ترتدي معطفا أسود طويلا مستلقية على بطنها ورأسها ينظر نحو الجانب وساقاها منحنيتان بزاوية غريبة حيث إن إحدى ساقيها منحنية إلى الخلف، كما كانت حافية القدمين ويطير شعرها الداكن على وجهها.

أسرعت نحوها، وانحنيت بجانبها. شعرت بالدوار وخشيت أن أفقد وعيي. حاولت هزها لكنها لم تجب. جزء مني يتراجع خارج جسدي ويراقب من بعيد. وجدت خلفها انهيارا صخريا مخلفًا كومة كبيرة من الحطام بأسفل الجرف. لا بد أنها سقطت حتى الأسفل. تباطأ الوقت وضاق العالم من حولي. أراها كما كانت بالأمس

(١) فنانة ومصممة أمريكية.

تمامًا، بابتسامتها الجذابة وفستانها الأسود الملتصق بجسدها. انحنيت عليها وصرخت «استيقظي، قولي شيئًا»، لكنها لم تتحرك. كان ملمس خدها باردا وشفتاها زرقاوين وتحولت عيناها إلى لون الرخام الغائم.



الفصل الثالث

ركزّت نظري على نقطة بجدار غرفة المعيشة، على لوحة من الألوان المائية لسمكة زرقاء كبيرة تطفو في المياه الضحلة. كنت أشعر بالبرد الشديد رغم أن ناثان جالس بجواري على الأريكة. ارتفع الغثيان رغم أنني لم أتناول الإفطار. أريد التقيؤ لكن لا يوجد شيء في معدتي. لا شيء سوى الحمض. كانت نافذة غرفة المعيشة مفتوحة وتسمح للهواء الطلق المالح أن يهب. بالكاد أصدق أننا نجلس هنا بينما تجوب الشرطة بالشاطئ والمنزل المجاور. استغرق الأمر عشر دقائق ليصلوا إلى هنا من المدينة.

مررت يدي على حجري. بالكاد يبدوان كأطرافي، ترتجفان وملطختان بقليل من التراب. أم أنه دم جاف؟ غرزت يديّ تحت فخذيّ بعيدًا عن الأنظار.

قلت «أعلينا الذهاب إلى الشاطئ؟».

جذبني ناثان نحوه قائلًا «لقد طوقت الشرطة المنطقة. عليهم فحص الجثة».

جفلت من كلمته «الجثة».

تخيلت لورين تبتسم وتقول لي «هيا لنذهب إلى الشاطئ. رأيت نجم بحر بنفسجي...».

سألت ناثان «ماذا سيفعلون بها؟».

سحب ناثان يدي من تحتي وأمسك بها ثم أجابني «قد يأخذونها لتشريح الجثة».

صعقتني كلمة «تشريح»، وكأن أحدهم لكمني بضلوعي.

سمعت طرق على الباب الأمامي. قام ناثان ليفتح الباب ثم عاد مع رجل طويل القامة يرتدي معطفا أسود واقيًا من المطر وسروالا. كان نحيفا ويملك أصابع رفيعة ووجها ضيقا وعيونا داكنة جاحظة وشاربا خفيفا.

جلس ناثان بجواري مرة أخرى ولف ذراعه حول خصري ليطمئنني. بينما جلس المحقق في الكرسي ذي المسندين أمامنا وأخرج مفكرة قديمة الطراز وقلم رصاص.

«اسمي دان هاردينج، وقد تم تكليفي لحل هذه القضية»، قالها وهو يعطينا بطاقة أعمال.

سألته «أنت محقق، أهذا يعني أنها قُتلت؟»، لورين ليست قضية. إنها شخص. أو كانت شخصًا. عاشت وتنفست، أحبت وكرهت، ضحكت وبكت.

«نحن نحاول معرفة ما حدث».

قام بتدوين معلوماتنا الشخصية. ولاحظت أنه لا يرتدي خاتم زواج، وسترته معلقة من كتفيه، ولم يفرد سرواله. نظر إليّ مرة أخرى ثم سأل «أخبريني ماذا حدث هذا الصباح».

انعقد لساني وشعرت بأنني أطوف مرة أخرى.

قال ناثان «إنها في حالة صدمة، هل من الضروري القيام بذلك الآن؟».

«عادة ما تتلاشى الذاكرة بمرور الوقت. يجب أن نتحدث الآن قبل أن تتلاشى ذاكرتك».

كان يتحدث كما لو أن ذاكرتي لها تاريخ انتهاء صلاحية. من الأفضل استخدامها قبل....

«أنا بخير» قلتها على الرغم من أنني أرتجف وعقلي مشتت تمامًا.

نقر المحقق ممحاة قلمه على المفكرة ثم سأل «لماذا كنتِ على الشاطئ في هذا الوقت المبكر؟».

أجبته بصوت ضعيف «ذهبت للتمشية، أذهب كل صباح في وقت مبكر عندما أقيم هنا لبضعة أيام في الأسبوع. فأنا أعيش بالجانب الآخر من البلدة على طريق جونيبر. أتمشى لأنشط دمي وأفيق. أقمنا حفل عشاء الليلة الماضية وكان رأسي يدور قليلًا»

«بسبب....؟»

قلت له «تناولت كأسًا من النبيذ، أو اثنتين. وحبة من المنوم. كانت مناسبة خاصة. فقلما أشرب الخمر. أنا أعاني من الحساسية

نوعًا ما. عندما أشرب النبيذ، وبالأخص النبيذ الأحمر ينسد أنفي وأشعر بالدوار. اضطررت إلى الخروج لكي أصفّي ذهني».

«هل رأيتِ أي شخص آخر هناك؟».

«لم أمعن النظر. كانت المنازل مظلمة. رأيت سفينة شحن على بعد في الماء. لكن لم يكن هناك أشخاص».

«هل رأيتِ أي قوارب أخرى بالقرب؟».

«لا أتذكر أنني رأيت أي قارب. لماذا؟».

«هل رأيتِ لورين عندما وصلت إلى الشاطئ لأول مرة؟».

«لا» قلتها ثم أغلقت عيناي بسبب الشمس. أردت أن انفجر خارج نفسي. أردفت له «سرت في الاتجاه الآخر، شمالًا. ورأيتها فقط عندما عدت. اعتقدت أنها كانت كومة من عشب البحر أو... أحيانًا يجرف البحر بعض الأشياء هنا. لكن... انتابني شعور بالقلق. ثم رأيت المظلة. لقد استعارتها مني بالأسبوع الماضي».

«المظلة ملك لكِ؟» أصدر قلم المحقق صريرًا على المفكرة أزعج أذني.

«تعرفت على نقش قطط لوريل بورش... والمزق الصغير على جانبها. كانت المظلة مقلوبة رأسًا على عقب» أشرت له بيدي ثم أردفت «كانت مغروسة بالرمال كما لو أنها تركتها. هذا هو حالها مع المظلات».

رفع حاجبيه ثم سأل «حقًا؟ كيف ذلك؟».

سالت دمعة بجانب أنفي ومسحتها بسرعة. لم أكن أعلم أنني كنت أبكي. جاوبته قائلة «لقد كانت تأخذ المظلات في كل مكان ثم تنساهم». كنت أفكر وأتساءل بداخلي «لماذا لا أستطيع أن أتنفس؟ لماذا لا أستطيع إيقاف الدموع؟».

أومأ المحقق قليلًا ثم سأل «هل لاحظتِ أي شيء آخر غير عادي بالقرب؟ رمال متناثرة؟ أشياء؟ آثار أقدام؟».

«لا، لا أدري. كان المد قد انحسر. أتذكر أنني كنت أفكر- وأنا أعلم أن الأمر يبدو غريبًا- أن المحيط قد تركها وشأنها. وصل المد إلى معطفها تقريبًا ثم انحسر كما لو أن البحر يحترمها». عادت إليّ الآن صورة معطفها الأسود المطوي في الرياح. كانت حافية القدمين. لا بد أن حذاءها انخلع أثناء سقوطها.

كتب المحقق على مفكرته وتخيلت ما كتب؛ ماريسا بارليت، لوني تونز[1]، ستذهب إلى مستشفى الأمراض العقلية.

«اقتربتِ منها ثم؟»

«تحدثت معها لكنها لم تجب. حاولت هزها»

«هل لمستِها؟»

«لم أكن أعلم أنه لم يكن من المفترض أن أفعل ذلك»

«لا يوجد قانون يمنع محاولة إحياء صديقة»

---

(١) مسلسل كارتوني هزلي للأطفال

أومأت له، تردد صدى كلمة صديقة في ذهني. هل يفهم المحقق كم أن المصطلح معقد؟ خاصة عندما يتعلق الأمر بعلاقتي مع لورين؟

لوّح بقلمه الرصاص في الهواء ثم سأل «سيدة بارليت.. هل حاولتِ إنعاشها؟ هل أجريتِ لها التنفس الاصطناعي؟ أو..».

«ماذا؟ لا» ابتلعت الجفاف في حلقي ثم أردفت «كنت أعرف أن ذلك لن يساعد»

«كيف عرفتِ؟» قالها بصوت حاد.

«كانت عيناها مفتوحتين وكانتا تبدوان غائمتين»، الآن أراها في ذاكرتي بالطريقة التي كانت تبدو عليها حقًا، بالطريقة التي لم أستطع تحمل التفكير بها، الدم الجاف على جبينها وجمجمتها المشوهة والكدمات على وجهها.

قال المحقق «البوتاسيوم، سبب الغيمة هو البوتاسيوم الذي يتم ضخه بسائل العين».

«أوه» قلتها بصوت ضعيف. كيف تم تقليل شأن لورين بسرعة إلى مجموعة من المواد الكيميائية والأعضاء؟ وفي نهاية المطاف ستتحلل إلى تراب وتطير وتُنسى، كمصيرنا جميعًا. عضضت شفتي لأمنع دموعي.

قال ناثان «ليس عليكِ التحدث عن هذا»، ثم ضمني نحوه بشدة وكان نبضه يجلجل بي.

«أحتاج أن أقول ما رأيته... هذا يساعدني على فهم الأمر. لكن لا يوجد أي منطق في ذلك، أليس كذلك؟».

رأيت لورين في ذهني تتمايل بوركيها وشعرها الداكن يلمع في الشمس. أراها في سن الخامسة، كان شعرها ساحرًا بالفعل وهي تغني بصوت لاهث ونحن نلعب الحجلة على الرصيف.

قال ناثان «لم تكن لتذهب إلى حافة الهاوية».

مددت يدي نحو يده الشاغرة، وأمسكت أصابعه بإحكام. تكوّنت الصورة في ذهني. لورين تتعرقل نحو الخلف وتسقط نحو الهاوية.

«فعلًا؟» رفع المحقق حاجبيه ثم مال نحو الأمام وسأل «هل كانت تخشى المرتفعات؟».

رد ناثان «جدًا، كانت تشعر بالرعب من المرتفعات. لم تذهب أبدا إلى شرفة المراقبة»

دوّن المحقق ملاحظة ثم نظر إليّ وسألني «ما رأيكِ في ذلك؟ هل كان لديكِ نفس الانطباع عنها؟».

أجبته قائلة «نعم، لم تكن تصعد السلم إذا تمكنت من رؤية الدرجات لأسفل. ولم تقفز أبدًا من اللوحة العليا عند حمام السباحة. وفي إبرة الفضاء[1] بقيت بالأسفل بينما صعدنا بالمصعد الزجاجي إلى الأعلى».

---

(١) أحد المعالم البارزة لشمال غرب المحيط الهادي، ويعتبر رمزا لمدينة سياتل الأمريكية بواشنطن، وهو عبارة عن برج يبلغ ارتفاعه ١٨٤م

أرجع المحقق هاردينج ظهره للخلف ومرر كفيه على فخذيه، كما لو أن يديه تتعرقان، ثم أردف قائلًا «لكنها كانت تعيش بالقرب من الهاوية».

قال ناثان «المنظر رائع من هناك، لقد أحبت المنزل هي وجنسن. انتقلوا إلى هنا منذ عام تقريبًا».

نظر المحقق نحو الهاوية ثم سأل «لم تذهب إلى هناك مطلقًا؟ في أي وقت؟».

«حسنًا، من المحتمل أنها ذهبت هناك للتدخين» قلتها له مدركة هذا الاحتمال.

أردفت له «اعتقد جنسن أنها أقلعت عن التدخين منذ وقت طويل. لكنها عادت للتدخين مرة أخرى في الآونة الأخيرة. سجائر متقطعة لتهدئة أعصابها. هذا ما قالته لي. على أي حال، طلبت مني عدم ذكر ذلك لجنسن، لذلك لم أفعل».

سألني المحقق «هل احتاجت لتهدئة أعصابها لأي سبب معين؟».

أجبته «لم تخبرني بالسبب لكن يبدو أن التدخين ساعدها. من المحتمل أنها كانت تذهب إلى شرفة المراقبة لإبعاد الرائحة عن المنزل».

حرّك المحقق رأسه بتمعن ثم سأل «هل شربت الكحول الليلة الماضية؟».

جاوبه ناثان «النبيذ، بضع كؤوس».

عارضته قائلة «الكثير من النبيذ».

أردف ناثان وهو ينظر إلى المحقق «لكنها غادرت باكرًا. كان عليها أن توصل ابنتها من حفل في المدينة».

قلت له «الآن بعد أن فكرت في الأمر، أظن أنها كانت تقود في حالة سكر.. أو ربما قاد جنسن. فهو غادر بعدها بقليل».

«حسنًا» قالها المحقق وهو يكتب بالمفكرة مرة أخرى. نظر إلى سائلًا «ماذا فعلتِ بعد أن عثرتِ عليها؟».

تركت يد ناثان ومددت أصابعي المتشنجة. وهبت نسمة من النافذة ملقية بالهواء البارد إلى الغرفة. أجبته قائلة «هرعت عائدة إلى هنا. ركض الجميع إلى الخارج. واتصل ناثان بالطوارئ. ثم أخذت آنا للداخل. حاولت أن أدّعي أن كل شيء على ما يرام. لم أكن أريدها أن تعرف ما الذي يجري. لكنني لم أستطع تخبئة الأمر عنها.. سألتني ماذا حدث... قلت لها سقطت والدة برين». نظرت بالأسفل نحو التراب والرمال المتعلقة بملابسي. وكأن مسرح الجريمة لاحقني إلى المنزل. وبعدها سمعت صوت ساعة الحائط وصوت نفير بوق سفينة على بعد.

حك المحقق شاربه الخفيف ثم سأل «ماذا عن حالة لورين العقلية؟ هل تظنين أنها كانت تعاني الاكتئاب؟ هل تحدثت عن الانتحار؟».

أجابه ناثان وهو ينظر إلى «لا أعتقد ذلك، هل فعلت؟».

قلت له «الانتحار؟ لا، لكن في المرات القليلة الأخيرة التي رأيتها فيها بدا أن هناك شيئًا ما».

سأل المحقق «كيف؟».

«عندما ذهبنا لتناول القهوة كانت تحدق من النافذة. وفي بعض الأحيان لم تكن تبدو أنها منتبهة. اعتدت أن أكون قادرة على قراءتها لكننا لم نعد قريبين بعد الآن. فقدنا التواصل لفترة من الوقت».

«كيف ذلك؟».

«في الكلية ذهب كلانا بطريق منفصل. لقد عاودنا التواصل منذ ما يزيد على عام بقليل» شعرت بالحاجة إلى التوضيح لذلك أردفت «لقد حصلَت على وظيفة في المستشفى. كنا نلتقي لتناول الغداء أو القهوة بين الحين والآخر، شيء من هذا القبيل».

«شكرًا لكما». قالها المحقق هاردينج ثم أدخل دفتره وقلمه في جيب سترته مردفًا «أحتاج إلى التحدث باختصار مع الأشخاص الآخرين في المنزل».

قال ناثان «أخي وزوجته في غرفة ابنتي».

«ماذا عن الجار في الزاوية، على الجانب الآخر من منزل آل إكلوند؟».

أجبته «آرثر نجوين، سمعت كلبه ينبح في وقت ما من الليل... لا أعلم كم كانت الساعة. في العادة لا أسمع نباح الكلب بوقت متأخر هكذا».

«سأقوم بزيارته. قد أعاود التواصل معكم مرة أخرى إذا كان لديّ المزيد من الأسئلة».

بينما كان ناثان يرشد المحقق عبر الرواق، كان ذهني يزدحم بالأسئلة. هل سقطت لورين؟ هل دفعها أحدهم؟ أم أنها ذهبت إلى حافة الهاوية وأخذت خطوة متعمدة نحو مصيرها؟

الفصل الرابع

غسلت يديّ في حمام الرواق حين مرت سحابة فوق نافذة السقف مغرقة المساحة الصغيرة بالظل. استمررت في غسل يديّ وفركهما. لكنني كنت بحاجة إلى فرشاة سلكية لفرك جلدي، فجزيئات لورين تغلغلت في مسامي بعمق. تمنيت لو بإمكاني مسح صورتها وهي ملقية على الرمال وخدها المضغوط على الأرض وعينيها الغائمة ونصف مغلقة وهي تنظر نحوي. بل لم تكن تنظر نحو أي شيء. ما زلت أشعر بالنسيم المالح على جلدي وصوتها في رأسي حين قالت لي «أحتاج إلى التحدث معكِ»، لكنها لن تتحدث معي مرة أخرى. انهرت على ركبتيّ وانفجر الحزن بداخلي. لا أستطيع الوقوف في هذه الغرفة الصغيرة، ولا هذا المنزل، ولا الأصوات التي تهمهم بالرواق. لا بد من أن المحقق يقوم باستجواب كيث وهيدرا وربما حتى أنا. إنها مجرد طفلة، لكن لا يمكننا حمايتها من الأخبار، من الإنترنت، من العنف، من الموت.

كانت لورين على قيد الحياة الليلة الماضية، والآن أنا هنا أبكي في حمام صغير. لقد هرعت لإنقاذي في حمام مماثل منذ عدة أعوام عندما حاصرني أحد الشباب في حفل بالجامعة. لا أدري لماذا

اختارني. فقد كنت خجولة جدًا، من النوع الذي يلتصق بالجدران وحيدًا. ربما كان يعتقد أنني هدفًا سهلًا. دفع بجسده نحوي وشعرت بتقلص حلقي وارتجاف جسدي. رائحة أنفاسه كانت مقرفة من أثر الجعة ووزنه الكبير شل حركتي. ثم زال وزنه على الفور. شخص ما سحبه بعيدًا. كانت لورين. صرخت عليه قائلة «ابتعد عنها أيها الأحمق!». وفجأة أصبح على الأرض وأنفه ينزف. أمسكت لورين ذراعي قائلة «تعالِي يا ماريسا. لنذهب».

عادة ما كنت أنا من يقوم بإنقاذها. كم من ليلة أضعتها في تحضيرها للاختبارات التي رسبت فيها. كم من ساعة أمضيتها في تدوين الملاحظات الدقيقة بينما كانت هي تتغيب عن المحاضرات وتنسخ ملاحظاتي لاحقًا.

كانت دائمًا ما تقول لي «سأعوضك».

لكن لا يهمني بعد الآن من أنقذ من. أريدها فقط أن تدخل من الباب وتقول إن هذا كله كان خطأً، كابوس. أريد أن أستيقظ في الفراش، وليس في هذا الحمام. كنت أجفف يدي بمنشفة عندما طرق أحدهم الباب.

سمعت صوت ناثان على الجانب الآخر «ماريسا، هل أنتِ بخير؟».

فتحت الباب مسرعة ونظرت إليه ثم انهرت بين ذراعيه. أخذ يمرر يده على شعري قائلًا «لقد ذهبوا، أخذوها وانتهى الأمر».

«انتهى. ما الذي انتهى؟ لم ينتهِ شيء».

«أقصد أنه لا يوجد ما يمكننا فعله لها الآن. سننتظر لتقوم الشرطة بعملها».

«هذا خطئي. تعاملت معها بوقاحة الليلة الماضية. أرادت التحدث. لكنني خذلتها».

تراجع قليلًا ووضع يديه على كتفي قائلًا «لا يمكنكِ التفكير بهذه الطريقة، لم يكن بإمكانك منع الأمر».

«لكن ماذا لو كان بإمكاني؟ ماذا لو تبعتها إلى منزلها وعقدت على سماعها؟».

«بإمكاننا جميعًا أن نقول نفس الشيء. لا يمكن لأحد أن يكون معها كل ثانية من كل يوم. على الأرجح كانت لتسقط من الهاوية رغم ذلك».

«لكن هل سيكشف تشريح الجثة ما إذا تم دفعها؟».

فرك ناثان ذراعي مطمئنًا ثم جاوبني «لست خبيرًا. ولكنه سيكشف نوع الإصابة التي قتلتها وسواء كانت بسبب السقوط أم لا. لديهم أساليب متطورة لمعرفة الأشياء، بما في ذلك الوقت التقريبي للوفاة».

وقت الوفاة، لحظة غير معروفة تتربص بالقرب وتنتظر للانقضاض على كل واحد منا. تخيلت لورين بالمرآة تضع أحمر شفاه فاتح وهي تجعد شفتيها قائلة «كيف أبدو وأنا ميتة؟».

مررت عبر ناثان نحو غرفة النوم الرئيسية. كان المنزل يضيق بي ويخنقني. ويتجمد الهواء في رئتاي. بالكاد أستطيع التنفس.

سمعت أصوات مكتومة من غرفة آنا. ذهبت نحو الخزانة وبدأت في سحب القمصان والسراويل من الشماعات.

سألني ناثان «ماذا تفعلين؟»

جاوبته بصوت مرتعش «عليّ الذهاب إلى المنزل لفترة من الوقت، سأفقد عقلي إن لم أفعل».

«لقد وصلتِ لتوّك. اعتقدت أنك ستبقين..».

«كنت أخطط لذلك، ولكن... أنا مصدومة. جميعنا مصدومون. أحتاج أن أكون وحدي لبعض الوقت».

جلس على الفراش بعنف قائلًا «لا ترحلي، يمكننا تخطي الأمر».

«أحتاج إلى مساحة للتنفس» قلتها ثم رميت حقيبتي على الفراش. لقد سئمت من العيش متنقلة بحقيبة السامسونايت[1] الزرقاء تلك.

«هناك ما تخفيه عني».

نظرت إليه والشك يبلغ أقصاه بداخلي. تمعنت بشعره الأجعد وعيونه الثابتة. تلك النظرة التي تنم عن القلق الحاد. تذكرت وجهه وهو مضاء بواسطة شاشة هاتفه بالليلة الماضية. ثم سألته:

«نعم هناك شيء يزعجني ويثير فضولي. لقد خرجت الليلة الماضية. أين ذهبت؟»

«لم أذهب إلى أي مكان. ماذا تقصدين؟» قالها ثم فك قميصه رغم أن الأزرار العلوية كانت مفكوكة كالمعتاد.

---

(١) نوع من حقائب السفر

«أقصد، حوالي الساعة الثانية صباحًا، ذهبت إلى مكان ما» قلتها ووضعت سترة سوداء ناعمة برقبة عالية في حقيبتي. كنت أخطط لارتداء هذه السترة لعشاء رومانسي، لكن لا يمكنني تخيل الذهاب في موعد الآن أو أبدًا.

حك ذقنه متسائلًا «ما الذي تتحدثين عنه؟»

استيقظتُ لمدة دقيقة... كنت أعاني الصداع وكان عقلي مشوشا... نظرتُ إلى الساعة. وأنت كنت تحاول أن تكون هادئًا».

«لم أفعل» قالها ثم رأيت قطرة من العرق تتلألأ على جبينه.

«لقد ارتديت ملابسك وتركت الغرفة. ذهبت إلى مكان ما في منتصف الليل يا ناثان. هل ستخبرني أين ذهبت؟»

مرر كفه على جبينه ومسح العرق ثم قال «ما هذا؟ هل تعتقدين..».

«أنت لم تفعلها. أعني أنك لم تكن لتفعلها».

قال بصوت منخفض «ماذا تقولين بحق الجحيم؟ أنا أتفهم أنكِ غاضبة بسبب لورين وأنكِ تحاولين فهم ما حدث».

«أنت على حق، أنا أحاول الفهم فعلًا. لقد نهضت وكنت تنظر إلى هاتفك ثم غادرت. لا أعرف لكم من الوقت. أين ذهبت؟ لا تخبرني أنه تم استدعاؤك للعمل. أعلم أنه لم يحدث».

احمرّ وجهه. لا أعلم لماذا أضغط عليه. فأنا أثق في هذا الرجل الذي يحب ابنته كثيرًا، والذي وقع في حبي بالصف الدراسي.

جاوبني «لقد ذهبت للخارج، لكن لم يكن لي أي علاقة بما حدث للورين».

نظرت إليه وسألت «حقا؟».

«ألا تصدقيني؟ بربك، نحن..».

«مخطوبان؟ نعم نحن كذلك، لكن هذا لا يعني...».

«هل تعتقدين حقًا أنني أكذب عليكِ؟ تلقيت رسالة من ريان، لذلك خرجت لتنشق بعض الهواء».

«من ريان. في منتصف الليل» تقلصت أمعائي من وقع كلماته. أصبح اسم طليقته يُذكر في محادثاتنا مؤخرًا، لكن لا يمكنني الشكوى بشكل منطقي. فهي والدة آنا.

«كان الأمر يتعلق بآنا. عندما طلبت منك الزواج بدأت آنا بإرسال الرسائل إلى والدتها كالمجانين. كانت ريان قلقة عليها» قالها وحرك فكه كمن يحاول منع نفسه من قول شيء

«لماذا تشعر بالقلق؟ لأن رأس آنا قد ينفجر بسبب زواجك من شخص آخر؟».

«انظري، هكذا تسير الأمور. الشؤون الأسرية معقدة».

«لم يعد ثلاثتكم أسرة بعد الآن».

«ما زلت بحاجة للتعامل مع ريان على الرغم من كرهي لها».

«سمعتك وأنت تقوم ورأيتك وأنت ترتدي ملابسك».

«ظننتك... ظننتك نائمة»

«لماذا؟ لأنني لم أتحرك؟»

«استيقظتِ عندما عدت. على الأقل أظن أنك فعلتِ. قمتِ وهمهمتِ بشيء ما، ثم عدتِ إلى النوم. اعتقدت أنكِ كنتِ مستيقظة».

أنكرت قائلة «لم أفعل» هل فعلت؟ هل استيقظتُ مرة أخرى؟ لا أتذكر. في الصباح رأيت آثار أقدامي بالخارج. «استيقظتُ لاحقًا عندما كنت أنت قد عدت بالفعل. لم تخبرني أنك ذاهب إلى أي مكان».

«خرجتُ لتنشق الهواء كما قلت. هذا كل ما في الأمر».

«هل أنت متأكد من عدم وجود أي شيء آخر؟ شيء يتوجب عليّ معرفته» حاولت إبقاء صوتي بنبرة هامسة لكن عالية.

«مثل ماذا؟ ما الذي يحدث بحق الجحيم يا ماريسا؟».

جلست على الفراش بجانب حقيبتي وقلت «أنت محق، لا أدري ما الذي يحدث. لكن كل ما حدث الليلة الماضية لم يكن على ما يرام» كنت أسمع قلبي يدق بسرعة وبصوت عالٍ في أذني.

«كيف لم يكن على ما يرام؟»

«لورين كانت تتقرب منك لكنك لم تشتكي. لم تطلب منها بالتراجع».

«كنت أحاول أن أكون مهذبًا».

«أهذا كل شيء؟» قلتها ثم أعدت ترتيب الملابس في حقيبتي وطويت وسويت القمصان في محاولة فاشلة لاستعادة النظام. لكن حياتي وكل شيء آخر يخرج عن السيطرة بشكل جامح.

«ماذا تظنين أيضا؟ هل كنتِ تريدين مني إثارة المشاكل في ليلتنا المميزة؟».

نظرت إليه قائلة «لم تكن بهذا التميز، أليس كذلك؟» أفسدت لورين كل شيء، لكن كيف يمكنني التفكير بذلك؟ هي من عانت. هي من رحلت.

«لم نكن نعلم بما سيحدث. لم نكن لنعلم أن لورين...».

«هل راسلتك أمس؟».

استنكر سائلًا «ماذا؟».

«هل أرسلت لك رسالة؟».

«الأمر يخرج عن السيطرة. أحيانًا تحبيني وتثقين بي. وأحيانًا تستجوبيني مشككة».

إنه محق، لكن لا يمكنني التوقف. أنا أعبر الماء في محيط لا نهاية له محاولة البقاء طافية. أجبته «أنا أسأل فحسب..».

«لماذا لتراسلني؟ بالكاد أعرفها».

«من الواضح أنك تعرفت عليها بعد أن انتقلوا إلى هنا». أشرت إلى منزل آل إكلوند بأصابع مرتعشة. فقد شاهدنا شاحنة النقل وهي تفرغ أثاثهم. وبعد أسبوع وبينما كنت في منزلي دعوا ناثان لتناول العشاء. «لطالما كانت لورين تكره إضاعة الوقت»، أشعر بالندم حتى وأنا أقول الكلمات بصوت عالٍ. أما هو فبدا متفاجئًا.

«ماذا؟ كان مجرد عشاء. عشاء واحد. وكنت أذهب مع جنسن للهرولة أحيانًا أو لشرب الجعة. كنتِ تعرفين لورين لمدة طويلة تقارب نصف عمرك».

«لقد غازلتك أثناء العشاء، وفي الكلية فعَلَت أشياء...».

«مثل ماذا؟ هل تعتقدين أن لورين أغوتني؟».

«لا أستبعد احتمالية فعلها لذلك».

«وماذا عني؟ هل تعتقدين أنني سأسمح لذلك بالحدوث؟».

«لا، لا أعتقد ذلك. لا أدري فيمَ أفكر. أنا ولورين... بدونا وكأننا.. عدنا أصدقاء مجددًا. لكن كان من الخطأ دعوتها. فهي لم تحسن التصرف. اعتقدت أنها ربما كانت على اتصال بك عندما خرجت».

ألقى هاتفه على الفراش وسألني «هل تريدين التحقق من رسائلي؟ تفضلي. فلتقرئي بريدي الإلكتروني أيضا. واستمعي إلى بريدي الصوتي».

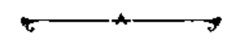
«ناثان، توقف..».

ضغط بأصابعه على صدغيه وقال «لا، أنتِ توقفي، عليكِ أن تثِقِي بي».

أخذت نفسًا عميقًا ثم أطلقته ببطء وقلت له «أنت على حق. عقلي مشتت للغاية».

أحاطني بذراعيه قائلًا «لا مشكلة. كل شيء غير منطقي الآن. نحتاج إلى ترك كل شيء. لا تهربي. ابقِي قليلا. أنا بحاجة إليكِ».

«أنا أحتاجك أيضا» إنه لا يعرف كم أحتاجه فعلًا. ملت نحوه وسمعت قلبه ينبض بقوة وثبات. رأيت لورين تخرج من الظل على مدى بصري وقالت لي وهي تحدق بعينيها البيضاء «ليس من المفترض أن أرحل بعد».





الفصل الخامس

وجدنا هيدرا تجالس آنا في غرفتها. كلتاهما على الفراش متكئة على وسائد، تتظاهران بالقراءة. وضوء النهار الباهت يدخل من النافذة. تشبه آنا والدتها، فهي رقيقة الهيكل وتملك شعر أشقر شفاف وينتشر النمش عبر أنفها. عرفتها منذ عامين فقط، لكنها نضجت وزاد طولها بضع بوصات وتمدد جسدها ونضج وجهها وفقد رقته. لن يمر وقت طويل قبل أن تحتاج إلى محفظة وحمالة صدر رياضية وستريد تعلم القيادة. يقول ناثان إنه يخاف من فكرة وجودها أمام عجلة القيادة أو مواعدتها للشبان.

كان يقول «لن يكون أي شخص جيدًا بما يكفي لفتاتي الصغيرة». لقد ورثت فكه الحاد وحبه للطبيعة وإنقاذ الأشياء. لقد ساعدها بمرة في الإمساك بطائر طوهي[1] مصاب لينقلاه إلى ملجأ الحياة البرية في بورت جامبل. ولاحقًا وضعت ملصقات على النوافذ لمنع الطيور الأخرى من الاصطدام بالزجاج. الطيور. تملك آنا منامة مطبوعا عليها رسوم الطيور. أكاد أقسم أنها نامت مرتدية إياها الليلة الماضية، لكنها الآن ترتدي منامتها الفيروزية.

---

(١) نوع من أنواع الطيور التي تنتمي لفصيلة العصافير الأمريكية.

على مكتبها، تبتسم لنا صورة الماضي السعيد والبعيد للأسرة. ريان وناثان وآنا في مقصورتهما الجبلية بالقرب من المتنزه الأولمبي الوطني ويوجد غابة مظلمة في الخلفية والدخان يتصاعد من المدخنة الحجرية. كانت صورة سيلفي[1] بهاتف آنا. كانت تجلس بين والديها على جذع شجرة يغطيه الطحالب وتبتسم للعدسة. وتعكس ابتسامة ريان المتألقة صبر لا نهائي. بينما كان ناثان منحنيا ليدخل بالصورة ويخرج لسانه. ضحكة آنا المكبوتة تطغى على وجهها وكأنها كانت تشارك سرًا مع والدها.

حوّلت نظري نحو النافذة حيث تنعكس أشعة الشمس على زجاجه مكونة قوس قزح على الأرض. تلك المجموعة من الألوان والأضواء التي لن تراها لورين مرة أخرى. لن ترى شروق الشمس ولا غروبها مجددًا. ينتشر التراب على عتبة النافذة ربما بسبب يديّ آنا المتسخة. فإنها دائمًا ما تلعب على الأرض وهي تربض لتصوير مقاطع فيديو للنمل والسناجب والطيور. كانت حقيبة ظهرها خارجة عن الخزانة وممتلئة بالملابس.

قامت هيدرا من الفراش بضعف وقادتنا نحو الرواق ثم قالت لنا «يبدو أن آنا مصابة بالصدمة». عيناها كانتا محاطتين بالسواد لكنني لا أزال أشعر بالذهول من لونهما الأخضر السينمائي. أردفت هامسة بينما تقترب من ناثان ببعد بوصة أو اثنتين منه ووجهها قريب من وجهه «هل ستأخذها ريان قريبًا؟»

جاوبها وهو ينظر نحو آنا «ليس قبل ظهر غد. لماذا؟»

(١) صورة يمسك فيها الشخص هاتفه أو الكاميرا ويوجه العدسة باتجاهه. صورة ذاتية.

همست هيدرا «إنها بحاجة إلى الابتعاد عن هنا»

دخل ناثان إلى غرفة آنا قائلًا لها «حلوتي..».

قالت له آنا «دعني وشأني».

«دعينا نتحدث فحسب».

«ابتعد» قالتها بنبرة حادة ومعادية. إنها إما غاضبة أو خائفة لكن لا يمكنني معرفة ذلك. ربما كلاهما.

خرج ناثان وأغلق الباب بلطف قائلًا «اتركوها الآن. سأذهب للاستحمام. لنمنحها بعض الوقت».

توجهت مع هيدرا إلى المطبخ حيث كان يقف كيث عند النافذة واضعًا كفيه في جيوبه. يحدد الضوء ملامح وجهه الحادة على عكس وجه ناثان الذي يبدو أكثر حدة منه. ومع ذلك، لا يزال الشقيقان يبدوان متشابهان بشكل ملحوظ. يملكان نفس الفك العلوي وكلاهما يقف بأقدام متباعدة بعرض أكتافهم.

لكن ناثان لا يمانع الفوضى فهو يرمي الملاعق في الدرج دون ترتيب، في حين أن كيث يعدّل أدوات المائدة في الزوايا الصحيحة ويرتب حياته بأكملها في خطوط متماثلة. أثناء العشاء، أدخل كيث شريط حمالة صدر هيدرا أسفل كتف فستانها وراقب طبقها. هل تعاني هيدرا من اضطراب في الأكل؟ ربما لهذا السبب ذهبت إلى الحمام عندما تبعها ناثان. أتساءل ماذا همس لها قبل أن تعود إلى المائدة. ربما سألها عما إذا كانت بخير.

ذهبت هيدرا إلى ركن الإفطار وثنت ركبتيها بينما تحدق في الباحة الخلفية. يتمتع وجهها بجمال صارخ دون تبرج.

أبقيت يدي تتحرك بصب القهوة في الإناء وملأت الخزان بالماء المصفى.

أشارت هيدرا نحو المنزل المجاور قائلة «ستتغير حياتهم للأبد».

جاوبتها بصوت متردد «أعلم، الأمر سريالي، ما زلت لا أستطيع تصديق الأمر».

فتحت الثلاجة وأخرجت علبة الكريمة للقهوة.

ارتجفت هيدرا وفركت كتفيها متسائلة «ما الذي كانت تفعله لورين هناك؟ لماذا كانت تتجول في منتصف الليل؟».

أجابها كيث «لا نعرف ما إذا حدث الأمر ليلًا».

قالت وهي تحك أظافرها «متى عساه حدث؟».

«ربما في وقت مبكر من هذا الصباح؟».

سألتهم وأنا أحدق في أرفف الثلاجة «أيريد أحدكم الإفطار؟ لدينا بقايا باستا. والبيض. لدينا بيض عضوي من الدجاج الحر».

قالت هيدرا «على الأقل الدجاج سعيد».

أصدرت القهوة صوت الفقاعات وتقطرت في القنينة الزجاجية.

«سأعد عجة البيض» قالها كيث وهو يتجاوزني نحو الثلاجة وكانت تنبعث منه رائحة العرق والنوم. أخرج البيض والبصل والطماطم.

«شكرًا لك» قلتها ثم أغلقت سترتي من حولي. القطن المحاك بطريقة واسعة ينحدر من معصمي كما لو أنه سيسقط.

قالت هيدرا وهي تنظر إليّ «لا بد أنها قفزت، ألا تعتقدين ذلك؟»

«ماذا؟ لا»، قلتها بصوت خافت وأنا أغسل الطماطم في الحوض. كانت لينة وبدأت قشرتها تتجعد.

«بدت غير سعيدة».

سألها كيث وهو يضع لوحة التقطيع على الطاولة «كيف عرفتِ؟ ما الذي جعلك تعتقدين أنها غير سعيدة؟».

لفّت شعرها حول إصبعها بشكل غريب، ثم أجابت «في حفل الشواء الأخير، رأيتها تذهب للتدخين. ذهبت في الطريق نحو سلم الشاطئ حيث اعتقدت أنه لا يمكن لأحد رؤيتها وأشعلت سيجارة. كانت عيناها شديدة الاحمرار ثم مسحتهما عندما رأتني آتية لأتحدث معها. قالت إنها تعاني من الحساسية».

قال كيث: «ربما كانت تعاني من الحساسية فعلًا أو أن الدخان دخل في عينيها»

أجابته هيدرا «أنا متأكدة أنها كانت تبكي. سألتني إذا كان هناك شيء أرغب فيه بشدة. قلت نعم... الحرية».

عم الصمت ثم ضحك كيث قائلًا «الحرية من ماذا بالضبط؟ مني؟ تريدين إنهاء زواجنا؟».

فتحت الدرج وألهيت نفسي بوضع الملاعق والشوك على سطح الطاولة وأنا أفكر «أرجوكم لا تتشاجروا هنا أمامي. لن أتحمل الأمر».

قالت هيدرا وخديها يزدادان احمرارًا «لم أقل ذلك، الحرية تعني لي الذهاب لأي عرض أزياء أريده. حرية السفر».

أجابها كيث «تملكين حرية السفر».

قالت هيدرا «أنت تعرف ماذا أقصد، سألتني لورين ماذا سأفعل إذا حصلت على ما أريد مؤخرا، ولكن بعد ذلك تم أخذه مني دون رجعة».

أزلت خيطًا معلقًا من كم سترتي ورميته بعيدًا في محاولة لعدم النظر إلى تعبير وجه كيث.

سألها «بمَ جاوبتِها؟».

«قلت لها لا أدري. سألتها إذا كان هذا قد حدث لها لكنها لم تجب».

سألتها «ما الأمر الذي كانت تريده وتم أخذه منها؟». فلورين كانت تملك كل شيء، زوج مهتم ومنزل جميل ووظيفة تحبها وابنة.

«لم تقل أبدًا. فهي رمت سيجارتها وعادت إلى الحفل. لكن يمكنني القول إنها كانت تعاني. قد تكون فكرت في الانتحار. رغم أنها لم تتصرف كذلك على العشاء. لقد تصرفت مثل..».

«كُفّي عن المضاربة». قالها كيث وهو يسقط السكين على الطاولة بقشرة. ثم التقط السكين وأكمل تقطيع البصل قائلًا «لا يعرف أحد ما حدث. نحن نخمن فحسب».

قالت هيدرا «كل تلك الصخور في الطريق إلى الأسفل، لا بد أن الارتفاع يصل إلى مائتي قدم».

أجبتها «مائة تقريبًا».

«يجب أن يكون هناك سور. يجب ألا يكون هناك مجال لأي شخص أن يسقط».

قال كيث «لا يمكننا تطويق سواحلنا».

أجابته «إنهم يضعون حراسًا لمنع حالات الانتحار على جسر البوابة الذهبية».

قال لها «هذا ليس جسر البوابة الذهبية اللعين».

راقبت القهوة وهي ترشح بينما أسمع صوت المياه يتدفق في الحمام الرئيسي. وطائرة مروحية تمر فوقنا بصوت عميق كالزئير.

قالت هيدرا «لا شك أن الأمر سيعرض في الأخبار، كل التفاصيل الدنيئة. عليهم تركها في سلام. تستحق عائلتها الخصوصية».

قال كيث «ليس إن كانوا مسؤولين، على الكل أن يتم استجوابه. ليس من قبل المصورين بالطبع. ولكن من قبل الشرطة».

أجابته هيدرا بملامح مستنكرة «مسؤولين؟ ماذا تعني بهذا؟».

«جنسن على سبيل المثال. جميعنا رأى الطريقة التي كانت تتصرف بها لورين تجاهي أنا وناثان أمامه».

حدقت هيدرا فيه بشك وسألته «أتعتقد أنه سيقتلها لمغازلتكم؟».

ابتسم كيث قائلًا «لا يمكن لومه بعد الطريقة التي تصرفت بها».

اندهشت هيدرا وقالت «إذًا، أهذا عذر له ليقتلها؟».

«أنا أخمن فحسب..».

«أنا أعرف ما تقول». قالتها ثم قامت واتجهت نحو غرفة الضيوف.

«اعذريني». قالها لي كيث ثم لاحقها تاركًا إياي أنظر إلى السكين الموجودة في يدي على لوح التقطيع الذي تنزف عليه الطماطم. لكنني فقدت الرغبة بتقطيع الخضروات أو إعداد عجة بيض أو أكل أي شيء بعد الآن.

سمعت صوت المياه يتوقف في حمام ناثان. ثم هب الهواء البارد إلى المطبخ كما لو أنه تم فتح النافذة في مكان ما. كان المنزل هادئ جدًا بلا حراك. استغرقني الأمر دقيقة واحدة لمعالجة الأمر بذهني. حقيبة ظهر آنا الممتلئة في الخزانة. وقولها لأبيها أن يتركها وحدها ونظرة الرعب على وجهها.

ناديت عليها وأنا أركض نحو الرواق «آنا...».

باب غرفتها كان مفتوحًا جزئيًا، ونافذتها مفتوحة، والهواء البارد يهب منها محركًا ملاءات الفراش. كما كانت صورة آنا ووالدتها وناثان على حافة المكتب على وشك السقوط. عادة ما تحتفظ آنا

بصندوق المجوهرات خلف الصورة على الرف، والذي تعتبره هدية ثمينة من ناثان. سمعت ليلة البارحة لحن بحيرة البجع عندما كنت خارج الحديقة. الآن اختفى الصندوق. كان يوجد خيط عالق من سترتها على قطعة من الخشب بحافة النافذة. ويوجد ورقة على الفراش مثقلة بصخرة. انتزعت الورقة وقرأت خط آنا الطفولي «أنا بخير. هربت فلا تبحثوا عني. أحبكم، آنا»..

الفصل السادس

قال ناثان وهو يتجول داخل غرفة آنا مرتديًا سرواله الجينز ويجفف شعره بالمنشفة «ما الذي يحدث؟ سمعتكِ تصرخين».

«هل يمكن أن تكون أكثر وضوحًا؟». أريته الورقة وأشرت نحو النافذة المفتوحة.

«هربت؟ ما هذا بحق الجحيم؟». قالها ثم سحق الورقة وألقاها على الأرض.

أشرت نحو منامتها الفيروزية على الفراش وقلت له «كانت ترتدي تلك».

نظر خارج النافذة ونادى «آنا! عودي إلى هنا!».

«وكأن هذا سيساعد. ستناديها وتأتي إلى المنزل؟».

«ليس هذا هو الوقت المناسب». قالها لي بوجه مظلم وغاضب. التقط حبة من الأرز النيء من على الطاولة. وكان يوجد المزيد من حبات الأرز مبعثرة على الأرض. «ما هذا؟ آنا!». صرخ وهو يتفقد الخزانة ثم هرع إلى الرواق مناديًا إياها.

خرج كيث وهيدرا من غرفة الضيوف واتبعانا بوجوه شاحبة.

قالت هيدرا «هل فعلت ذلك مرة أخرى، هل هربت؟».

سألتها بقلق «ماذا تقصدين بمرة أخرى؟».

أجابتني هيدرا «لقد هربت عندما مات أرنبها قبل ثلاثة أعوام».

نظر إليها ناثان بحنق قائلًا «لقد عادت وقتها. استمري في البحث».

قلت له بينما لا أستطيع إبطاء تنفسي «ارتدي ملابسك، سوف تصاب بالبرد. سأبحث أنا عنها بالخارج».

قالت هيدرا «سوف نبحث بالمنزل المجاور».

ارتديت حذائي وهرعت إلى الخارج بعد أن ارتديت ملابسي. وكان ناثان قريبًا مني بالخلف مناديًا آنا. لا توجد علامة على وجودها في الحديقة. لكنها قد تكون مختبئة وراء شجرة. كلانا كان ينظر نحو الغابات المتشابكة في الجزء الخلفي من المنزل بين الحديقة والهاوية.

«آنا!». كان ينادي ناثان محيطًا فمه بيديه. بحثنا بكل ركن في الباحة وخلف كل صخرة وعربة قديمة وفي صندوق الأدوات لكن دون جدوى. خرج كيث وهيدرا مرتديين معطفيهما وتوجها إلى المنزل المجاور.

صِحت قائلة «سأبحث في المقدمة». لكنها ليست في الباحة أو على الطريق.

خرج آرثر نجوين من ممر الغابات في نهاية الطريق المسدود الذي يعتبر مدخل ملجأ الحياة البرية وكان كلبه بيرت يسير أمامه وجلده يغطيه كتلة من الفراء الأبيض. لوّح لنا آرثر وهو يضع غطاء رأسه مغطيًا عينيه. لم أره أبدًا من دون قبعة ربما لتغطية الصلع.

اندفعت نحو الطريق لملاقاته. آرثر أطول مني بقليل فقط ومربع في كل مكان، وجهه مربع وكتفاه مربعان وحذاؤه مربع. كان يرتدي الصوف من رأسه لأخمص قدميه، باللونين الرمادي والبني، ليلائما شعره. قال لي «أوه، عثرتِ على لورين، أليس كذلك؟».

قلت له وأنا أشعر بالدوار «نعم».

«الأمر صعب جدًا يا عزيزتي».

«شكرًا. اسمع. هربت آنا».

«هربت!». التقط بيرت ووضعه تحت إبطه كما لو أن آنا هربت لسرقة كلبه.

«هل رأيتها؟».

«لا». قالها وهو يحجب النور عن عينيه بيده التي يرتدي بها قفاز. كانت تنبعث منه رائحة خافتة من الحطب وشعر الكلب الرطب. أردف قائلًا «لم ألتق بها، لم أكن أعر انتباهًا. الليلة الماضية كنت بالخارج رغم ذلك. جاء ذلك المحقق ليطرح الأسئلة، وأدركت أنني رأيت شيئًا ما».

«فعلًا؟». سألته وأنا أنتقل للوقوف على قدمي الأخرى.

كان ناثان ينادي آنا على بُعد.

«كنت بالخارج مع بيرت. في وقت ما بعد الثانية صباحًا. سمعت أصواتًا وانفتح الضوء الذي يعمل بالمستشعر في شرفة منزل آل إكلوند الخلفية. رأيت شخصًا يركض نحو شرفة المراقبة وكان يوجد شخص آخر هناك. كان مجرد ظل. لم أستطع رؤية من كان دون نظارتي. لم أعر الأمر اهتمامًا، ظننتكم تحتفلون جميعًا. أتمنى لو حضرت العشاء معكم».

سألته بموجة من الخوف تنتشر بعمودي الفقري «هل تعتقد أنك رأيت شخصين؟».

أومأ وهو يربت على بيرت الذي يرتجف من البرد ثم قال «لكنني غير متأكد. لا يمكنني معرفة من كانوا».

«هل أخبرت المحقق».

«نعم. أخبرته بكل شيء».

كان ناثان ما زال ينادي «آنا!».

قلت له «عليّ البحث عن آنا، أيمكنك إخبارنا إذا رأيتها؟».

سألني آرثر وهو يمشي معي في الطريق «هل بحثتِ في منزل الشجرة؟».

«أي منزل شجرة؟».

«في الغابة خلف منزل ناثان. اعتادت بناتي اللعب هناك طوال الوقت». قالها بصوت يملؤه الحزن.

«أين يقع منزل الشجرة هذا بالضبط؟».

أشار إلى الغابة قائلًا «هناك حيث تتشابك الأشجار الطويلة. بناه السكان السابقون لناثان لأطفالهم. أعتقد أنه انهار إلى حد كبير الآن لكنني أراهن أنه لا يزال موجود».



الفصل السابع

بينما كنت أنا وناثان نمشي في الباحة الخلفية كنت أتذكر كلمات آرثر. «شخصان. الضوء الذي يعمل بالمستشعر». هل كان هناك شخص آخر مع لورين؟ هل دفعها هذا الشخص من الهاوية؟ أو هل رأى آرثر مجرد ظلال متحركة لأنه لم يرتدِ نظارته؟

قال ناثان مشيرًا إلى الأرض «انظري».. من المؤكد أن شخصًا مشى في طريقه بالغابة. تقفينا الأثر ونحن ندفع الفروع بعيدًا عن طريقنا وكانت النتوءات تعلق بملابسنا. واصلنا مناداة آنا لكن دون إجابة منها.

قلت لناثان وأنا أركض للحاق به «لم أكن أعلم أن هناك الكثير من الأشجار هنا».

«تم قطع الأشجار في ملكية منزل آل إكلوند، ولكن لم يتم قطعها بهذا الجانب». قالها ثم توقف عند أحد الأماكن. وجدنا منزل الشجرة، بناء صغير متهدم يعلو حوالي عشرة أقدام من الأرض ومستند بين شجرتي تنوب. ويوجد سلم ملفوف حول جذع الشجرة الأكبر لكن بضع من درجاته مفقودة.

نادي ناثان «آنا، هل أنتِ هناك؟ آنا!». لم نسمع استجابة فهَمّ في تسلق السلم لكنني أمسكت بذراعه.

قلت له «أنت ثقيل جدًا، قف هنا في حالة سقوطي. سأصعد أنا».

عبس لكن تراجع نحو الخلف بينما صعدت أنا ونظرت داخل منزل الشجرة، كان الضوء يتسرب من خلال الثقوب في السقف. وتنبعث منه رائحة الخشب القديم والعفن الرطب. كان هناك شموع وكتب في ركن على الأرض المتهالكة، وهناك وجدت آنا، تجلس متشابكة الأرجل على كيس نوم ممزق وتضع حقيبة ظهرها على حجرها. تنفست الصعداء ثم ناديت.

«إنها هنا».

قالت لي «اذهبي بعيدًا اتركيني وحدي».

أجبتها «لقد كنا قلقين عليكِ».

«أنا بخير. سأبقى هنا».

نادي ناثان «آنا! ماذا تفعلين هناك؟».

قالت آنا «لن أنزل».

قلت لها وأنا أخاف الدخول فقد ينهار كل شيء «ولكن كل أغراضك في غرفة نومك».

«لدي كل الأغراض التي أحتاجها».

«لكن لديكِ غرفة جميلة...».

«لم أعد أحب غرفتي بعد الآن».

«الجو بارد هنا».

«لدي كيس للنوم. أنا أحب المكان هنا. أستطيع أن أرى كل شيء».

أشرت لناثان لكي يبقى بالأسفل ثم قلت لها «هل ستبقين هنا للأبد؟».

قالت «لا أدري، هذه محطتي الأولى».

«إلى أين ستذهبين؟».

«لا أدري حتى الآن».

«هل هذا كفندق؟».

«أشبه بمخيم».

نادي ناثان من أسفل السلم «آنا؟ انزلي الآن».

مددت يدي نحوها قائلة «سننزل معًا. أليس كذلك؟».

قالت لي وهي تضع يديها تحت إبطيها معترضة «سأبقى هنا، لا أدري لماذا يقوم الجميع بتهويل الأمر. لقد غبت هنا لحوالي خمس دقائق فقط».

قلت لها «الأمر ليس كذلك، إنه فقط... بعد كل ما حدث، نحن مرعوبون بعض الشيء ونريدك أن تكوني بأمان».

«كل ما حدث؟ إنه شيء واحد فقط. ماتت والدة برين».

قلت لها «شيء واحد رهيب. هل لديكِ طعام كافٍ للأبد في حقيبتك؟».

«سأحصل على المزيد لاحقًا».

انتهزت الفرصة وقمت بالزحف بحذر إلى الداخل ثم جلست بجوار آنا. أصدر لوح خشبي صريرا تحت وزني. ثم سألتها «ألا يجب أن نتحدث مع والدك عن هذا الموضوع؟».

هزّت كتفيها وهي تنظر إلى أظافرها الخشنة ثم قالت «يمكنه المجيء ولكن عليه أن يطرق الباب أولًا. لم تطرقي أنتِ. لا يطرق أحد الباب أبدًا».

قلت لها «سأطرقه في المرة القادمة. لكن إذا بقيتِ هنا فستفتقدين المنظر من غرفتك».

«لا، لن أفتقده».

قال ناثان «أنا قادم!».

صِحت نحو الأسفل قائلة «انتظر فحسب!». نظرت إليها وأردفت «إذا بقيتِ هنا فستحتاجين إلى منامة مزدوجة. فلا يوجد نظام تدفئة. أين منامة الطيور الخاصة بك؟ تلك التي ارتديتها للنوم الليلة الماضية».

لم تقل شيئًا

«هل تبللت؟».

«نعم».

إذًا فهي نامت بها ثم غيرتها. قلت لها «اسمعي، أنا أعرف أن الأمور كانت غير طبيعية، لكن...».

نادي ناثان «آنا! انزلي رجاءً».

نظرت إليها وقلت «دعينا ننزل ونتحدث عن كل هذا».

نظرت إليّ بعينين واسعتين وقالت «يمكننا الذهاب إلى مكان ما، أليس كذلك؟ أيمكننا أن نذهب بعيدًا؟».

«إلى أين عسانا نذهب؟».

«إلى مكان ما مثل قصر أو قلعة أو...».

«هل هذا سبب وجودك هنا؟ ألا تشعرين بالأمان في المنزل؟».

لم ترُد.

«نحن بأمان في المنزل مع والدك».

نظرت إليّ بسخط قائلة «لا، لسنا كذلك. أنتِ لا تفهمين. بإمكان الناس أن يكونوا أشرارًا».

«من تقصدين بالضبط؟ من يمكنه أن يكون شريرًا؟».

«الناس».

«أي ناس؟».

هزت كتفيها مرة أخرى وقالت «والدة برين في الجنة إذا كانت خيرة. لكن ماذا لو كنتِ كلا الشخصين؟ خيّرا وشريرا؟».

«هذا سؤال صعب». قلتها ثم منعت نفسي من قول «بالنسبة إلى شخص بعمرك». ثم أردفت «من هو الخيّر والشرير يا آنا؟».

«لا أحد».

قال ناثان «ما الذي يحدث هناك؟».

قلت لآنا. «جميعنا بشر، كل شخص يملك الخير والشر بداخله».

نظرت إليّ وهي تضيّق عينيها وقالت «حتى أنا؟ حتى أنتِ؟ حتى...؟».

أزعجني سؤالها فقاطعتها «ماذا؟ ما الأمر؟».

«لا شيء». قالتها وهي تنظر إلى يديها مرة أخرى.

«آنا».

قالت وهي ترتجف «كنت أسأل فحسب، هذا كل ما في الأمر».

«أنتِ تشعرين بالبرد. دعينا نذهب إلى المنزل. تعالِي». مددت يدي وأمسكت بحقيبة ظهرها ثم سألتها «جاهزة؟».

هبت الرياح وأصدر منزل الشجرة صريرًا. كانت أوراق الشجر تحف من حولنا وبالقرب كان يصطدم المحيط بالرمال. شعرت بأن ناثان بأسفل السلم وقد فقد صبره.

قالت آنا «لا أريد أن تعرف أمي أنني كنت هنا».

«إنها لا تعرف». قلتها على الرغم من أنني لست متأكدة

«على الأرجح اتصل بها أبي مرة أخرى. لقد ترك لها رسالة هذا الصباح».

«اسمعي سأتحدث بالنيابة عنكِ، الأمر على ما يرام». قلتها لكنني قد أكون مخطئة.

الأمر لا يتوقف عليَ. لكنني الآن قد أقول أي شيء لنخرج كلانا من هذا المكان المتهالك.

قالت لي «ما زلت أخطط للمغادرة، بعد الإفطار».

«بالتأكيد، تحتاجين إلى تناول الطعام».

«لا يمكنني الطهي هنا».

«لا، سيكون المكان قابلا للاشتعال. هلّا ننزل؟».

أومأت مستسلمة. وبينما كنا ننزل على السلم اندفعت نحونا عبر الأشجار امرأة بشعر أشقر متطاير.

قالت آنا بهدوء «هذه أمي، أنا بورطة الآن»..



الفصل الثامن

اندفعت ريان نحو آنا وعانقتها بشدة. أدهشني تركيزها على آنا. كانت ترتدي معطفًا وحذاء عتيقين. لا بد أنها هرعت من متجرها. تحول تعبيرها على الفور من القلق إلى الغضب وقالت «أوه آنا، ماذا دهاكِ؟ لقد كدنا نموت جميعًا من الخوف عليكِ».. ثم أمسكت بيد آنا وسحبتها في المطر باتجاه المنزل.

قالت آنا «كنت في منزل الشجرة. مسموح لي بالذهاب إلى هناك!».

تبعناهم أنا وناثان بينما أعطاني نظرة مفادها أننا الآن جميعًا في ورطة كبيرة.

اخترق صوت ريان الرياح «إلى أين؟ ما الذي تتحدثين عنه؟ أين هاتفك؟ حاولت الاتصال بك مائة مرة!».

«لا أدري، لقد أضعته».

«أين أضعتِه؟ هل هو في غرفتك بمكان ما؟».

«لا أدري».

أخذ ناثان حقيبة ظهر آنا من ذراعي بينما نسرع وقال «ماذا وضَعَت في هذا الشيء؟ طن من الصخور؟».

جاوبته «طعام للأبد».

عندما عدنا إلى المنزل كان كل من كيث وهيدرا ينتظر في المطبخ مرتديين ملابسهما وعلى استعداد للذهاب. رفع ناثان حقيبة آنا على الطاولة بينما هرعت هي إلى غرفة نومها وأغلقت الباب بقوة، وكانت لا تزال ترتدي معطفها وحذاءها.

صرخت ريان على ناثان قائلة «كان من الممكن أن تضيعها تمامًا في تلك الغابة».

قال لها «لم أفعل».

«ولكن كان من الممكن ذلك. أنت تعرف كيف تحاول الهرب عندما تشعر بالضيق. ماذا كنت تفعل؟».

«كنت مشغولا».

أشار كيث إلى هيدرا وانتقلا إلى غرفة المعيشة

قالت ريان متجاهلة بقيتنا «من الواضح أنك لم تكن مشغولا بمراقبة ابنتك». وقفت بعيدًا لكنني لم أغادر المطبخ.

أجابها «لقد كان الأمر غريبا هنا مع الشرطة».

«آمل أنهم لم يستجوبوا آنا».

«اسمعي، اتصلت بكِ لكنكِ لم تردّي. كنتِ تعملين أو أيًا كان».

«نعم، أنا أدير عملًا تجاريًا». قالتها وهي تنظر إليّ كما لو أنها تراني للمرة الأولى ويعتري القلق وجهها. لكنها وجدت الوقت للاتصال بآنا أكثر من مرة.

انتهزت الفرصة لأختفي في غرفة المعيشة وأخلع معطفي الرطب. ثم توجها ناثان وريان عبر الرواق إلى غرفة آنا.

قال كيث وهو يتنهد «مثل الماضي تمامًا». كان يقف عند النافذة وهيدرا تجلس على الأريكة.

جاوبته «ماذا يعني هذا؟». شعرت بالقلق فالأسرة المكونة من ثلاثة معًا مرة أخرى في غرفة آنا. لكنها على الأقل آمنة.

أشارت هيدرا إلى الوسادة الموجودة بجانبها لكي أجلس، لكنني لم أكن أريد الجلوس. قالت لي «تريد ريان من ناثان مراقبة آنا على مدار الساعة، ألم أخبرك؟ إنها تحاول العثور على مبرر لتقول عنه والد سيئ».

قلت لها «لكن هذا سخيف، إنه والد عظيم».

أومأت هيدرا نحو الرواق وقالت «نحن نعرف. لكن هل تعرف هي ذلك؟».

كنا هادئين نستمع إلى همهمة الأصوات. وبعد قليل من الوقت خرجت ريان إلى الردهة وناثان يتبعها. ثم قالت وهي تخرج إلى الشرفة «عليّ أن أعود إلى المتجر».. تبعها ناثان إلى الخارج. كان

صوتها يتسرب عبر نافذة المطبخ المفتوحة. «فيم كنت تفكر بحق الجحيم؟...... لا تريد أن تتركها...... لورين...»...

قال ناثان «يوم صادم.... ستكون بخير».

«هذا مجرد مبرر... الأسرة».. أغلقت باب سيارتها بقوة وانطلقت بسرعة.

عاد ناثان إلى الداخل وفرد كتفيه ثم عانقني.

«شكرًا لكِ على مساعدتك.... في منزل الشجرة».

ذهب كيث نحو الردهة ورفع حقيبة المبيت ثم قال «يجب أن نترككما وحدكما، سوف أضع الأمتعة بالسيارة. أراكما بالخارج؟».

أومأ ناثان بتشتت. بينما قامت هيدرا من الأريكة وتبعت كيث نحو الخارج لتتركني وحدي مع ناثان.

قال لي «ماذا حدث هناك؟ ماذا قالت لكِ بمنزل الشجرة؟».

«سألتني ما إذا كان يمكن للناس أن يكونوا أخيارا وأشرارا بنفس الوقت». تذكرت كلماتها بصوتها «حتى أنا؟ حتى أنتِ؟».

«ما بالها؟». سألني وهو يحك ذقنه بظهر يده.

سحبت بعض الأشياء العالقة من شعره قائلة «لقد أخافها شيء ما».

قمت بفتح حقيبة ظهرها على الطاولة وأخرجت الموز المطحون والخبز وزجاجة من الماء والجوارب والملابس الداخلية وسروال

الجينز وقميصا ومنامة الطيور الرطبة. لكنني لم أجد صندوق المجوهرات.

قلت له وأنا أمسك بالمنامة «لقد نامت في هذا لكنها تبللت. لذلك بدلتها أثناء الليل».

«ماذا، أتعتقدين أنها تبلل الفراش مرة أخرى؟».

شممت المنامة لكنني لم أجد سوى رائحة الطحالب والأرز والبحر المالح. أجبته «لا، لكن انظر إلى الوحل على الأساور والركبتين. لقد خرجت».

عبس ناثان متسائلًا «ليلًا؟».

«لا أعرف. قال آرثر نجوين إنه رأى ظلين الليلة الماضية عندما كان بالخارج مع بيرت. لكنه لم يكن يرتدي نظارته».

نظر إليّ ناثان وهو يقف باستقامة ثم سأل «أتعتقدين.... أما زلتِ تعتقدين أنه أنا. لم أكن أنا. لا يستطيع آرثر أن يرى أبعد من أنفه دون نظارته».

«استطاع أن يرى جيدًا بما يكفي ليمشي مع كلبه».

«يستطيع المشي في تلك الباحة بعينين مغلقتين».

سمعت صوت سيارة كيث المرسيدس وهي تدور بالممر

قلت له «أنا لا أجادلك، لكنني قلقة على آنا. ربما تحتاج إلى استراحة في مكان ما بعيدًا عن هنا».

قال لي «لا يمكننا ذلك، ريان صارمة حول جدول مواعيدها».

«تكلم معها. لا يمكنها إملاء حياتنا علينا».

«يمكنها أن تملي حياة آنا عليها. إنها والدتها».

«وأنت والدها. لديك نفس الحُكم عليها».

«تريد ريان إخفائي، ربما على الخضوع».

«لا، هروب آنا إلى منزل الشجرة ليس خطأك».

«ربما هو خطئي». قالها وهو يفتح الباب الأمامي ليدخل ضجيج المحرك ورائحة العادم إلى الداخل.

سأل كيث وهو ينزل نافذة كرسي السائق «كيف حالها؟».

أجابه ناثان «ستصمد إلى مرحلة البلوغ، آمل ذلك. لكن عليّ أن أعود إلى الداخل. شكرًا لحضوركما». قالها ثم عاد أدراجه إلى المنزل وتركني واقفة في الممر بإحراج.

قلت لكيث «قُدْ بحذر».

سألني «هل ستكونين على ما يرام؟».

«أنا بخير.. أنا قلقة بشأن آنا فحسب».

«لطالما كانت مضطربة. الأمر ليس بجديد».

قالت هيدرا «فقط في الأعوام القليلة الماضية، منذ أن بدأ ناثان وريان التشاجر. إنها طفلة وحيدة....».

قاطعها كيث «لا يجب أن نمنعكِ عنها. علينا الذهاب. يجب أن أذهب إلى المستشفى. فلديّ جراحة لأجريها».

نظرت هيدرا إلى الأسفل. قلت له «آمل أن تسير الأمور بسلاسة».

عدّل كيث مرآة الرؤية الخلفية وقال «هيدرا، ضعي حزام الأمان».

سحبت حزام الأمان من فوق كتفها وثبتته في مكانه. بينما لوّحت أنا لكيث وهو يخرج من الممر بسرعة كبيرة إلى حد ما. لوّحت هيدرا لي بابتسامة مزيفة على شفتيها. تحولت عينيها الخضراء إلى لون داكن. ووضع كيث ذراعه حول الجزء الخلفي من مسند رأسها لكن عندما لامست يده كتفها ابتعدت عنه.

الفصل التاسع

بينما كنت أنا وناثان نفرغ غسالة الصحون تخيلت رمي كل الأطباق على الجدران ودهس كافة الكؤوس لتحطيمهم. من يهتم بتكديس الأطباق هكذا وترتيب الأكواب في الخزانة؟ لا يمكنني التركيز في المهام العادية عندما تصبح كل لحظة تمرينًا على التحمل وصوت لورين يطاردني بكل ما أرادت أن تقوله. ستكون الليلة الماضية دائمًا هي العشاء الأخير معها. يصطف الدليل على الطاولة. كأس النبيذ رقيقة للغاية بحيث لا يمكن وضعها بغسالة الصحون.

غسلت كأسًا تحت الصنبور مرارًا وتكرارًا حتى أخذ ناثان كأس النبيذ من يدي بلطف.

قال لي وهو يضع الكأس على الطاولة «لا تقلقي بشأنها. يمكننا غسلها لاحقًا».

أمسكت بالإسفنجة وأنا أشعر أنني هائمة. بالكاد تلمس قدماي الأرض. إذا لم تكن هناك جاذبية لكنت قد طرت.

نملك إمكانية «الوقت اللاحق»، إمكانية التخطيط للساعة التالية، اليوم التالي، العام التالي. أما لورين فلا. فلماذا أرهق نفسي؟ يمكن لأي منّا أن يموت في أي لحظة. من الممكن أن أنزلق وأسقط وينكسر رأسي. من الممكن أن تنحرف سيارة نحو حارتي وتدهسني. من الممكن أن أعلق وسط تبادل لإطلاق النار، الأضرار الجانبية.

قال ناثان وهو يضع يديه على كوعي «ربما عليكِ أن تجلسي».

قلت له «لا أريد الجلوس». أمسكت بحافة الطاولة لأتكئ عليها ثم أردفت «هل لاحظت أن كيث وهيدرا يتصرفان وكأن شيئًا لم يكن؟ كان كل ما يفكر فيه كيث هو العودة إلى الجراحة بأي حال».

ترك ناثان كوعي وجفف الكأس بمنشفة ثم رفعها نحو الضوء ليرى قطرات الماء «يحتاجه مرضاه. ليس الأمر كما لو أنهم بلا مشاعر». قالها ثم وضع كأس النبيذ في الخزانة.

«لكنه يستطيع أن يعيش بلا مشاعر». مددت يدي نحو غسالة الصحون وأخرجت قدحًا مكتوبًا عليه «عش حياتك بمغزى».. لكنني لم أعد أعلم المغزى من حياتي بعد الآن. باستثناء تذكر ذكريات أولئك الذين رحلوا. مثل أبي، وقبله جدي وجدتي، والآن لورين.

ضحك ناثان قائلًا «أنتِ على حق. لست متأكدًا أنه بإمكان كيث أن يشعر بالحزن. لكنه جرّاح جيد».

«وهذا كل ما يهم، أليس كذلك؟».

«بالنسبة إلى شخص ذي قلب تالف، نعم».

استدرت نحو ناثان واستندت على الطاولة ثم قلت «لقد لمّح إلى شيء عندما كنت تستحم... لقد قال تقريبا أن لورين كان يجب أن تموت. استحقت الموت».

«أنتِ تعرفين طبيعة كيث. أنا متأكد من أنه لم يعني ذلك».

«أليس كذلك؟». قلتها وأنا أمد يدي نحو غسالة الصحون ثم سحبت الملاعق ورميتها في درج أدوات المائدة ثم سألته «كيف لنا أن نعرف أنه يجري العمليات الجراحية لمساعدة الآخرين؟ ماذا لو كان يفعل ذلك فقط من أجل إحساسه بالإنجاز؟ أو ماذا لو كان يستمتع بقطع وجرح الناس؟». ارتجفت وأنا أحاول إخراج صورة الدم المتساقط من مشرط كيث خارج رأسي.

«ربما. فهو يمتلك جانبا مظلما. أتعرفين ماذا فعل عندما كنا أطفال؟ دخل بينما كنت استحم ووضع رأسي تحت الماء. كنت بالخامسة من عمري حينها تقريبًا».

استنكرت وأنا أسقط سكاكين العشاء في الدرج «ماذا؟ لماذا كان قاسيًا للغاية؟».

«ظن أنني سرقت شيئًا ما لا أستطيع تذكره. حاولت أن أحبس أنفاسي، لكنني كنت متأكدًا أنني سأغرق. لقد أفلتني في الثانية الأخيرة قبل أن أفقد وعيي مباشرة. كان الأمر مرعبًا». قالها ونظر خارج النافذة.

أجبته وأنا أحدق بكتلة الفضيات في الدرج «يا إلهي، لماذا لم تخبرني بالأمر؟». نظرت نحو ناثان وكانت عيناه تلمعان وتعبير وجهه وحشي تقريبًا.

«لأنني أريد أن أنسى. لأنه شقيقي».

«شقيقك بالدم فقط. أتتذكر؟».

«الأمر يجري بدمي أنا أيضا. هذا ما يخيفني».

«أنت مختلف. لست مثله».

نظر ناثان إليّ بقلق «كنت أتمنى أن تكوني على حق. لكن في بعض الأحيان أنا...».

«ماذا؟».

«أفكر في إيذاء الناس، مثل الشخص الذي قتل لورين، إذا تم دفعها».

«الجميع يشعر بذلك أحيانًا. لكن لا تخضع لذلك الشعور».

أرخى كتفيه قائلًا «لا. ولا كيث أيضا. لقد رق قلبه بمرور السنين. حتى إنه اعتذر عن الطريقة التي كان يعاملني بها».

«هل تعتقد أنه يعامل هيدرا بقسوة؟ هل يخونها؟ أعني بالطريقة التي كان ينظر بها إلى لورين... الطريقة التي كان ينظران بها إلى بعضهما البعض. لا أستبعد احتمالية مطاردتها له. أو لأي شخص آخر».

حامت جملة «أي شخص آخر». بيننا، لكن ناثان لم يبتلع الطُعم.

حك يديه بوجهه كما لو كان يمحو أفكاره وقال «بربك. لم أكن لأتمادى إلى هذا الحد. أنا أعرف ماذا فعلت في الكلية. لكن الآن؟ أتعتقدين أنها كانت لا تزال هكذا؟».

«ممكن». قلتها وأنا أضغط بكف يدي على جبهتي. بالواقع أنا لا أعرف كيف أصبحت. في الآونة الأخيرة لم نكن مقربين كثيرًا ونادرًا ما كانت تشاركني مشاعرها. كانت تتحدث عن برين وصعوبات العمل. لكننا لم نتعمق بالحديث ولم نناقش ماضينا المشترك.

أصبحت غسالة الصحون فارغة. بدأ ناثان في ملئها مرة أخرى بالأطباق المتبقية التي لم تتسع بها الليلة الماضية ثم قال لي «اسمعي، أتفهم الأمر. أنتِ تحاولين معرفة ما حدث لها. لكن المحقق على حق. يبدو أنها شربت كثيرًا وذهبت نحو الحافة وانزلقت. لقد حدث الأمر ولا يوجد شيء بوسعنا لتغيير ذلك الآن».

«لكن كانت هناك كدمات ودماء... بجميع أنحاء جسدها. رأسها كان محطمًا». قلتها وأنا أحاول منع صوتي من الانهيار.

أنهى ناثان ملء غسالة الصحون ثم أضاف الصابون وشغّل دورة الغسيل ثم أجابني «هذا ما يحدث عندما يسقط أحدهم».

«كيف يمكنك التحدث عن الأمر بتلك البساطة؟».

«أنا فقط أقول الحقيقة. هل شاهدتِ مقاطع فيديو المحاكاة من قبل؟ يدفعون دمية من فوق الهاوية فتقع الدمية على رأسها أولًا، فالرؤوس ثقيلة. لن يستطيع الشخص البقاء مستقيمًا مهما حاول».

نظرت إليه وكان حلقي جافًا بينما بدأت غسالة الصحو تعمل ثم سألته «هل شاهدت مقاطع فيديو لدمى تسقط من الهاوية؟».

نظر إليّ باستنكار «بدافع عملي يا ماريسا. لم أكن... أبحث عن كيفية دفع أحدهم من الهاوية».

أجبته بصوت خافت لكن معدتي كانت تتقلص «صحيح، دعنا لا نتحدث عن ذلك مجددًا».

قال بلطف «بالطبع».

التقطت كأسًا أخرى. آخر واحدة من العشاء وكانت توجد بصمة شفاه باهتة على حافتها. إنها كأس لورين. كانت هي الوحيدة التي تضع هذا اللون الأحمر الفاتح. تذكرت شفتيها بالطريقة التي رأيتهما بها على الشاطئ، زرقاء وميتة. أثارت ذكرى عينيها الغائمة الغثيان بمعدتي فوضعت كأس النبيذ على الطاولة ثم استدرت واندفعت نحو غرفة النوم.

سمعت خطوات ناثان خلفي وسألني «هل أنتِ بخير؟ ماذا حدث؟».

جلست على حافة الفراش وأجبته «لا يمكنني القيام بذلك. لا يمكنني غسلها ونسيانها».

جلس بجواري قائلًا «ليس عليكِ ذلك».

«أنا فقط... لا أريد التصرف وكأن شيئًا لم يكن».

سحبني بين ذراعيه وقال «سنترك كل شيء في الوقت الحالي».

ملت نحوه وأنا ممتنة لدفئه. بالكاد شعرت بهاتفه يهتز على الطاولة. ظهرت رسالة لمحت منها بعض الكلمات الواردة قبل أن يمد يده ويخفيها «... عنك... لا يمكنني تحمل الأمر».

الفصل العاشر

قبل أن أسأل ناثان عن الرسالة نادتنا آنا من الباحة الخلفية بصوت بعيد ومكتوم. نهضنا وذهبنا نحو النافذة. كانت تربض أمام شجيرة توت وأنفاسها تصدر بخارًا في البرد. كانت تحمل مخروطا صنوبريا وتبتسم لنا قائلة «انظروا ماذا وجدت!».

ابتسم ناثان ولوّح لها من خلف الزجاج مناديًا «هيا عودي إلى الداخل!». لكن يبدو أنها لم تسمع. دارت بالجهة الأخرى وهي تصوّر مخلوقًا صغيرًا في أسفل الشجيرات.

حوّلت نظري نحو شاشة هاتفه التي أصبحت سوداء وصامتة «من أرسل لك الرسالة؟».

«ريان، كانت قلقة بشأن آنا. لا تريدني أن أسمح لها باللعب خارجًا لأنه يمكنها أن تهرب مجددًا. لكنها بالتاسعة من عمرها وليس الثالثة. لا أستطيع حبسها بالداخل. فهي تحب أن تكون بالخارج».

قلت له «إنها مركزة للغاية».

«لقد ورثت الأمر عن ريان كما قلت لكِ. لكنها ورثت حبها للطبيعة من جدتها. أمي. أتمنى لو استطاعوا أن يلتقوا. اعتادت أمي أن تمشي لمسافات طويلة في الغابة، ربما للابتعاد عنا أو للتفكير. لا أدري». اتجه نحو الرواق إلى غرفة المعيشة. ثم تبعته ووقفت بجانبه عند نافذة الخليج المطلة على الباحة الخلفية والغابة وراءها.

سألته «هل كانت ربة منزل؟ لم تعمل أبدًا خارج المنزل؟».

«لقد كانت تربية ولدين بمثابة وظيفة بدوام كامل لكنها لم تمل أبدًا. كانت تحضر صفوفًا ليلية. لكن أبي لم يكن يريد ذلك... تشاجرا بهذا الشأن... أو هكذا أقول لأخفف الأمر». ذهب ناثان إلى المطبخ وصب لنفسه كوبًا من القهوة السادة. فهو لا يضيف الحليب أبدًا وكانت غسالة الصحون تدور بهدوء.

«لا بد أن الأمر كان صعبًا بالنسبة لك». قلتها وأنا أسترجع ذكرياتي محاولة تذكر أي مرة سمعت فيه والديّ يتشاجران. لم يحدث أبدًا ولا مرة. كانوا ينعمان بزواج هادئ. كنا نلعب الألعاب ونضحك. ولكن كل هذا كان وهمًا. إذا لم يكن الأمر كذلك فلماذا غادرت أمي؟

قال ناثان «كان الأمر طبيعيًا بالنسبة لنا. عندما تكونين طفلة كل ما يحدث يكون طبيعي».

أجبته «لكن لديك وضعًا طبيعيًا جديدًا الآن».

قال بصوت مكتوم وهو يتجرع القهوة «بالنسبة لآنا، كان كل شيء سيكون مختلفًا، كان من المفترض أن يكون كذلك».

ذهبت نحوه وفركت ظهره قائلة «إنها تعرف أنك تحبها».

«نعم صحيح. انظري إليها. لقد هربت مني».

أجبته «لم تهرب منك». لكن للحظة أعتقد أنها ربما فعلت.

تنهد ولف ذراعه حول خصري ثم قال «لم تعثر على هاتفها بعد. قالت ريان إنها حاولت الاتصال بها طوال صباح. لكنني لم أسمع أي صوت أو اهتزاز عندما وصلت الرسائل. أين بإمكانه أن يكون بحق الجحيم؟».

«ربما في أحد جيوبها. في معطفها؟».

«سوف نبحث مرة أخرى».

سألته «هل تعتقد أنها رأت شيئًا ما هناك؟ عندما كانت بالخارج مرتدية منامتها؟ من الممكن أن تكون قد فقدت هاتفها هناك؟».

«يمكن أن يكون هناك، نعم سنبحث في الباحة».

«لم أره في منزل الشجرة».

دخلت آنا مسرعة وأغلقت الباب ثم خلعت حذاءها، كان خديها بلون أحمر بسبب البرد، وكانت تمسك كاميرا صغيرة بديلة مؤقتة لكاميرا هاتفها المفقود، وقالت «صوّرت مقطع فيديو لسنجاب رمادي يدفن مخروطا صنوبريا للشتاء. أحب الأمر عندما تدفن

الحيوانات الأشياء، فهم يمكنهم التخطيط للمستقبل»، يبدو أنها نسيت رغبتها في الهروب إلى الأبد.

أجابها ناثان «عظيم! أعلينا البحث عن هاتفك مرة أخرى؟».

«سأبحث عنه بنفسي». قالتها ثم دخلت المطبخ ووضعت رأسها في الثلاجة ثم قالت «ليس لدينا أي طعام».

«لنذهب للتسوق إذًا». قالها ثم ابتسما لبعضهما البعض وكأنهم يتشاركون شعورًا مفاجئًا بأن يكون لهم هدف. التفت إليّ ثم سألني «أتريدين أن تأتي معنا؟».

أجبته مسرعة «سأبقى هنا وأنظف المنزل، أنا بحاجة إلى القليل من الهدوء». لست مستعدة لمواجهة العالم. من الممكن أن أنفجر في البكاء لأبسط الأسباب.

قبّل جبيني وقال لي «سنعود قريبًا، استمتعي بوقتك وحدك».

غلبني الصمت بعد أن غادر هو وآنا، حاولت التنظيف لكني كنت مشتتة. انجرفت أفكاري نحو الرسالة على هاتف ناثان. فهو لم يرد ولم يحاول تهدئة ريان. أخفى الرسالة ببساطة فحسب. لقد أخذ الهاتف معه.

رأيت من خلال النافذة فوق الحوض سيارة فضية قديمة تتقدم بممر منزل آل إكلوند. خرج والد لورين من السيارة. كان رجل طويل القامة ويبدو حزين ومهزوم. كان منحنيًا ويرتدي معطفًا واقيًا من المطر، متقدمًا في مهب الريح. ثم خرجت والدتها وكانت تتحرك

بعنف كما لو أن مفاصلها متيبسة. تذكرت شعرها الأشقر الطويل المصبوغ الذي كان ملتصقًا برأسها معظم الوقت عندما تعود من مناوبة العمل التي تستمر ١٢ ساعة في «بار ذا أويستر». وهو مطعم بسيط للمأكولات البحرية في سيلفروود. الآن أصبح شعرها مجعدًا وأبيض مائلًا للاخضرار، لا بد أنهم أتوا من سبوكان، حيث كانوا يعيشون بالأعوام القليلة الماضية. لا يمكنني التصديق أنه مرت ست ساعات فقط منذ أن وجدت لورين؟

أنا سعيدة لأنهم هنا من أجل برين. إنها تحتاج أن تجد عائلتها حولها. لا أستطيع أن أتخيل ما تشعر به، فوالدتها لن تستطيع أن تراها وهي تتخرج في المدرسة الثانوية، أو تحضر حفل زفافها، أو توصلها من حفل أو تقدم لها نصيحة أمومة بعد الآن. قلبي ينكسر من أجل العائلة المحطمة المجاورة لي. أتمنى لو بإمكاني أن أزيح عنهم آلامهم، وخوف آنا أيضا. تُرى ماذا سمعت أو رأت الليلة الماضية عندما كانت ترتدي منامة الطيور تلك؟ هل رأت ما رآه آرثر نجوين؟ هل كان ظل خبيث يرفرف تحت الضوء الذي يعمل بمستشعر الحركة؟

اختفت والدة لورين ووالدها وراء السياج متجهين إلى الباب الأمامي. ابتلعتُ غصة في حلقي وهربت من المطبخ ثم ذهبت إلى غرفة الضيوف لتجريد الفراش. كانت النافذة تواجه الغابات الكثيفة التي تفصل بين المنزل والطريق. نعيش بالمنزل في نهاية الممر تقريبًا حيث تتحول الحضارة إلى البرية.

شعرت بالملل لتغيير الفراش وترتيب الوسائد. كانت لورين تفعل نفس الشيء عندما كانت في السادسة عشرة من عمرها، حيث كانت تعمل كممرضة متدربة في مستشفى سيلفروود، وهي بالفعل في طريقها لتصبح ممرضة. عندما سألتها لماذا لا تريد أن تكون طبيبة؟ أجابتني «هذا هو المكان الذي أنتمي إليه. بجانب الفراش لرعاية المرضى». كانت ترعى جدتها العجوز عندما انتقلت للعيش مع الأسرة في مرحلتها الأخيرة من مرض رئوي متقدم.

على الرغم من سلوك لورين على العشاء والمنحى السيئ الذي اتخذته صداقتنا، لكنني أشعر بفقدانها وفقدان العالم لامرأة كانت راعية رغم مظهرها الخارجي الأناني. على عكس كيث المغرور. وهيدرا الهشة والمترددة. وحتى أنا، على الرغم من أنني أساعد الآخرين بطريقتي الخاصة، إلا أن لورين كانت تساعد المرضى دائمًا متخذة تحديات يهرب منها معظمنا.

هرب كيث وهيدرا من غرفة الضيوف على عجل، تاركين الأغطية في حالة من الفوضى ومظلة سوداء على الأدراج. لاحظت وجود بطاقة ائتمان على الأرض في خزانة المعاطف في البهو. لا بد أنها سقطت من جيب أحدهم. التقطتها ثم اكتشفت أنها ليست بطاقة ائتمان بل بطاقة فتح ذات شريط أسود بالخلف. تلك البطاقة التي تُستخدم لدخول فندق أو نُزل أو نادٍ خاص. يظهر عليها شعار شجرة بلوط فوق ورقة بلوط ولا توجد كلمات دالة أخرى. تبدو الصورة مألوفة بشكل غامض لكن لا يمكنني تذكرها.

أرسلت رسالة إلى هيدرا، وسألتها عما إذا قد تركت هي أو كيث البطاقة هنا. بعد عدة دقائق أجابت «ليست لنا. ربما تكون لجنسن أو... للورين؟».

كتبت لها بغصة في حلقي «ربما، شكرًا».

عدّلت ملابسي ووضعتها في جيب المعطف ثم اتجهت إلى منزل آل إكلوند لأقدم التعازي. لا أستطيع تحمل البقاء في المنزل. تلاحقني لورين في كل مكان. بغرفة الطعام، حيث كانت تنحني لإعادة ملء كأس النبيذ لناثان. وحيث كانت تحدق بهاتفها. وتهرع نحو الباب. ولكن على الأرجح لا يهم ما حدث البارحة. لقد عاشت حياة عادية، حتى تم نهب تلك الحياة في حادث غريب وغير مبرر.

كان النهار باردًا بالخارج وطيور الجنك تغرد كما لو أن شيئًا لم يحدث. وبينما أسير في الشارع كنت أتوقع أن تخرج لورين من منزلها لتلتقط الجريدة وتزيل الأعشاب الضارة على طول الطريق حتى الرصيف. كانت يداها دائمًا ما تتحرك، كانت أصابعها تمشط شعرها وتتخلص من الأوراق الميتة بنباتاتها. عندما كنا صغيرين كانت تحب أن تجدل ربطة شعري.

على المنحدر طرقت الباب. انفتح الباب ببطء وأطلقت أنفاسي. كان جنسن يقف أمامي في سترة مضلعة وسروال جينز وجوارب من الصوف الأبيض، كان وجهه الوسيم مجعدًا مثل الجينز. إنه ضخم وعريض المنكبين وصلب. تذكرت تاريخنا المشترك بسرعة. ثلاثتنا نمرح في شقة الكلية وجنسن يضحك بشدة حتى ترتجع الجعة من أنفه.

«ماريسا». قالها وهو ينظر عبري.

«جنسن، لا أعرف ماذا أقول».

عانقني بحركة سريعة وبإحكام شديد لدرجة أنني بالكاد كنت أتنفس. جسده كان متوترًا مانعًا نفسه عن الانهيار. قال لي «لا أستطيع أن أصدق أنها رحلت».

«أنا أعرف». أجبته وأنا أعانقه. مرت بيننا ذكرى لها حيث كانت تعدّل ياقته وعطرها النفاذ يلوح في الهواء. نظرت خلف كتفه فوق السلم. كانت تقف برين مستندة بيدها على الدرابزين وعيناها منتفختان. تقريبًا كنسخة من لورين حين كانت في السادسة عشرة. نفس العبوس، نفس الأنف المرفوع والعيون الواسعة. الشيء الوحيد الذي لم ترثه برين من لورين هو منحنيات جسدها. ورّثها جنسن جسده الصلب. هزت رأسها وهي تنظر نحوي كما لو كنت أنا المسؤولة عن وفاة والدتها. ربما أنا فعلًا مسؤولة. لو كانت لورين قد انجرفت إلى البحر، فستظل برين تأمل عودتها سالمة. كانت لتظل هناك تدوس في الماء بانتظار إنقاذ خفر السواحل لها. لطالما كانت لورين سبّاحة قوية. أسمعها في رأسي تقول «لنتسابق إلى المسبح». كانت تركض أمام المركز المجتمعي بالقرب من طريق البلدة القديم، الشارع الذي نشأنا به. كانت ترمي منشفتها خلفها قائلة «آخر من يصل هو الأحمق».

اندفعت برين لأسفل السلالم وأخذت منعطفًا حادًا مسرعة عبر المنزل ثم أغلقت الباب الخلفي بقوة.

تركني جنسن وهو يمسح عينيه قائلًا «لا تؤاخذيها. إنها مصدومة».

قلت له «جميعنا كذلك».

«ماذا حل بذوقي؟ تفضلي بالدخول».

خطوت نحو البهو. وكان جنسن يقف بالقرب مني، بأقرب مسافة وقفها عني منذ أعوام عديدة. فمنذ تزوج لورين لم نعد نتلامس إلا لفترة وجيزة عند المصافحة أو الوداع بطريقة رسمية. كنت أراه في بعض الأحيان ينظر إليّ بتمعن خاص.

ألقيت نظرة على خزانة المعاطف المفتوحة، وجف حلقي حزنًا. لا يزال كل شيء يخص لورين موجودًا، بالطبع سترتها ذات اللون الأحمر الفاتح وأحذيتها المرتفعة حد الركبة. وعلى جدار البهو يوجد صور داخل إطارات للأسرة في رحلة تزلج. لماذا اعتقدت أنه مع رحيل لورين ستختفي أدلة حياتها أيضا؟ أشحت بنظري بعيدًا عن الصور وأخرجت بطاقة الفتح من جيبي وسألته «هل هذه ملكك؟ هل نسيتها أنت أو لورين؟ لقد وجدتها في خزانة المعاطف على الأرض».

نظر إلى البطاقة وحرك شفتيه ثم أجابني «ليس لدي أدنى فكرة. لم أرها من قبل».

«هل يمكن أن تكون للورين؟».

«ليس على حد علمي».



وضعت البطاقة مرة أخرى في جيبي بحيرةٍ ثم سألته «كيف حال والديها؟».

أجابني بصوت منخفض وأجش «ليسا بخير، يظنان... إنهما ليسا سعداء معي».

«يعتقدان أنك كان من الممكن أن تمنع سقوطها؟».

«شيء من هذا القبيل».

«امنحهما بعض الوقت».

«قد يطول الوقت».

عليّ أن أطلب الزهور أو بطاقة أو ما شابه «هل هناك أي شيء يمكنني فعله؟».

أومأ وأخذ نفسًا عميقًا ثم قال «عندما عثرتِ عليها.... هل كانت...؟ أعني...».

أجبته «لقد رأيت أنت ما رأيته». فقد كان يندفع نحو الشاطئ مناديًا اسمها.

«نعم». قالها بنفس متقطع.

«هل أخبرك آرثر نجوين أنه رأى شيئًا ما في الباحة الخلفية؟».

أومأ جنسن وهو ينظر في اتجاه المنزل على الزاوية.

«من يعرف ماذا رأى آرثر؟ تأتي الغزلان والدببة من المحمية طوال الوقت. يمكن لأي شيء أن يفتح الضوء الذي يعمل بالمستشعر».

«هل قال المحقق أي شيء؟ هل يظن أن هناك شخصا آخر كان هناك؟».

«كل ما قاله هو أنهم عثروا على هاتفها مكسورًا على الصخور. أخذته معها. هل كانت تحاول إجراء مكالمة في منتصف الليل؟ ماذا كانت تفعل؟».

«أنا متأكدة أن الشرطة ستحدد...».

كانت غاضبة مني». قالها بعينين دامعتين. شعرت برغبة في لف ذراعيّ حوله لمواساته.

«لا تقل ذلك».

«لا أعلم ماذا سأفعل من دونها؟».

لمست ذراعه بطريقة ملائمة، لكنه لم يلاحظ ذلك.

«أنا موجودة إذا كنت بحاجة لي. نحن. أنا وناثان».

«شكرًا يا ماريسا». قالها لكنه كان ينظر خلفي كما لو أنني لست هنا. وكانت تحمل عيناه تعبيرًا خاويًا.

الفصل الحادي عشر

كان بإمكاني العودة مباشرة إلى منزل ناثان، لكن بينما كنت بالخارج انجذبت نحو شرفة المراقبة. كان ظل برين يقف وحيدًا تحت القبة. تقدمت بجانبها وانحنيت بكوعي على الدرابزين الخشبي وسألتها «كيف حالكِ؟».

نظرت إليّ بحنق وقالت «أخبرتها أنني أكرهها. آخر شيء قلته».

«قلت ذلك لأمي أيضًا عندما هجرت أبي. كنت كبيرة بما يكفي للتصرف بشكل أفضل».

«هل عادت إليه؟».

«كنت أتمنى أن تفعل ذلك لكن هذا لم يحدث أبدًا».. زارتني مرتين فقط بعد مغادرتها؛ مرة لحضور مؤتمر، ومرة أخرى لحضور جنازة أبي.

بدأ فم برين بالارتعاش وندمتُ على مقارنة الأمرين. فعلى عكس أمي، أرادت لورين أن تكون بجانب ابنتها. كانت عيناها تضيء كلما ذكرتُ برين.

قالت برين «لم يسمح لي أبي بالذهاب إلى الشاطئ لرؤيتها. هل كان...؟ هل كان الأمر فظيعًا؟ لم يخبرني».

كذبت عليها قائلة «لا، بدت مطمئنة».

«سقطت وانتهى الأمر. رحلت».

«هذا ما في الأمر». قلتها لكنني كنت أتساءل لكم من الوقت عاشت لورين بعد سقوطها؟ لكم من الوقت عانت؟

همست برين «هذا جيد إذًا».

«اسمعي، لن أقول إنها تراقبك من السماء. لا أدري ما يحدث بعد الموت. لكنني متأكدة تمامًا أنها تعرف أنكِ تحبينها. وهي كانت تحبكِ أيضا. تحدثت عنكِ كثيرا».

«كنتما صديقتين مقربتين، أليس كذلك؟». سألت برين وهي ترفس ألواح الأرضية عند قدميها ثم مالت نحو الدرابزين مرة أخرى.

أطلقت الهواء المثقل برئتي وأجبتها وأنا أكذب «نعم، كنا أصدقاء مقربين. أعز أصدقاء».

ألقت برين نظرة على المنزل وأردفت «جميعهم ينتحبون. لا أريد الذهاب إلى هناك».

«ليس عليكِ ذلك. أنا موجودة إذا احتجتِ إليّ. يمكنكِ أن تأتي معي».

«ما زلت أعتقد أنها ستخرج من غرفتها أو شيئا من هذا القبيل».

قلت لها «أعرف هذا الشعور». لم أجد شيئا آخر لأقوله. لا إجابات، لا مواساة.

«كيف يمكنها الرحيل؟». قالتها بوجه يحمل الألم وكانت تحكم قبضتها على الدرابزين ووجهها حانق وجلدها مشدود بقوة، كما لو أن صدمة وفاة لورين قد قبضت روحها منها.

أجبتها وأنا ألمس ظهرها بخفة «أتفهمك».

ابتعدت قليلًا وقالت «لا أستطيع حتى البكاء. أشعر أنني مستنزفة. وكأنني لا أصدق هذا. كما لو أن هذا لم يحدث حتى».

«أفهم ما تقصدين».. نظرت إلى ضوء الشمس وهو يخترق سحابة رقيقة غير مبالٍ بالمعاناة التي تحدث بالأسفل. تذكرت صوت لورين «إنها في السادسة عشرة من عمرها. يبدو كل شيء وكأنه نهاية العالم بالنسبة لها».. كيف يمكنني أن أوضح لبرين أن حياتها ستستمر في المضي قدمًا في حين أنني لا أصدق ذلك؟

قلت لها «ركزي فقط على أن تكوني مع والدك. أنتما تحتاجان لبعضكما البعض الآن». لكن الكلام بدا مستهلكا ومبتذلا.

«إنه يعيش في عالمه الخاص. لا يعرف شيئًا عني. لم يكن يعلم أن أمي سترسلني بعيدًا».

«لم تكن لتفعل ذلك. إلى أين عساها ترسلك؟». تبادرت إلى ذهني صور سترات التقييد والمصحات العقلية.

«أكاديمية واساتش، مدرسة داخلية في يوتا».

«هل تقدمتِ هناك؟».

«قطعًا لا. لقد أرادت هي فقط أن تتخلص مني».

«أنا أشك أن هذا كان صحيحًا. هل واجهتِ المتاعب في المدرسة؟».

أجابت برين بتجهم «يمكنكِ قول ذلك. هذا خطئي. أخذتني أمي للأخصائيين. وقد أخبرتني عن جموحها حين كانت أصغر سنًا، وكيف كانت تتمنى لو أنها كانت هادئة. وأنها تريد الأفضل لي. كنت أكره تلك المحادثات. لكن الآن...».

أجبتها «أنا أتفهم».. الآن قد تفعلين أي شيء لتعود مرة أخرى. لقد فكرت بنفس الشيء عندما تخرجت في جامعة واشنطن وحصلت على درجة الماجستير في علم أمراض النطق واللغة. كان أبي يشاهدني من مقعده في المدرجات وكنت أتخيل أمي بجانبه تصفق. كنت مستعدة لفعل أي شيء لتكون هناك فعلًا.

قالت برين «لم أكن لأذهب على أي حال، أنا وأمي.... لقد تشاجرنا بشدة حول الأمر».

«تشاجرتما بشأن المدرسة الداخلية؟».

«نعم، كان الأمر مذريًا. كان من المستحيل أن أذهب لهناك. كانت لتحاول إجباري على الذهاب إلى هناك لكنني كنت سأهرب. لكن الآن أعتقد أنه لا داعي للقلق بشأن ذلك الأمر». ضغطت فكها وهي تنظر إليّ ببرودة مفاجئة في عينيها.

الفصل الثاني عشر

أدركني المطر في طريقي عبر الباحة. وعندما عدت للمنزل كانت تطاردني نظرة برين الباردة وأنا أخلع ملابسي المبللة وأضعها في المجفف. أعرف القليل عن برين، بصرف النظر عما قالته لي لورين. من الواضح أن برين كانت طفلة عنيدة وصاخبة ومولعة بالاعتراض على أي شيء. ومن ثم بدأت بالموافقة على كل شيء، حيث تفوقت في الرياضة ودراستها والقراءة والكتابة. أصبحت أكثر ذكاء من معظم الأطفال. وتحب الجلوس في صمت. هي أيضا مولعة بآنا حيث اعتادت مجالستها ببعض الأحيان. حتى إنها تتطوع للقراءة للكلاب في المجتمع الإنساني المحلي. لكن عندما نظرت إليّ للتو كانت نظرتها باردة. هل تتظاهر بالحزن فحسب؟ ما هذه السخافة؟ فيم أفكر؟ لقد كانت تحب والدتها.

الغسالة متعطلة، وكانت الملابس متكدسة على السلة. أخرجت سروال منامة آنا المليئة بالطيور من تحت منشفة مبللة. كيف تسببت في تلك البقع الطينية على الأساور والركبتين؟ هل زحفت في التراب؟ ماذا كانت تفعل هناك وهي ترتدي ملابس النوم؟

ارتديت سروال جينز وسترة وحذاء بسرعة وهرعت نحو الخارج مرة أخرى ثم اتجهت إلى خلف المنزل. تغطي آثار أقدام آنا الأرض أسفل نافذتها. ولكن لماذا كانت هنا؟ هبت الرياح عبر البحر وارتفع جذع من التربة بالقرب من النافذة. لا بد أنها كانت ترفع نفسها بهذه الطريقة. نظرت إلى منزل آل إكلوند وانخفضت خارج نافذة آنا فرأيت منظرًا جزئيًا لزاوية شرفة المراقبة. وبجانب شرفة المراقبة كان هناك صفوف من حديقة الخضروات الخاصة بآرثر نجوين بجانب بركة الصيد كبيرة الحجم. كان هناك مع بيرت، رابطًا إياه بالحزام منتظرًا أن يقضي الكلب حاجته.

دخلت المنزل مرة أخرى واستحممت بالماء الساخن، ثم ارتديت نفس السترة والجينز النظيفين. كنت أشعر بالوهن حد الانهيار. وعندما كان المجفف يدور قمت بالمزيد من الترتيب وتنظيم الأحذية عند الباب الأمامي. وضعت بطاقة الفتح في حقيبتي، البطاقة التي وجدتها ومرسوم عليها شعار شجرة البلوط. لمن قد تكون؟ أرسلت رسالة إلى ناثان، لكنه قال إنه لا يعرف عنها شيئًا. لا يتبقى سوى لورين.

لا بد أن بطاقة الفتح ملكها حتى لو لم يكن جنسن على علم بذلك. الأزواج لا يعرفون كل شيء عن زوجاتهم، أليس كذلك؟ هل العكس صحيح؟

وقفت عند نافذة المطبخ وشربت فنجانًا من شاي البابونج لتهدئة أعصابي. خرج والدا لورين إلى سيارتهما وخلفهما جنسن وبرين ليودعاهما، بينما كان والد لورين يتراجع نحو الطريق. وعلى مقعد الراكب كانت والدة لورين تمسح أنفها بمنديل مجعد. آمل ألا

يغادروا بالفعل. ربما هم ذاهبون إلى البلدة فحسب. نظرت برين إليّ بينما أراقبها. لا أستطيع قراءة تعبير وجهها لكنني أشعر بالبرودة في عينيها.

تراجعت نحو الظل وكان الدم يندفع في رأسي بينما انفصلت من قبضة والدها وذهبت عبر الباحة نحو الطريق المؤدي إلى الشاطئ وهي تمسك بهاتفها على أذنها. الهاتف! أسقطت الفنجان في الحوض وعدت إلى غرفة آنا. أعلم أنني أتعدى مساحتها الشخصية لكن لا يمكنني السيطرة على فضولي. بحثت في أدراج مكتبها عن هاتفها. وكانت صورة أنا وناثان وريان على المكتب بالغابة الغريبة في الخلفية. تظهر ريان وكأنها ملكة الهدوء. لكنها لم تكن هادئة اليوم عندما أتت بالغابة. ولم تكن هادئة أيضا بالمرة الأولى التي قابلتها فيها عندما أتت لأخذ آنا من المدرسة. كانت عيناها مليئتين بالقلق حين قالت لي «آنا حزينة بسبب انفصالي عن والدها. هي تلومني».

أجبتها «ربما تلوم نفسها. الأطفال غالبًا يلومون أنفسهم عند انفصال والديهم».

لكن ريان كانت مشتتة تمامًا عندما وصلت اليوم، لم تلاحظ حتى وجودي.

بحثت تحت فراش آنا ووجدت جوربا مجعدا. في الخزانة وجدت أحذية وحقيبة ظهر وقمصانا وفساتين على الشماعات. وألعاب الطاولة كانت مكدسة على الرف العلوي. وتنورة وردية معلقة في الخلف والتي كانت ترتديها في صف الباليه منذ عام بينما كان حذاء

الباليه الوردي يجمع الغبار على الأرض. لم ترتد اللون الوردي هذا العام أبدًا.

في مكتبها وجدت خليطا من الأربطة المطاطية متعددة الألوان ومشابك الورق والورق المقوى، وفي الدرج المقابل وجدت أساور ومجموعة من الحليّ اليدوية. وكانت أقلام الرسم في الدرج السفلي فوق ألبوم صور. لكنني لم أجد الهاتف ولا صندوق المجوهرات.

سحبت ألبوم الصور وجلست على حافة الفراش ثم بدأت بتقليب الصفحات. تبدأ الصور في مكان مشمس مليء بالزهور والسماء المشرقة. تلاحظ آنا ما قد يغفل عنه الآخرون مثل المجموعة الدقيقة من الألوان في أوراق الخريف وانعكاس فروع الأشجار في البرك. نقار الخشب ذو العرف وبومة مخططة. أسرتها؛ الوالد وآنا وريان في صورة. الوالد وآنا في صورة. آنا وريان في صورة.

وبينما كنت أقلب الصفحة الأخيرة لاحظت صورة تطل من جيب الغلاف الخلفي. تذكرتها الآن. كان ناثان قد أعطى هاتفه لشخص غريب ليلتقط صورة لثلاثتنا أنا وناثان وآنا. كنا نبتسم للكاميرا بينما يحمل كل منا عصا كبيرة من حلوى القطن[1] دوامية الشكل في مهرجان المقاطعة الصيف الماضي. كان ناثان على اليسار وآنا في الوسط بينما كنت أنا على اليمين. أو على الأقل من المفترض أن أكون على اليمين. فقد تم قطع الجانب الأيمن بأكمله من الصورة لتظهر آنا ووالدها فقط.

(١) غزل البنات.

الفصل الثالث عشر

عندما عادا، ناثان وآنا، انتظرت حتى ذهبت آنا إلى الخارج بالكاميرا. وفي غرفة المعيشة أريت ناثان الصورة المخربة قائلة «لقد قطعتني».

قال عابسًا «أنا متأكد من أنها لم تعني ذلك، فهي تحبك».

«حب؟ لقد أخبرتني أن أذهب للمنزل».

«لم تكن تعرف ماذا تقول».

سألته وأنا أجلس بقوة على الأريكة «أتذكر عندما بقيت هنا لأول مرة؟».. هل مر ما يقرب من ثمانية عشر شهرا بالفعل؟ لم نتواعد لمدة طويلة.

«ماذا عنها؟ كانت متقبلة للأمر».

«ظننت أنت أنها متقبلة الأمر، لكنها أتت إلي بينما كنت أنت في الحمام وأخبرتني أنني لا أستطيع الانتقال إلى هنا ولا يمكننا الزواج. قالت إن الأمر سيكون غريبًا». قلتها ثم تذكرت شعوري باضطراب معدتي.

«لماذا لم تخبريني بذلك؟».

«في ذلك الوقت لم أكن أخطط للانتقال أو الزواج. واعتقدت أنها ستتخطى الأمر».

قال مُصرًا «لقد تخطت الأمر بالفعل. لكن إذا أخبرتِني لكنت قد تحدثت معها».

«ربما نحن نعجّل الأمور، خاصة الآن».

أمسك بيدي وقال «لا، لا تقولي ذلك. هي تحتاجك. نحن نحتاجك».

«الأسبوع الماضي ضايقتني لأنني لم أعد تدوير علبة حليب فارغة. أخرجَتها من القمامة واتهمتني بقتل البيئة».

«ما هذا بحق الجحيم؟».

قلت له «لكي نكون منصفين، لا تتصرف آنا بهذه الطريقة دائما، لقد حظينا بالمرح سويًا مرات كثيرة. لكن هناك خطب ما».

«ماذا؟». قالها وهو ينظر إليها عبر النافذة.

«قالت منذ أسبوعين إن والدتها تترك الستائر مغلقة دائمًا. لا تحب عندما أفتحهم لأن المكان يصبح مضيء للغاية».

انقبض كتفاه وشعرت بأن هناك حاجزًا يرتفع بيننا. قال لي «إنها طفلة. لا تحكمي على أفعالها. عليها أن تعتاد على فكرة انتقال شخص جديد إلى المنزل».

أنا لست شخصًا جديدًا. ولم أنتقل بعد».

«لكن ربما أنتِ انتقلتِ بالفعل من وجهة نظر آنا. الأمر صعب بالنسبة لها. عندما كنت في السادسة عشرة تقريبًا، انتقلت ممرضة إلى منزلنا. كانت تفتح الستائر أيضا. كان الأمر يثير جنوني. كانت أمي تحتضر بينما هذه الممرضة كانت تتصرف ببهجة وتفتح الستائر ليدخل ضوء أكثر من اللازم».

لمست ذراعه قائلة «لقد فقدت أمك حين كنت بسن صغيرة جدًا».

«كان قلبها ضعيفا. مثيرا للسخرية، أليس كذلك؟ كانت متزوجة من جراح قلب لكن لم يستطع إنقاذها على أي حال. كان الضوء يشعرني بالصداع في كل مرة كانت تلك الممرضة تفتح الستائر اللعينة. كل ما أردت فعله هو النوم إلى الأبد».

«لا يمكن لومك؟». أشعر بهذا الشعور الآن أحيانًا. أريد أن أستلقي وأترك الأرض تبتلعني. آنا تفهم الأمر جيدًا حيث إنها دائمًا تجلس خارجًا في العشب بالقرب من الأرض.

«غادرت الممرضة في النهاية، لكنكِ لن.»...

أجبته «لن أترك آنا. لكن ربما يجب علينا التراجع والتمهل بالأمر».

قال ناثان «أخبرت آنا أنها ستظل تقابل والدتها. وأنها ستكون معنا جميعا. الأمر جديد بالنسبة لها، لكنكِ جيدة لنا. جيدة لها».

«أشك أنه من السهل عليها تفهّم الأمر بعمرها. يجب أن تكون مصلحتها هي الأهم بالنسبة لك. خاصة بعد هذه المأساة. ماذا لو هربت مرة أخرى؟ لكن هذه المرة أبعد. يجب أن أعود إلى منزلي لفترة من الوقت».

قال لي «إياكِ والتهرب من الأمر الآن».

«لا أرى ميزة في بقائي. وجودي يقلقها».

أجابني ناثان «وجودك يهدئنا».

«أنا نفسي بحاجة إلى التهدئة. عقلي مشتت للغاية. كلما رأيت أحدهم أتساءل عما إذا قد قتل لورين». قلتها وأنا أمرر يدي على وسادة الأريكة ذات القماش السميك في محاولة لتهدئة أعصابي.

«هذا لأنها ماتت فحسب وعقلك يحاول إيجاد تفسير للأمر».

«هناك خطب ما. لم تقفز فحسب. شخص ما أرادها أن تموت. لا يمكنني التخلي عن تلك الفكرة». قلتها ثم ركزت على الموقد وعلى نمطه من الطوب المبني الذي يظهر بلون وردي شاحب في البداية، ولكن كلما أمعنت النظر أصبحت الألوان أكثر تعقيدًا، الأبيض والأسود والأصفر مختلطين معًا جميعًا.

قال وهو يراقب نظرتي «لم يكن لديها أي أعداء».

استدرت لأنظر إليه بينما كانت الشمس تغرب في السماء خلفه وظله ممدود عبر السجادة. سألته قائلة «لماذا كانت مصرّة على

التحدث معي بشيء مهم؟ عنك؟ ألا تعتقد أنه من الغريب أنها ماتت في صباح اليوم التالي؟».

أجاب بصوت متعثر «صدفة، إذا كان هناك أي معنى فيما قالته فستجده الشرطة».

«ماذا لو لم يجدوه؟ فالشرطة لا تملك قوى خارقة. إنهم لا يعرفون كل شيء. فالكثير من القضايا تبقى دون حل».

اقترب قليلًا معتمًا للنور من خلفه، وغطى الظل طاولة القهوة ثم قال لي «ليس من اختصاصك حل قضاياهم».

أجبته باندهاش وصوت حاد «لا يهمني ماذا تظن أنه من اختصاصي. لورين كانت صديقتي، وسأفعل ما بوسعي للمساعدة».

تحرك ناثان نحو اليسار قليلًا وهرب شعاع باهت من أشعة الشمس من خلفه ليستقر على الأريكة بجواري، ثم قال «لعبة التخمين هذه ستقتلك. ماذا لو لم تجدي إجابة أبدًا؟ بعض الأمور غير قابلة للتفسير. فنحن لا يمكننا تفسير أفعال الناس طوال الوقت».

«أنت تفترض أنها انتحرت. لكن من المحتمل أن أي شخص حولها كان يكن لها كراهية سرية». ارتفع صوتي وتساءلت بسرعة إذا كنت أتحدث عن نفسي. عما إذا كانت محاولتنا لاستعادة صداقتنا مصيرها الفشل دومًا.

«من كان من الممكن أن يكرهها؟ كانت ثملة وغازلتني، لكنها كانت ممرضة. لقد كرّست حياتها لرعاية الآخرين».

اتكأت على الوسادة وقلت «ماذا عن برين؟ كانت لورين سترسلها إلى مدرسة داخلية... لا أعلم السبب. لكنها أخبرتني أنها بالسادسة عشرة من عمرها وأن كل شيء يبدو كنهاية العالم بالنسبة لها. وعندما خرجت إلى شرفة المراقبة لأتحدث مع برين بدت شاردة. توفيت والدتها للتو لكنها لم تستطع البكاء»..

«كلٌ يحزن بطريقته الخاصة».

«لكن برين بدت باردة. وكأن شيئًا مفقودًا بداخلها».

«لا تقولي أنكِ تلمحين إلى أن برين لجأت إلى القتل لتجنب الذهاب إلى مدرسة داخلية. لم تكن لتقتل والدتها».

«الأمر معروف وممكن حدوثه».

«يمكن أن أصدقه إذا تعرض طفل للإيذاء أو الإزعاج.»...

«ربما برين مريضة عقليًا. فنحن لا نعرفها جيدًا. أو ربما تشاجرت مع لورين ودفعتها عن طريق الخطأ».

«أنتِ لا تصدقين ذلك حقًا».

أمسكت وسادة وضغطتها نحو صدري. «يا إلهي، أنا لا أعرف ماذا أصدق. أنا أفقد عقلي».

«لا عليكِ؟».

«أحتاج أن أعود لمنزلي... أحتاج الراحة لبعض الوقت». قلتها على الرغم من أنني في الحقيقة لا أعرف ما الذي أحتاجه أو ما

يتوجب عليّ فعله. كان ظلي يخفت بجواري وكان مشتتا ومشوها. كلما نظرت إليه أكثر رأيت وجه لورين وعينيها الغامضة. ارتعشت من جديد ومنعت دموعي من النزول.

التقط ناثان كومة من المجلات من فوق طاولة القهوة وبدأ بقذفها في سلة المهملات المصنوعة من الخوص بجانب كرسيه ثم قال «اذهبي إذا كنتِ بحاجة إلى الراحة. لكن توقفي عن محاولة معرفة من قتلها».

«لن أتوقف أبدًا يا ناثان. أنت تعلم ذلك».

نظر إليّ وقال «لكنكِ تقودين نفسك نحو الجنون. تراجعي واتركي المحقق يقوم بعمله».

الفصل الرابع عشر

كانت رحلة عودتي على طول الخليج عاصفة وكانت الأشجار منحنية لتشكل نفقًا ضيقًا فوق الطريق. وعلى الطريق الساحلي بدت المتاجر الجذابة وكأنها تشاهدني. ونوافذها التي تشبه العيون مضاءة بمصابيح الشوارع العتيقة. مررت عبر القسم القديم من البلدة وهو عبارة عن مجموعة من الشقق المتداعية على النمط الفيكتوري، والمنازل الريفية المربعة الموجودة منذ أيام صناعات صيد الأسماك وقطع الأخشاب.

شعرت بالارتياح بمجرد دخولي إلى ممر جونيبر الهادئ حيث يقع منزلي ذو اللونين الأزرق الشاحب والأبيض. كانت الستائر مغلقة وضوء الشرفة يلقي وهجًا باهتًا على السلم الأمامي. كما كانت الصحيفة مثبتة بالسياج. لا يوجد عنوان رئيسي عن لورين بعد. ربما لن يكون هناك واحدًا أبدًا. ربما لا تستحق قصتها أن تكون بالصفحة الأولى حتى في بلدة صغيرة كهذه. لا أعرف حتى الآن. لكن ربما ذُكرَت قصتها بالإنترنت. فأخبار الإنترنت تنتشر بسرعة البرق سواء كانت حقيقية أو مزيفة. على الشرفة الأمامية كانت تنتظرني باقة من

زهور الخريف في إناء على السجادة. زهور؟ بهذا الوقت؟ لا يمكن أن تكون زهورا للمواساة والتعزية. فأنا لست من عائلة لورين. ما هذه الزهور؟

كان هناك بطاقة بين غصنين من السرخس مكتوب عليها بخط غير منسق من قبل شخص ما يعمل في فاز أوف فلاورس[1].

«مرحبًا بعودتك». هذا كل ما كُتب على البطاقة.

مرحبا بعودتك؟

أرسلت رسالة إلى ناثان قائلة «شكرًا لك على باقة الزهور الجميلة».. لا بد أنه طلبها لتصل سريعًا عندما قلت إنني بحاجة إلى العودة إلى المنزل اليوم.

رد على رسالتي «زهور؟».

«الباقة».

«معجب سري؟».

«أنت».

«لفتة جميلة من شخص ما».

«أنت».

«كيث وهيدرا؟».

(١) تعني إناء من الزهور، وهو محل لبيع الورود.

عبست وأنا أفكر. مرحبا بعودتك؟ لماذا يرحبون بعودتي بعد أن طلب ناثان الزواج مني ووافقت على الانتقال لمنزله؟ التقطت صورة للباقة وأرسلتها إليه. بعدها أصدر الهاتف صوت اهتزاز.

أرسل لي «مذهلة».

«الغز».

«هل انتِ بخير؟».

«لا». أرسلتها بينما كانت عيناي مغرورقتان بالدموع. أرسلت له صورة قلب وأرسل لي واحدة بدوره.

فتحت الباب وحملت الباقة نحو الداخل. أحب صرير الأرضية الخشبية وغرفتي المريحة التي تحيطها أرفف الكتب، وأريكة غرفة المعيشة المريحة ذات الدرجة العميقة من اللون النيلي. والأهم من كل ذلك، أنني أحب البيانو الصغير من ماركة بالدوين. ورثته عن أبي عندما توفي. أضع صورته على سطح البيانو. عيناه العسليتان تتلألآن، وشعره الرمادي يكسو جبينه. كان يبدو جميلًا ومنظمًا للغاية.

بينما كنت أقوم بترتيب باقة الزهور على الطاولة في البهو فاحت رائحة عطر خافت نحوي وشعرت بتغيير في الهواء. هل الزهور السبب؟ لا. ربما تركت نافذة مفتوحة وتسربت الرائحة من منزل أحد الجيران إلى الداخل. أو شخص ما كان هنا؟

تبدو غرفة المعيشة وكأنها لم تُمس، ولكن هناك بقعة من التراب الجاف على الأرض، وكأنها أثر قدم تقريبًا. تسارعت نبضاتي

وتسللت عبر الرواق نحو المطبخ. كان هناك تفاحة نصف مأكولة على سطح الطاولة، هل تركتها هناك؟ هرعت نحو مكتبي. لكن لم يكن هناك شيء في غير مكانه، فقط النافذة كانت مفتوحة والهواء يتدفق إلى الداخل. أغلقتها بينما كان قلبي يخفق بشدة. لا بد أنني تركتها مفتوحة. فقد كنت مشتتة بالآونة الأخيرة.

ولكن في غرفة النوم كان الوضع وكأن إعصارًا قد ضرب المكان. ملابسي معلقة من الخزانة. وشظايا زجاجية متناثرة على الأرض، وسائل زجاجة العطر منتشر على الجدار. أحدهم ألقى الزجاجة على الجدار. من قد يكون فعل هذا؟ الزجاجات الأخرى كانت مصطفة على أدراج الملابس دون أن تُمس. تحققت من الأدراج وأكوام الملابس. لكن لم يكن هناك شيء مفقود. باستثناء شيء واحد. فستاني الحريري الأزرق، الفستان الذي أعطته لي لورين قبل أعوام. الفستان الذي كنت أخطط لارتدائه في حفل الزفاف. اختفى.



الفصل الخامس عشر

قالت الشرطية الشابة «أنتِ تقولين إن بابك كان مغلقًا عندما وصلتِ إلى المنزل».. كانت تجلس بجواري على الأريكة. وجهها المستدير الشاب يبدو مألوفًا. كتفها العريض ينافس كتف ناثان. أرسلت لناثان رسالة وأنا مذعورة منذ نصف ساعة لكنه لم يتصل بي. تحرك شريكها الشاب الذي كان يمشي بهدوء إلى غرفة النوم. ربما ليبحث عن أدلة أو ليرفع البصمات.

قلت لها «أيًا كان من دخل فقد دخل عبر نافذة مكتبي».

قالت «لقد رأينا آثار أقدام بالخارج وسنحاول رفعها من على العتبة. أيوجد أي شيء آخر مفقود بخلاف الفستان؟».

«.لا. لا تزال كل مجوهراتي في صندوق المجوهرات الخاص بي. وخزانة الملفات الخاصة بي لا تزال مغلقة».

مدت يدها نحو ذراعي مطمئنة ثم سألت «هل أنتِ بخير؟».

أجبتها وأنا أرتجف وأشعر بالدوار «لا».

«هل هناك شخص يمكنني الاتصال به من أجلك؟».

«تركت رسالة لخطيبي. سيتصل بي قريبًا، أنا متأكدة».

أومأت ثم نظرت حولها وسألت «هل تحتفظين بأي أشياء ثمينة أخرى في المنزل، نقود تحت المرتبة، أي شيء من هذا القبيل؟».

«احتفظ بنقودي في البنك».

«لا أدري، مجرد احتمال. هل لديكِ أي فكرة عن سبب اقتحام شخص ما لسرقة فستان واحد ورمي ملابسك بأنحاء الغرفة؟».

«ليس لديّ أدنى فكرة. لا بد أنه شخص يعرفني، شخص غاضب مني». وجدت الفستان أنا ولورين معًا منذ وقت طويل. وكلانا قام بقياسه في المتجر، لكنها اشترته قبل أن أتمكن من شرائه أنا. ارتدته مرتين ثم أعطته لي قائلة «يبدو أفضل عليكِ بكثير. إنه لكِ».. عندما أتذكر أتساءل عما إذا كانت قد أعطتني الفستان بدافع الذنب. ككفارة عن ذنب لم أكتشفه بعد.

ضيقّت الشرطية عينيها ثم سألت «أهناك أي شخص تعتقدين أنه قد يكون غاضبًا منكِ؟».

«ربما، لكنها ماتت».

جلست بظهرها إلى الخلف ونظرت إلى قائلة «أنتِ من عثرت على لورين إكلوند؟».

«أنتِ تعرفيني، عظيم».

«كنت ضمن فريق الطب الشرعي. أنتِ تعرفين، البلدة صغيرة».

أجبتها «آه». كلمة الطب الشرعي وقعت عليّ وقع الصاعقة. تصورت الشرطة تعبث بجسدها وترفع بصمات أصابعها وتقطع خصلات من شعرها.

قامت الشرطية قائلة «اسمعي، سأكتب تقريرًا. عليكِ تثبيت نظام إنذار. ورد لدينا بلاغات عن سلسلة من عمليات السطو في الآونة الأخيرة. لكن هذه الحالة...».

«تبدو متعمدة شخصيًا».

وضعت القلم في جيبها وأجابت «من الوارد جدًا أن تكون كذلك». ثم أردفت وهي تمشي نحو الباب «هل لديكِ مكان آخر لتبقي فيه؟».

«قد أعود إلى منزل خطيبي، أو ربما إلى منزل الجيران».. جزء مني يريد الخروج من هنا الآن ومواصلة الركض بعيدًا لأميال. لكنني نظرت حولي على المنزل الذي طليته بحب شديد وأوعية نباتاتي والأثاث المتناسق وكل كتبي والبيانو. هذا منزلي حيث شعرت بالأمان دومًا. ومن الحماقة أن أدع أحد المقتحمين يخيفني لأتركه.

«لا ترددي في الاتصال بالطوارئ إذا حدث أي شيء، حسنًا؟ وعندما تبقين هنا أغلقي أبوابك ونوافذك».

قلت لها «بالتأكيد سأفعل ذلك».

خرجَت إلى الشرفة الأمامية وأغلقتُ أنا الباب وراءها.

فتحت الستارة في غرفة المعيشة. وبينما كنت أشاهد الشرطية وهي تقود بعيدًا كانت إنارة الشارع تومض عبر الطريق. كان الحي يسوده الهدوء الشديد. أحتاج إلى صوت أو موسيقى أو أي شيء. جلست على البيانو وعزفت نسخة بطيئة من مقطوعة فير إيليز[1] لبيتهوفن لإبعاد خوفي، لملء الفراغ، لأوجه رسالة لأي لص قد يكون متربصًا بالخارج، مفادها أنني لست خائفة. كان يبتسم أبي بهدوء في صورته، لكنني تمنيت أن أتحدث إليه بالفعل. كان ليقول لي ما يطمئنني. لكنه رحل منذ عشرة أعوام تقريبًا ورماده منتشر عبر البحر.

(١) بالألمانية تعني «من أجل إليزا» وهي واحدة من المؤلفات الموسيقية للموسيقار لودفيج فان بيتهوفن التي تعود إلى عام ١٨١٠. وتعد من أشهر معزوفات بيتهوفن

الفصل السادس عشر

قال لي ناثان عبر الهاتف «أنا قادم».

أجبته وأنا أنظر عبر النافذة «لكن ماذا عن آنا؟ إنها تحتاج إليك هناك».

«فلتبقي معي إذًا. ماذا لو عاد اللص؟».

«قد يعود. لكن أيًا كان من فعل ذلك تأكد من أنه لا يوجد أحد بالمنزل. آمل أن يكون جبان ولا يعود».

«أنا في طريقي إليكِ».

«انتظر قليلا. تركت رسالة لجولي. على الأرجح هي في طريقها للمنزل من مؤتمرها الآن».

«إذا لم تبقي معكِ أعتقد أنني يجب أن أبقى أنا معكِ. سأرى ما إذا كان بوسع ريان أن تأخذ آنا».

«ناثان أنا..»...

«سأعود الاتصال بكِ».

«لا. لا تفعل. سأتصل بك إذا كنت بحاجة إليك».

«أنتِ عنيدة».

قلت له «عنيدة هو لقبي».

«هناك شيء أردت إخبارك به. أعرف شخصًا في مكتب الفحص الطبي. قال لي أن إصابات لورين تتوافق حتى الآن مع سقوط من ارتفاع. هذا كل ما أعرفه. لكنهم يتعاملون مع موتها على أنه حالة مشبوهة».

أجبته هامسة «أنت تقصد... كنت على حق».

«لم أكن لأعجّل الاستنتاجات».

«هل سيفحصون جسدها بحثًا عن الحمض النووي؟».

«تخمينك جيد مثل تخميني. لكنهم عادةً لا يقومون بإجراء تشريح كامل عندما يسقط أحدهم من فوق الهاوية. الأمر مختلف عما يعرض على التليفزيون. لا يمشطون كل شعرة ولا يضعون كل جزيء في كيس الأدلة. لديهم موارد محدودة».

«فجأة أصبحت تعرف الكثير عن هذا الأمر».

«حسبك، أنا أعمل بنفس المجال وينتابني الفضول. في مثل هذه الحالة لا بد أن يكون هناك شيء ما غير عادي. على سبيل المثال إذا سقطت امرأة نصف عارية، فقد يحققون فيما إذا كان هناك اعتداء جنسي حين سقطت أو حين تم دفعها».

«هل يعتقدون أن هناك شيئًا غير عادي؟».

«لا بد من ذلك. وإلا فإنهم كانوا قد افترضوا أنه كان حادثًا. خاصةً أنها كانت تشرب الخمر. لكن لسبب ما يبذلون مجهودا إضافيا، ربما بسبب ما قاله آرثر. أو ربما بسبب شيء آخر. إذا عثروا على دليل أنها جريمة قتل فسيبقون الأمر طي الكتمان».

جريمة قتل. سألته «هل تقصد دليلا على وجود صراع؟ أراهن أن هناك شيئا تحت أظافرها».

«محتمل. هل لاحظتِ شيئًا؟».

قلت له «كنت مصدومة، كان من الصعب معرفة ذلك».

«نعم أنتِ على حق. هل أنتِ بخير؟».

«سأكون بخير يومًا ما، آمل ذلك».

«لا أشعر أنني بخير أيضا».

«أوه، ناثان.»...

«ما زلت أفكر بها عندما كانت هناك على الشاطئ. لا أعرف، ربما كان بوسعي..».

قلت له «لا يمكنك إنقاذ الجميع».

« أعرف، لكن يمكنني المحاولة».

أغلقت الهاتف وأنا أشعر بالخوف من كل شيء. من اقتحام منزلي ورؤية لورين على الشاطئ وعيون برين الباردة وحزن جنسن، وعندما كانت آنا تجلس في ركن منزل الشجرة المتهالك وطلبت مني أن أذهب بعيدًا.

سمعت صوت أبي يهمس «اصمدي يا ماري فأنا معكِ دومًا».. افتقد ضحكته الصاخبة. ورثت ضحكته وحاجبيه الكثيفين. لكني ورثت عيني البنية ووجهي البيضاوي من أمي التي ولدت وترعرعت في الهند. التقى والداي حين كانا طلاب باصطدامهما ببعضهما البعض حرفيًا في مكتبة جامعة ولاية واشنطن. أصبح كلاهما محاسبا وعملا بالأرقام لكسب العيش حتى رحلت أمي وهجرت أبي بعد مغادرتي للكلية. كان ينبغي أن أدرك هوسها بالسفر قبل ذلك بكثير، لكن عقلي الطفولي كان يقول لي أن حياتنا المنزلية مثالية. ضحكنا معًا ولعبنا جولات لا نهائية من لعبة التخمين ولعبة سكرابل[1]. لفترة من الوقت كانت لورين تعيش بمنزلنا تقريبًا، حيث كان والدها يعمل كصياد سمك في ألاسكا، وكانت والدتها تعمل لساعات طويلة كمديرة للمطعم. كانت أمي تسافر بمفردها أحيانًا لكنها كانت تعود دائمًا، إلى أن ذهبت يومًا بلا عودة. لا يمكنني حتى الاتصال بها لأخبرها عن لورين. لا أملك رقم هاتف أمي.

سألت بصوت عالٍ «ما الذي يحدث يا أبي؟ من اقتحم منزلي؟ من يريد الفستان؟ ومن يريد أن تكون لورين ميتة؟».

---

(١) لعبة من ألعاب الطاولة الهدف منها تكوين كلمات إثر سحب عشوائي لسبعة أحرف.

لم يرد، لكنني أعرف ما كان ليقوله. كان ليخبرني أن أثق بغرائزي وألا أكون متشائمة. «يجب أن تجدي الجانب الجيد في هذا العالم دائمًا».

تصفحت ألبومات الصور القديمة في مكتبي وأخرجت صورة لورين وهي ترتدي الفستان الأزرق. أنا وهي وجنسن كنا نجلس في مطعم خافت الضوء ونضحك. كان اسم المطعم «ذا ميديترنيان[١]».. كان هناك طاولات خشبية ومشرب بار ذو مرايا في الخلفية وكانت الجدران باللون الأحمر الغامق. أدهشني كم بدونا صغارًا. الأمر يبدو وكأنه كان البارحة. كان وجه لورين أكثر استدارة وشفتاها ممتلئتين وبشرتها خالية من العيوب، كما كانت نظرتها خالية من الهم. كنت أضع الكثير من الماسكارا وتعبير وجهي بسيط. قالت إنني أبدو أفضل في الفستان الأزرق، لكن عندما ارتدت الفستان في المتجر لتقيسه، شاهدتها وهي تعجب بنفسها في المرآة وتحرك شفتيها متعجبة وكأن الثوب المحاك يدويًا هو مفتاح كل شيء جيد في حياتها.

هل من الصدفة أن يختار اللص نفس الفستان الذي خططت لارتدائه في حفل زفافي؟ لم تعجبني أبدًا فكرة أن ترتدي العروس فستانا رتيبا كاللون الذي يختاره الجميع. لكن الحرير الأزرق يذكرني بالسماء الزرقاء الشاسعة المليئة باحتمالات لا حصر لها.

---

(١) تعني بالإنجليزية البحر المتوسط

نظرت لأعلى ورأيت الستارة تسقط على نافذة المنزل المجاور. إنها بي مورني. الجارة الفضولية النمطية. ارتديت ملابسي الرياضية وذهبت للتحدث معها. بالكاد أستطيع أن أصدق أنني عثرت على لورين هذا الصباح والآن يهيمن الليل وقد تعرض بيتي للنهب. لقد مر عمر كامل في هذا اليوم الذي يبدو كجحيم لا نهائي. مع اقترابي كانت بي تطل من بابها الأمامي وتلوّح وكأنها رأتني قادمة للتو. بي عاملة متقاعدة من مكتب التأمين الاجتماعي. كانت تحدد من يحصل على فوائد التأمين ومن يغادر خالي الوفاض. كل ذلك من مكتبها خلف زجاج مقاوم للرصاص. الآن تقضي أيامها في الحياكة وتشذيب حديقتها بصوت مزعج وبيع التحف على موقع إي باي[1] والتجسس على جيرانها.

«مساء الخير». قالتها وهي تخرج إلى الشرفة.

زيفت ابتسامة وقلت لها «مساء الخير». لوّحت لها عبر سياج نباتي مشذب بأشكال غير طبيعية.

فتحت الباب لتسمح لي بالدخول ثم قالت «رأيت الشرطة هناك. ماذا حدث؟».

أجبتها «اقتحم شخص ما منزلي».

شممت رائحة الكعك برقائق الشوكولاتة تسود المنزل. الشيء الجيد ببي مورني أنها تحب الخبز. كالعادة كانت مصطنعة تمامًا رغم أنها نادرًا ما تغامر بالخارج حيث إنها مشغولة جدًا بمراقبة الحي.

(١) موقع إلكتروني للبيع والشراء عن طريق الإنترنت

أرشدتني إلى غرفة معيشة مزدحمة ومفروشة بالتحف القديمة. فهي تقوم بجمع أواني الكعك المصنوعة من السيراميك وتصفها على كل رف وطاولة ممكنة.

قالت لي «اقتحام؟ يا للفظاعة. نحن في منطقة لا يحدث بها الكثير من الجرائم، لكن المجرمين يبحثون عن أحياء جميلة مثل حينا. لا بد أنكِ منزعجة للغاية».

«أنا بخير».

«اجلسي.. اجلسي». قالتها وهي تنقل كومة غسيل من الأريكة إلى الكرسي.

كنت بالكاد أشعر بالوسادة على الأريكة تحتي. سألتها «أتساءل عما إذا..»...

قاطعتني «سمعت الأخبار الرهيبة عن لورين إكلوند».

أجبتها بمرارة في حلقي «نعم».

كانت تضع على رف الموقد صورًا لأسرتها التي تتكون من زوجها الراحل وابنتها التي تعيش في هاواي وحفيدها الصغير. وبإحدى الصور أدهشني أن بي كانت ترتدي معدات الغوص.

قالت «أمر محزن للغاية، لقد سمعتِ بالأمر إذًا؟».

أجبتها «سمعت».. لا تدري أنني من عثر على الجثة. إنها لا تدري.

«تحدث أشياء قاسية في هذه البلدة. الأمر غير متوقع. أنا أراقبك لكن ليس بطريقة فضولية. أنا سعيدة لعدم وجود أي هاوية بالقرب من هنا».

قلت لها «نعم. أتساءل عما إذا..»...

«لا أستطيع تصديق أن أحدهم قد اقتحم منزلك. عندما أراقبك أتأكد من عدم سرقة أي شخص من صندوق البريد الخاص بك. ماذا أخذ اللص؟».

«فستان قديم جميل. أتساءل عما إذا كنتِ قد رأيتِ شيئًا».

«لا، لكنني سأراقب من أجلك. الأمر مخيف جدًا. اتصلي بي إذا احتجتِ أي شيء».

«شكرًا لكِ». قلتها وأنا أشعر أني قلبي يتحطم. كنت آمل أن تتمكن من المساعدة. قمت واتجهت نحو الباب.

«بالطبع، كانت هناك سيارة».

استدرت وقلبي ينبض ثم سألتها «أي سيارة؟».

«كان هناك سيارة على الجانب الآخر من منزلك في وقت مبكر. أنتِ تعرفين كيف ينبح الكلب بالمبنى المقابل أحيانًا؟ لدي آذان حساسة للغاية».

«جميعنا ممتنون لذلك».

«استمر الكلب بالنباح، لذا جئت إلى النافذة لأرى ما سبب هذه الجلبة. كانت هناك سيارة متوقفة على الجانب الآخر من الشارع أمام منزلك مباشرة».

نظرت نحو الاتجاه الذي تشير إليه، في اتجاه غابة مظلمة وآثار سيارة على النباتات. ابتلعت خوفي وسألتها «هل تعرفين ما كان نوع السيارة؟».

«هوندا فضية، سيارة دفع رباعي. أعتقد أنها كانت موديل حديث».

سيارة لورين؟ لكن لورين توفت.

«هل رأيتِ أي شخص بداخلها؟».

«كان هناك ظل في مقعد السائق، هذا كل ما أعرفه. ثم قاد أيًا كان هذا الشخص السيارة بعيدًا. لم أر لوحة السيارة، لكنني سأنتبه في المرة القادمة».

قلت لها «دعينا نأمل ألا تكون هناك مرة قادمة».

«أنتِ بحاجة إلى تركيب نظام إنذار أيتها الشابة. لديّ واحد».

«شكرًا لكِ». قلتها وأنا أخرج نحو الشرفة ثم أردفت «شيء آخر».

«نعم؟».

«هل رأيتِ أي شخص يوصل الزهور إلى منزلي اليوم؟».

عبست ثم أماءت ببطء وأشارت إلى وقالت «رأيت شاحنة بيضاء من محل فاز أوف فلاورس! لكنني لم أرها تتوقف عند منزلك. أنا

لا أطل من النافذة طوال الوقت، تعلمين، لدي أشياء أخرى يجب القيام بها».

«من المفيد جدًا أنك تطلين من النافذة بالأساس».

قالت بأسلوب متعجرف «أقوم بواجبي المدني».

«لكنكِ لم ترين أحد يوصل الزهور».

«استدارت الشاحنة عند الطريق المسدود وغادرت. لماذا؟ هل أرسل لك أحدهم الزهور؟».

قلت لها «على ما يبدو».

«مناسبة خاصة؟». سألتني وهي تنظر إليّ كما لو كانت تتوقع بعض الأخبار المثيرة والنميمة.

ابتسمت بحزن وأجبتها متنهدة «نعم، مناسبة حداد».

الفصل السابع عشر

عندما عدت إلى المنزل تأكدت من أن الأبواب مغلقة والنوافذ أيضا. لكني لم أستطع غلق هذا الشعور بالضيق، شبح لورين يطاردني. وسر فستان الزفاف المختفي. والشعور بأن بي مورني تراقبني مرة أخرى.

تذكرت كلمات بي «بالطبع، كانت هناك سيارة».

سيارة لورين.

ربما كانت برين. ربما كانت تقود السيارة. لكن لماذا؟ من قد يكون غيرها؟ جنسن؟ لا أظن. أخرجت بطاقة المحقق من حقيبتي واتصلت به. رد المجيب الآلي بصوته العميق الكسول طالبًا أن أترك رسالة.

«أنا ماريسا بارليت. اقتحم شخص ما منزلي الليلة... أتى الشرطيون الليلة. لست متأكدة، لكن لدي شعور أنني أعرف من الشخص الذي اقتحم منزلي. الأمر يمكن أن يكون له علاقة بلورين إكلوند. هل بإمكاني المجيء والتحدث معك؟».

أغلقت الهاتف وبينما كنت أرتب غرفة النوم شعرت بالغضب. فقد ألقى شخص ما ملابسي في جميع أنحاء الغرفة وكسر زجاجة عطري على الجدار.

كيف قد تكون برين عرفت بأمر الفستان؟ لا بد أن لورين قد أخبرتها. لكن لماذا العنف؟ ماذا فعلت لها؟

برين بالسادسة عشرة فقط. ربما أخبرتها لورين عن خطبتي وعن الفستان وكيف كان ملكها بأحد الأيام. ربما قامت برين باختلاق بعض التفسيرات الخاطئة لوفاة والدتها. ربما اختلقت سببًا لإلقاء اللوم عليّ. فكرت في الاتصال بجنسن. لكن عائلة لورين غارقة في الحزن ومن غير المناسب أن يشكو شخص ما من فستان مفقود؟

رن هاتفي وملأ صوت جولي الهادئ والقلِق بآن واحد أذني «اقتحم أحدهم منزلك؟ هل أنتِ بخير؟».

«أنا خائفة بعض الشيء».. أطلعتها على كل شيء. لورين وهروب آنا واستجواب المحقق لنا. خرجت الأحداث المروعة لهذا اليوم من فمي على عجل.

قالت لي جولي «لا أستطيع تصديق الأمر. سآتي فورًا».

أغلقت الهاتف وشعرت أن لورين على مقربة رغم أن قدمها لم تطأ هذا المنزل أبدًا. كنت أخطط لدعوتها يومًا ما.

«حسنًا، أنا هنا الآن. شبحي». سمعت الصوت ورأيتها تتكئ على الأريكة وتضع ساقيها فوق بعضهما البعض مؤرجحة قدمها ثم

أردفت «تحتاجين إلى تغيير ألوان هذه الجدران. كوني جريئة. مثلي».

لقد أخذت جرأتها إلى أعلى مستوى بهذا اليوم في الربيع الممطر بشقتنا الجامعية. كم مر من الوقت على ذلك اليوم؟ بعد ذلك تركتُ المنزل ورفضتُ التحدث معها وتجاهلت اتصالاتها وابتعدتُ كلما كانت تقترب مني في الحرم الجامعي. طوال هذا الوقت كان قلبي ينكسر إلى قطع صغير كفتات الخبز.

بعد انتهاء الدراسة بالجامعة لم أعد إلى سيلفروود بلدة طفولتنا. لم أكن أريد مقابلتها في حال عادت إلى المنزل. أما أنا فكنت منهمكة بالعمل في سياتل بعيادة خاصة لبضعة أعوام، لكنني لم أحب المكان حيث الضوضاء وحركة السير والازدحام. كنت أتوق إلى الغابة والأشجار وأصوات الطيور والسماء المزدحمة بالنجوم. لذلك انتقلت للعمل في ترانكيل كوف قبل أربعة أعوام. بحثت في قوائم العقارات عن منزل بنغالي بسعر معقول ليكون مساحتي الخاصة بعيدًا عن الذكريات.

لكن الماضي لم يتركني وشأني. عندما انتقلت لورين إلى هنا بحثت عن رقم هاتفي واتصلت بي. توجهتُ إلى المستشفى لمقابلتها في الكافتيريا. قالت لي وهي تجلس أمامي «أتتذكرين عندما ركبنا على متن العبّارة وتحدثنا عن الانتقال إلى هنا؟ لقد انتقلت بالفعل. بعد أن بنوا المستشفى حصلت على وظيفة في قسم الطوارئ».. لم تنتقل إلى هنا لتتبعني. لكنها قد تكون فعلت ذلك. لقد استمرت في سعيها لتجديد صداقتنا ودعوتي لتناول القهوة والمجيء إلى المدرسة لإلقاء

التحية. لطالما كان لديها سبب لتأتي، فمدرسة برين الثانوية تقع على الجانب الآخر مباشرة من المدرسة الابتدائية التي أعمل بها.

وقفتُ على الكرسي للوصول إلى الرف العلوي في خزانة غرفة نومي. ما زال الصندوق هناك ولم يُسرق. لم أنظر بالذكريات منذ زمن. بعضها حلو وبعضها مر. رميت الصندوق على الفراش وبينما كنت أقلب الغطاء دق جرس الباب.

قالت جولي وأنا أدخلها «تبدين بحالة مزرية، لستِ بأحسن حالاتك».. رمت حقيبتها على الأريكة وسحقتني بعناق كاد يقطع أنفاسي ثم تراجعت ووضعت يديها على كتفي.

قلت لها «شكرًا، تبدين مذهلة كالعادة».

«أعلم ذلك». كانت تقف أمامي وقامتها أقصر مني بمقدار نصف رأس وأنا طولي خمسة أقدام وست بوصات فقط. لكنها رغم قصر قامتها فهي تملأ حياتي. كانت ترتدي سترة بنفسجية فضفاضة وسروالا رياضيا ضيقا وحذاء طويلا، وكانت المجوهرات المبهرجة تتدلى منها. كانت جفونها ثقيلة وتملك عينا أضيق قليلًا من الأخرى، كما لو أنها تمعن النظر دائمًا. في المرة الأولى التي قابلتها فيها بالمدرسة، كان هناك صبي يصرخ عليّ في الرواق خارج مكتبي. حينها اندفعت جولي وقامت بتهدئته مثل السحر. أو كما تصفه «التعزيز الإيجابي». لغرض «تشتيت الانتباه عن فورة التحدي».. كانت تدرّس الفن لكنها تعلّمت علم النفس لتهدئة طلابها.

قالت لي «أهذا ما يحدث؟ أذهب إلى مؤتمر لأعود وأجد كل شيء ينهار؟».

«حدث شيء جيد».. رفعت يدي لأريها خاتم الخطوبة. لكن حماسي اختفى كما لو كنت جالسة في قاع حمام سباحة أحاول الابتسام عبر عشرة أقدام من الماء.

أخذت يدي وشهقت قائلة «كنت أعرف فهو مثالي. لديه ذوق رائع في المجوهرات. مبارك يا صديقتي». لكن عندما رأت تعبير وجهي اختفت الابتسامة عن وجهها. أردفت لي «يبدو أنكِ تحتاجين إلى كأس».

أجبتها وأنا ألف الخاتم على إصبعي «أو اثنين، أو ثلاثة».

خلعت حذاءها وقادتني نحو غرفة النوم وهي تقول «سأصب لكِ كأسًا من الويسكي، أو أي شيء تملكينه. فودكا؟».

«ربما شاي البابونج بدلًا من ذلك. لكنكِ بمنزلي. سأعد أنا الشاي».

«لا، لقد مررتِ بالكثير اليوم. استرخِ وأنا سأعتني بكِ. سأبيت الليلة».

«قد أشخر. أنا لا أعرف. فأنا لا أسمع نفسي».

«أنتِ لا تشخرين. صدقيني».

أفرغت حقيبتي ورميت الملابس المتسخة في سلة الغسيل بينما استمع إلى همهمة جولي في المطبخ وهي تفتح الثلاجة والخزائن. كان وقع الأصوات مريحا لأذني. عادت إلى غرفة النوم ونظرت

إلى الفوضى والصندوق على فراشي ثم قالت «لا يوجد شيء في الثلاجة. تدركين الأمر، أليس كذلك؟ موزة عطبة وبعض الجبن المتعفن فقط».

«كنت أخطط للبقاء لفترة أطول بمنزل ناثان».

«هذا ليس عذرًا». انطلقت صافرة الغلاية في المطبخ وقالت لي «سأعود فورًا».

جلستُ على الفراش وسحبت بطاقة بريدية من الصندوق وهي رسالة مفقودة من أمي مكتوب عليها Le Palais du Louvre[1] وتظهر صورًا للمتحف ولوحة موناليزا.

أحضرت جولي الشاي في كوب ووضعته فوق حطاطة على الطاولة. أخذت البطاقة البريدية مني وقرأت ما هو مكتوب بالخلف «عزيزتي ماريسا، عيد ميلاد واحد وعشرين سعيد. نحن نستمتع بإجازتنا في باريس. أحبك، والدتك. بحقك، لن تنغمسي بتلك الدراما الليلة، أليس كذلك؟ حظيتِ بما يكفي من الحزن».

أعدت البطاقة البريدية إلى الصندوق وارتشفت الشاي ثم قلت لها «أتعرفين، لا أعرف حتى عنوانها. انتقلت إلى فرنسا لكنها لم تكن في عطلة. لم تكن تخطط للعودة مرة أخرى».

«هل رأيتِ والدتك منذ ذلك الحين؟».

(١) تعني بالفرنسية قصر اللوفر أو ما يسمى حالياً بمتحف اللوفر في باريس

أجبتها وأنا أحدق بالبقعة التي خلّفتها زجاجة العطر المكسورة على الجدار «مرتين، في المرة الأولى، كان لديها عميل في سياتل. أصبحت مستشارة مالية. أو محاسبة عامة معتمدة تحت مسمى مختلف. قابلتها لتناول الغداء. كانت فكرة غبية». تنفست بعمق لأزيل الضغط عن صدري.

«لماذا كانت فكرة غبية؟».

«لقد أرادت أن تتحدث عن نفسها. ليس عن حالي أو كيف تجري حياتي لم تقل حتى إنها تفتقدني. لا، لقد استمرت بالحديث عن كيفية مناداة أوروبا لها. غادرت دون ندم. أصبحت حياتها مثيرة الآن. كانت تسافر عندما كنت صغيرة أيضا لكنها كانت تجد الوقت لتقيم لي حفلات أعياد ميلاد مدهشة ومساعدتي في أداء الواجبات. ربما كانت تكره كونها أمًا طوال الوقت. أو أنها كانت تستمتع برعايتي وغيرّت رأيها فيما بعد؟».

تحولت حواجب جولي بتعبير حزين وقالت «ستفقدين عقلك من كثرة التخمين. هي الخاسرة إذا لم تتصل وتتكلم مع ابنتها مرة أخرى».

نظرت إلى كومة الصور والأوراق في الصندوق وقلت لها «أو ربما أنا لست مثيرة للاهتمام».

«لا تقولي هذا. اتصلي بأمي في أي وقت إذا كنتِ تحتاجين إلى أم. يمكنك حتى الذهاب والبقاء معها. أنتِ تعلمين».

أجبتها مبتسمة «أنتِ الأفضل. أتمنى لو أن أبي ما زال موجودًا. كان ليسديني بعض النصائح الحكيمة في مثل هذا الموقف».. تذكرت صوته الملائكي وشعرت بألم في صدري. بعد أن غادرت أمي كان يزيف الشجاعة، لكنه جف مثل ورقة شجر بالخريف. مع مرور كل عام كان يضعف شيئًا فشيئًا بسبب غيابها حتى انهار بالنهاية. لا يمكنني حتى زيارة قبره، لكنه موجود بين الأمواج في كل مرة أنظر فيها إلى المحيط. وفي صوره. وفي قلبي. ماذا اعتقدت أمي أن يحدث له بعد أن هجرته؟ لقد كان يعشقها.

جلست جولي على الفراش بجانبي ومدّت ساقيها أمامها ثم دفعت نفسها على الوسائد وقالت لي «أنتِ بحاجة إلى الراحة فعلًا»..

نظرتُ إلى قطع صغير بسروالها وقلت «لم أسألك حتى عن المؤتمر. كيف كان؟».

مررت يدها على الغطاء وأجابتني «كان الأمر رائعًا للغاية. لقد تعلمت طرقًا جديدة للاستفادة من إبداع الأطفال. أتعرفين؟ للفن أشكال كثيرة. حضرت جلسة ممتعة حول كيفية استخدام معجون الأسنان وغسول اليدين لصنع فو باتيك[1]».

«يا للروعة. دائمًا ما تجربين الصفوف الغريبة».

«الغرابة هي شعاري. ولكن يكفي حديثًا عني. لماذا قد يسرق أحدهم فستان زفافك بحق الجحيم؟».

---

(١) نوع من أنواع الفن يتم فيه رسم لوحات بالصبغات والعديد من المواد

«ليس لديّ فكرة. أعلم أنه يبدو جنونًا. لكنني أتساءل إذا كانت برين من فعلها».

«ماذا، ماتت والدتها لذلك يجب أن تعاني أنتِ أيضا؟».

«الأمر ممكن. لا أدري».

حركت أصابعها على الفراش وقالت «لقد فقدت والدتها للتو. لماذا قد تهتم بفستان؟».

«ماذا لو كانت هي من قتل لورين؟ أعلم أن الأمر يبدو سخيفًا».

«لماذا؟ ما الذي يجعلك تشكين في ذلك؟ من المعروف أن الأطفال قد يقتلون آباءهم. ولكن مهلًا، هل تعتقدين أنها قُتلَت؟».

قلت لها «قال ناثان أن الشرطة تتعامل مع موتها على أنه حالة مشبوهة، وأنا على يقين من أنها لم تقفز. يبقى السؤال، من دفعها؟».

«هل من الممكن أن برين كانت تواجه مشاكل أعمق؟ ربما ظنت أن والديها سينفصلان وتشاجرت معهما. ربما تجادلت مع والدتها؟».

«على سبيل التخمين؛ ربما شعرت برين بتهديد من أسرتها لذلك ردّت بعدوانية. الأطفال يفعلون ذلك، أليس كذلك؟».

«ماذا تعنين بالضبط؟».

قلت لها بينما كانت أمعائي تتقلب «حسنًا، مزقت آنا صورتي. أتمنى أنها تسيء التصرف فحسب، لكن..»...

قالت جولي وهي تشبك ذراعيها فوق صدرها «الطلاق صعب على الأطفال. لكن تمزيق صورتك مرحلة خطرة. هل استبدلتك بوالدتها؟».

«ليس بعد».

«الكلمة الرئيسية هي (بعد)».

«لن يحدث الأمر. إنها طفلة صالحة».

«وتبرع في استخدام المقص أيضا. أنا أعرف هذا فهي تحضر صف الفن الخاص بي».

«لن تفعل شيئًا كهذا..»...

«على الأرجح لا. لقد رأيتها وهي منزعجة، ولكنكِ على حق فهي لم تتصرف بسوء مع أي شخص. ولكن نحن لا نعرف دائمًا فيم يفكر الأطفال مثلما نعتقد أننا نعرف»..

«آنا متقلبة المزاج. تملك شخصية معقدة».

«ويمكن للأطفال الذين لديهم ميول معادية للمجتمع أن يتصرفوا كما لو كانوا يملكون تعاطف. كنوع من التمويه كي لا نتمكن من الملاحظة».

«ماذا، هل أنتِ طبيبة نفسية الآن؟».

«أنا أقول ذلك فحسب، لقد قرأت عن هذه الأشياء. نحن لا نعرف الناس حق المعرفة».

قلت لها «آنا ليست مريضة نفسية، توقفي عن تخويفي. نحن نعرفها».

«حسنًا نحن نعرفها».

«أعني ذلك».

«نعم. نحن نعرف آنا. لكن ناثان أمره مختلف الآن».

قلت «توقفي».

ضحكت مجيبة «حسنًا. إنه رجل صالح. صيد جيد».

أكدت كلامها «إنه صيد جيد فعلًا».. عندما قابلته دخل ضوء الشمس من النافذة وأضاء قلوبنا. وفي الأسابيع التي تلت ذلك خلال مواعيدنا العشوائية وتمشيتنا في وقت متأخر من الليل والمحادثات الطويلة ربما لم نفكر في آنا بشكل كافٍ، لم نفكر في تأثير كل هذا عليها. عندما أريته الصورة ذات الحافة الممزقة لم يستطع التفسير. أو ربما لم يكن يريد ذلك. ربما لم يستطع أن يعترف لنفسه أن ابنته قد تشعر بمثل هذا الغضب تجاهي.

حتى أنا لا أستطيع أن أصدق ذلك تمامًا عندما أتذكر ابتسامتها أثناء جلسات علاج النطق حين كانت تنطق بجملة دون أن تتلعثم، وعندما صنعنا كعكات الليمون معًا وعندما أخذتها لشراء اللوازم المدرسية وأشبعت رغباتها. همست لي ذات مرة قائلة «أنتِ الأفضل يا ماريسا»..

لكن بعد ذلك، بالأسبوع التالي لم أكن الأفضل. عندما قمت بالمبيت بمنزلهم وعندما جلست بالقرب من والدها وعندما بدا لها أنني قد أنتقل للعيش معهما.

سحبت دفترا مغلفا بالقماش وأرجعت ظهري على الفراش بجوار جولي وقلت لها «هذا الدفتر قديم، يعود لعامنا الدراسي الأول بجامعة واشنطن. عندما كنت ولورين لا نزال أصدقاء».

«هل أنت متأكدة أنكِ تريدين الاطلاع عليه الآن؟».

«كتبت عنها». حتى بعد كل هذا الوقت، أشعر بوخز تحت ضلوعي عندما أقرأ خط يدي بكتاباتي غير الناضجة. ميلودراما الشباب. أردفت لها «كتبت أشياء جيدة عنها في البداية. ولكن بعد ذلك كرهتها، أردت موتها. يثير الأمر اشمئزازي الآن».

«كان لديكِ سبب وجيه». قالتها ثم أخذت الدفتر من يدي وأعادته إلى الصندوق ثم أردفت «هذا الوقت مناسب للاهتمام بذاتك وليس جلدها. فكري في المستقبل لا الماضي».

«لكن لورين ماتت. لقد رحلت بحق الجحيم. أنا من عثرت عليها. كان يجب أن ترينها. كانت مغطاة بكدمات. رأسها..»... شعرت أن صدري ينفجر كما لو أنني نسيت كيفية التنفس.

«يبدو الأمر فظيعًا، أكثر من فظيع. أوه يا ماريسا».

منعت دموعي من النزول وتنفست ببطء ثم قلت «يجب أن أحرق هذه الدفاتر القديمة. كلها».

أمسكت بذراعي وأجابتني «لا، لا تفعلي أي شيء على عجل. سيظل الماضي كما هو. كانت عواطفك حقيقية. لكنكِ لست مسؤولة عن موتها».

«ربما أنا مسؤولة. أعتقد أنها أرادتني أن أسامحها. أرادتنا أن نعود أصدقاء مرة أخرى. تلاشى الألم بمرور الأعوام. لقد نضجت وأصبح لديّ حياة والتقيت بناثان. لكن لا أعرف. جزء مني لم يتخط الأمر أبدًا. ربما لم أسامحها تماما. والآن...»...

«أفهم الأمر. ستظل علاقتك بها كما كانت».

همست «غير منتهية، مكسورة. أتمنى لو أنها كانت لا تزال موجودة حتى نتمكن من حل كل شيء وإصلاح الأمر والبدء من جديد. لكن الحياة لا تسير بتلك الطريقة، أليس كذلك؟ لا يتم حل أي شيء على الإطلاق. الحياة ليست عادلة».

«نعم، أحيانًا تكون الأمور كذلك. لكنني سأقولها مرة أخرى. لم يكن هذا خطأك».

«القول أسهل بكثير».

ظهرت رسالة من ناثان على هاتفي «هل جولي عندك؟ هل عليّ المجيء؟».

كتبت «إنها هنا. أنا بخير».

«أنا أفكر بك».

تذكرت صورة هاتفه في رأسي وعليه رسالة ريان «... عنك... لا يمكنني تحمل الأمر».. كان عقلي يملأ الفراغات. ماذا لو كانت الرسالة من شخص آخر؟ «أنا أفكر بك....لا يمكنني تحمل الأمر.».... لا قد تكون الرسالة عن أي شيء آخر «ماذا عنك... لا يمكنني تحمل هذا الطقس».

قلت لجولي «عليّ أن أقوم بالقليل من العمل، لدي مئات من رسائل البريد الإلكتروني لقراءتها».

قالت جولي وهي تقوم «سأذهب لمشاهدة التلفاز. ستُعرض حلقة جديدة من مسلسل بولدارك[1]. سأنام على الأريكة. أعرف مكان الملاءات».

كنت ممتنة لوجودها في غرفة المعيشة وصوت التليفزيون المطمئن. اطلعت على مراسلات العمل وبحثت في الإنترنت عن أخبار وفاة لورين. لكن لم يكن هناك شيء.

على الرغم من إجهادي لم أستطع النوم في البداية، كانت عيناي مفتوحتين على مصراعيهما. لكن بعد فترة غصت بأحلام عديمة الشكل.

حلمت بلورين تضحك وتصب النبيذ لناثان. تفيض كأسه ويتحول الميرلو إلى دم يغرق مفرش المائدة. لورين تبتسم ثم تقول «أحتاج إلى التحدث معكِ».. ثم أصبحنا على الشاطئ وكانت تمد لي مجرفتها. شعرها الداكن يطير حول وجهها. كانت تدفع بلسانها

(١) مسلسل تليفزيوني بريطاني يحكي حقبة تاريخية.

عبر ثقب حيث فقدت سنتها الأمامية. كم عمرنا؟ سبعة؟ نضيف عصي من الخشب حول قلعتنا الرملية لتشكيل خندق. لقد أنشأنا عملًا فنيًا، لكن عندما استدرت اختفت لورين. زاد الذعر بداخلي. تمتد الأمواج وتقترب من الشاطئ خادشه قدمي. أراها على بعد عدة ياردات مرمية على الأرض وأطرافها متناثرة. قالت لي «تركتِني أسقط»..

استيقظت منتفضة وغارقة بعرقي وتبخر الحلم. كانت أشعة الشمس الصباحية تتسرب إلى الغرفة. ارتديت ردائي وذهبت نحو المطبخ. كانت جولي قد أعدت القهوة بالفعل وتجلس في زاوية الإفطار وهي تطلع على الصحيفة وشعرها في حالة من الفوضى. كانت ملابس نومها فضفاضة للغاية ومرسوم عليها صور لبلدان العالم.

«مرحبًا أيتها الغريبة». قالتها وهي تنظر إليّ.

«شكرًا لكِ على المبيت. اشعر بالسوء».

«ستساعدك جرعة جيدة من الكافيين بالتحسن، انظري». قالتها وهي تعطيني الصحيفة وتشير إلى مقالة قصيرة عن وفاة لورين، كانت المقالة غير شخصية وموضوعية.

سقطت امرأة تبلغ من العمر ٣٦ عامًا على ما يبدو من فوق هاوية بالشاطئ الغربي. تم التعرف عليها، وهي تدعى لورين إكلوند من ترانكيل كوف بواشنطن. وصرح نائب رئيس الشرطة أنه تم إرسال الجثة إلى مكتب الطب الشرعي بمقاطعة كينج حيث سيتم إجراء

تشريح الجثة. ومن المتوقع أن تظهر نتائج فحص السموم في غضون بضعة أسابيع...

قلت «نتائج فحص السموم، ماذا قد يكون بجسدها غير الكحول؟».

«مضادات الاكتئاب ربما؟ لا يوجد تفاصيل عن التحقيق».

أجبتها «لن يخبروا الجمهور».

صببت كوبًا من القهوة ونظرت خارج النافذة المفتوحة. كان الهواء البارد يلوح بالداخل، وكل صوت كان حادا ومكبرا. الريح وهي تمر بين الأشجار والنقيق من الأفق وهو يختلط الآن مع نغمة رنين هاتفي. إنه المحقق.

قال لي بصوت غير رسمي وودود «سيدة بارليت، تلقيت رسالتكِ للتو. في المرة القادمة اتصلي على هاتفي الخلوي».

أجبته «اعتقدت أن هذا رقم هاتفك الخلوي. أعتقد أنني أعرف من اقتحم منزلي».

نظرت جولي إليّ وهي ترفع حاجبها الأيمن. حركت شفتيّ بصوت صامت لتقرأ كلمة المحقق. أومأت بعينين واسعتين وأكملت ما تفعله.

قال لي «هل بإمكانكِ القدوم لقسم الشرطة؟».

«الآن؟ لكن اليوم هو الأحد. ألا تذهب إلى الكنيسة أو شيء من هذا القبيل؟».

تجنب سؤالي وأردف «يمكننا الالتقاء. أرغب في معرفة ما تفكرين به، وأود أن أطرح عليكِ بعض الأسئلة الإضافية».

نظرت حولي بالمطبخ المليء بالضوء والظلال بسبب الغابة المحيطة. هناك شق في خشب طاولة الإفطار. لا أعرف كيف حدث.

«سآتي إلى القسم». قلتها ثم أغلقت الهاتف وتجرعت ما تبقى من قهوتي.

سألتني جولي وهي تلف الكوب بين كفيها «ما الأمر؟ تبدين شاحبة».

تذكرت المحقق في غرفة المعيشة بمنزل ناثان. كان نظره يتحول إلى يدي الملطخة بالتراب أو بالدم. ويكتب بقلمه على مفكرته. وفريق الطب الشرعي على الشاطئ بالأسفل يجمعون الأدلة. ماذا يريد أن يعرف مني أكثر من ذلك؟

«لا شيء، أعتقد أن المحقق يعرف أكثر مما يدعيه فحسب».. عانقتها بسرعة وأردفت «أحتاج أن أرتدي ملابسي وأذهب للتحدث معه».



الفصل الثامن عشر

في الطريق إلى المدينة شعرت بالقلق وضيق التنفس. وكان الضباب يأتي من البحر مغطيًا المباني القديمة المبنية من الطوب بكفن مشؤوم من اللون الرمادي. مررت بمتجر ريان؛ آفترلايف كونسيجمنت[1] ذي الواجهة التاريخية والذي يعود تاريخ تأسيسه إلى عام ١٩٢٩. تذكرت لورين وهي تسير معي بجوار الواجهة «لقد تزوجت مرتدية فستانًا كهذا». قالتها وهي تشير إلى فستان زفاف أبيض عتيق يزين تمثالًا بلا رأس. لقد وضعت الملح بجرحي دون قصد لكنني ابتسمت. أرتني خاتم زفافها المرصع بالماس. أخبرتني كل شيء عن حضور الاشبين في حالة سكر وكيف انهارت والدتها بالبكاء وتعديلها للفستان لإخفاء بطنها الحامل. لكن في النهاية تمت مراسم الزفاف بشكل جميل دون سقوط قطرة مطر على الرغم من أن توقعات الطقس كانت تنذر بعاصفة في ذلك اليوم بأول شهر مارس. وأثناء تجاذب أطراف الحديث معها كنت مندهشة أنني شعرت بالقليل من السعادة لها. شكلت أعوام العزلة فرقًا. تذكرت ناثان وارتسمت ابتسامة على وجهي. ذكريات أبقيها سرًا.

(١) تعني بالإنجليزية بضاعة الحياة الآخرة

انعطفت نحو طريق أوفرلوك حيث يلوح قسم شرطة ترانكيل كوف ذو الطابقين بالأفق فوق التل. يبدو الطلاء جديدًا باللونين البنفسجي والذهبي وكانت النوافذ مستطيلة الشكل تعكس أشعة الشمس الخريفية النادرة. كانت الأمطار الأخيرة تتبخر من السقف المعدني.

أوقفت السيارة في ساحة انتظار السيارات وأصابعي تشد على عجلة القيادة. تنفست بعمق وخرجت من السيارة. فتح المحقق هاردينج الباب عندما اقتربت من المدخل الزجاجي. بدا وكأنه قد حلق شعره ولحيته لتوه. قادني إلى صالة مفتوحة حيث تلمع الأرضية ويغطيها بلاط رمادي كبير يمتد بعيدًا حتى رواق واسع على جانبيه توجد مكاتب ذات أبواب زجاجية. يبدو أنه لا يوجد أحد هنا.

سألني وهو يبتسم «أتريدين القهوة؟».

«شربت اثنين هذا الصباح. سأطير عبر السقف إذا حظيت بالمزيد».

«لا نريد المزيد من إصابات الرأس».

ابتسمت على الرغم من أن روحه الفكاهية المريضة أراحتني قليلًا. تبعته عبر الرواق إلى قاعة مؤتمرات تحمل لافتة «مقابلات».. مصابيح الفلورسنت العلوية كانت تلقي ضوءا رماديا على كرسيين مكتبيين ذوي مسندين عاليين، يحيطان بطاولة مستطيلة.

قال وهو يشير إلى كرسي «فلتجلسي».

جلست وأنا أحاول أن أجد نقطة محورية للتركيز عليها لكن الجدران كانت عارية. نظرت خارج النافذة إلى أشجار النغت المتمايلة بالنسيم. قلت له «أشعر بالغرابة لمجيئي هنا. لم أذهب أبدًا إلى قسم شرطة. لم يكن لدي أي سبب للذهاب».

«الآن تملكين سببا». قالها ثم أخرج المفكرة وقلم الرصاص من جيبه ثم وضع المفكرة على الطاولة.

سألته وأنا أبحث عن جهاز حولنا «هل تحتاج إلى تسجيل كلامنا؟».

سألني دون أن يرمش «هل تريديني أن أفعل ذلك؟».

«لا، ليس فعلًا».

«أنتِ تقولين أنكِ تعرفين من قد يكون اقتحم منزلك؟».

«من المحتمل أن تكون ابنة لورين، برين. لكنها حزينة. لا أريد رفع أي قضايا».

«لماذا تعتقدين أنها الفاعلة؟».

«رأت جارتي سيارة دفع رباعي هوندا فضية على الجانب الآخر من الشارع. لورين تملك سيارة دفع رباعي هوندا فضية. صدفة؟ ربما. واختفى الفستان من منزلي، فستان خاص أعطته لي لورين منذ أعوام. أمتلك صورة ترتدي فيها الفستان. صعب شرح الأمر».

«إذًا تعتقدين أن برين أرادت الفستان. لماذا؟».

«أثناء العشاء، ذكرت أنني أريد ارتداء الفستان في حفل زفافي. تذكرت لورين إعطاءه لي. لكن كان هذا منذ زمن بعيد وبعدها توترت علاقتي بها وتوقفنا عن الحديث».

«هل تشاجرتما بسبب الفستان؟». سألني دون أن يرمش. أتساءل عما إذا كان يرمش أصلًا.

شعرت بألم حاد في ضلوعي بتذكري للخيانة وأنا أقول له «ليس بسبب الفستان، لا. شجار سخيف بالكلية».

أرجع ظهره ودق بقلمه على الطاولة قائلًا «حسنًا».

«بدأنا نتحدث مرة أخرى وكنا نذهب لتناول القهوة في الآونة الأخيرة كما قلت من قبل».

تذكرت الخريف الماضي عندما قالت لي «اغفري لي، سأشتري لكِ كعكة الجوز والموز من مخبز ترانكيل كوف. لنبدأ من جديد. لقد اشتقت إليكِ». كانت عيونها تلمع بالأمل وقد حبست أنفاسها كما لو أن مستقبلها بالكامل يعتمد على إجابتي. وافقت على مقابلتها. كنت أرغب في أن تعود المياه إلى مجاريها. عندما وصلت إلى المنزل في ذلك اليوم اطلعت على صور قديمة كانت تبتسم بها لورين وأنا أطفئ شموع كعكة عيد ميلادي، وصورة أخرى كنا نسبح بها في حمام سباحة الأطفال، وأخرى ونحن نلطخ بها وجوهنا بأحمر شفاه والدتها، وأخيرة كنا نلوّن فيها خارج الخطوط.

سألني المحقق ليحثني على تكملة كلامي «إذًا، عدتم أصدقاء مرة أخرى؟».

أجبته وأنا آخذ نفسًا عميقًا «لقد كنا نعمل على ذلك. أثناء العشاء عندما أعلن ناثان خطبتنا وأريت الجميع صورة للفستان، كانت لورين تحمل نظرة حنين على وجهها. تذكرَت كل شيء عن الفستان. وقد غادرت في وقت مبكر لتوصل برين من حفل. ربما أخبرت برين بأمر الفستان ثم أتت برين لتأخذه؟».. حتى وأنا أقول هذا أعلم أنه احتمال مستبعد.

- «من دون دليل على وجود برين في منزلك..»...

- «لا أريدك أن تتهمها بأي شيء».

- «هل الفستان يناسب مقاسها؟».

- «لا أدري، ربما».

- «هل لديها أي تاريخ من السرقة؟ سرقة المتاجر؟».

- «لا أدري».

- «هل تكرهكِ لسبب ما؟».

- «لست متأكدة من أنني أعرفها جيدًا»..

«يبدو وكأن اقتحام منزلك وسرقة الفستان فعل عدواني. هل كل ذلك لأن والدتها كانت ترتديه بيوم من الأيام». كان يحمل نظرة شك عابرة وهو يقترح.

«قالت لورين إن كل شيء يبدو وكأنه نهاية العالم بالنسبة إلى برين».

قال لي «لدي ابنة مراهقة تعيش مع والدتها. ويمكنني تأكيد قول لورين».

إذًا فهو متزوج، سألته «هل ترى ابنتك؟».

بدا على عينيه وميض من الحزن وأجابني «كل فترة. بالصيف وعطلات عيد الميلاد. أرغب في رؤيتها أكثر من ذلك لكنه ليس خياري».

«هل تعيش بالقرب منك؟». كنت أسأله وأنا مندهشة أنه شاركني أمرًا شخصيًا. لكن هذا ما يفعله المحققون، أليس كذلك؟ يكشفون عن أجزاء من حياتهم الخاصة ليطمئنوا من يتم استجوابهم ثم يحصلون منهم على المعلومات.

أجابني «ليس بعيدًا. إنها تفضّل منزل والدتها. فهما متفاهمتان معظم الوقت. لديهما خلافاتهما لكنها لا تؤدي إلى القتل».

وقعت كلماته كأثر سكين طعنني به. قلت له «أنا لا أقول أن برين فعلت أي شيء لوالدتها... لكن شخصا ما قتل لورين، أليس كذلك؟ أريد أن أعرف من فعل ذلك، لأن لورين كانت تحب الحياة، لم تكن لتنتحر».

«ما الذي يجعلك تعتقدين أن أحدهم قتلها؟».

أخبرته عن محادثتي مع آرثر حول ما رآه. وعن منامة آنا الرطبة وهروبها إلى منزل الشجرة «لا يمكنني التأكيد أنها رأت شيئًا ما، لكن ربما رأت. لا بد أنه كان هناك شخص آخر. لكنك تعلم هذا. هل تحدثت مع آنا عندما كنت في المنزل؟».

أجابني قائلًا «لقد تحدثت معها لفترة وجيزة، لكن لم يبدو أنها تعرف أي شيء. هل لديكِ أي فكرة عمن قد يرغب بإيذاء لورين؟».
وضع المحقق القلم على المفكرة وأرجع ظهره على الكرسي ليقيّمني.

- «أنت تستجوبني، أليس كذلك؟».

- «هل كانت لورين على وفاق مع زوجها؟».

- «لقد بدوا بخير. كانت تغازل رجالا آخرين لكن...». تذكرت لورين وهي تميل نحو ناثان لتملأ كأسه أثناء العشاء ثم أردفت «جنسن لم يكن ليؤذيها».

- «لم تذكر أي مشكلة في زواجها؟».

- «لا، ليس على حد معرفتي. هل أخبرك جنسن أن هناك مشاكل؟».

تذكرت وجه ناثان ليلًا وهو مضاء بشاشة هاتفه وتقلبت أحشائي.

- «أود أن أعرف انطباعك».

- «يبدو جنسن وكأنه يعشقها. هل هو مشتبه به؟ إنه حزين للغاية. لا أستطيع تخيل ذلك».

- «يعمل كطيار ويغادر لعدة أيام، أليس كذلك؟».

تشبث الألم في جبهتي بينما أجيبه «ذكرَت لي لورين جدول عمله، قالت إنه ينام في ساحة خردة طائرات في سان فرانسيسكو. يقيم هناك رغم أنهم يعيشون أو كانوا يعيشون هنا».

- «هل يهبط بالطائرة ويبيت هناك؟».

- «نعم، في مخيم مع طيارين آخرين، ثم يطير من سان فرانسيسكو لبضعة أيام».

التقط القلم وأخذ ينقر الممحاة على مفكرته ثم سأل «كيف كانت علاقة الآخرين الذين حضروا العشاء بلورين إكلوند؟ خطيبك ناثان؟ شقيقه كيث؟ هيدرا؟».

تذكرت كيث وهو ينظر لفستان لورين. كان يمد يده ليمسك بيد هيدرا وهي تسحبها بعيدًا. وفي الخارج عندما ألقت لورين نظرة خاطفة نحو نافذة غرفة الطعام التي ينبعث منها الضحك. قالت لي «أحتاج إلى التحدث معكِ».. تذكرت أيضا ناثان وهو يرتدي ثيابه ويتسلل بعد الساعة ٢:٠٠ صباحًا، لا كانت ٢:٠٥ صباحًا.

أجبته «كيث وهيدرا يعرفان لورين كمعارف عاديين».

- «وناثان؟».

- «جيران. هذا كل ما في الأمر».

وضع المحقق القلم على المفكرة وأرجع ظهره إلى الخلف ثم وضع كوعيه على مساند الكرسي ورفع أصابعه وقال «إذًا اشترت هي وزوجها المنزل المجاور لناثان بلاك بمحض الصدفة».

«لقد أرغمت جنسن على ذلك. كان سوق العقارات متوقفا. وهي أحبت المنزل». بدّلت جلستي. فساقي اليسرى قد بدأت بالتخدر ثم أردفت قائلة «تحدثنا عن ذلك عندما كنا صغارًا. لطالما أردت أنا ولورين منزل من جذوع الشجر. اعتقدَت أنها إذا اشترت هي وجنسن المكان، فقد نرى بعضنا البعض أكثر».

«كنتِ على علاقة بجنسن في الماضي، صحيح؟».

دفعني السؤال نحو الخلف كعاصفة من الرياح المفاجئة وبدأت يدي في التعرق ثم أخفيتهم بحجري أسفل الطاولة.

أجبته «كان ذلك منذ زمن طويل».. كيف عرف المحقق بالأمر؟ لا بد أن جنسن أخبره. ولكن كيف جاء اسمي في المحادثة؟

مال المحقق إلى الأمام مرة أخرى والتقط القلم الرصاص، ثم كتب شيئًا ما على المفكرة ونظر إليّ سائلًا «هل كنتِ ترغبين في العودة إليه؟».

قبضت يدي على حجري بينما كان النور العلوي ساطع للغاية ثم جاوبته «لماذا قد أرغب بذلك؟ أليس لديك حبيبات سابقات؟ أليس لدينا جميعًا علاقات تركناها خلفنا؟».

دق بقلمه على المفكرة وأرجع ظهره مرة أخرى بينما كانت عيناه تحمل القليل من الدهشة ثم قال لي «أنتِ تجيبين عن سؤالي بسؤال آخر».

«إجابتي هي أنني كنت على علاقة بجنسن إكلوند، لكنني لا أرغب في أن أكون معه مرة أخرى. أنا وناثان سنتزوج». شعرت حينها برغبة مفاجئة في الخروج مسرعة من هنا.

«لكنكِ ما زلتِ تحبين جنسن بما فيه الكفاية لدعوته هو ولورين إلى عشاء مهم. حدث كبير مثل خطوبتك».

«كنت أعتقد أنه يمكننا التعايش مرة أخرى. كنت آمل ذلك».

«حسنًا». قالها وهو يدق بأصابعه على الطاولة. تنفس من فمه ليخرج الهواء نحو الأعلى محركًا شاربه.

سألته وأنا أقوم بقدمي المرتعشة «هل هذا كل ما في الأمر؟».

«حتى الآن، ما لم يكن لديكِ المزيد من الأسئلة لي».

نظرت حولي بالغرفة حيث لا تبوح جدرانها الخالية بأي أسرار. وكانت عيون المحقق خالية من التعبير مثل الغرفة. سألته «لن تخبرني بما تفكر فيه، أليس كذلك؟».

قام وأرشدني نحو الباب قائلًا «لا يمكنني التعليق على تحقيق جارٍ».

«أنا ولورين كنا أصدقاء مقربين منذ زمن طويل. ورغم اختلافنا فهي كانت تعني الكثير بالنسبة لي. ويهمني معرفة ما حدث لها».

«سأخبرك بمجرد أن أجد أي شيء يمكنني مشاركته».

هرعت إلى ساحة انتظار السيارات وجلست في سيارتي أتنفس بعمق. حاولت إقناع نفسي أنه كان يقوم بعمله فحسب حين خاض بالماضي وعلاقتي بجنسن. ما حدث في الكلية لا علاقة له بالأمر. ما يهم هو ما كانت تفعله لورين بالخارج ليلًا وهي تمشي بالقرب من الهاوية. حاولت إبعاد صورتها من رأسي حيث كانت على الشاطئ شعرها يطير في مهب الريح ورأسها ملتوية بزاوية غريبة. استحضرت صورة مهدئة للبيانو الخاص بي ونباتاتي ومنظر الغابة المتمايلة من نافذة مطبخي. أغمضت عيني وأخذت أنفاسًا عميقة وثابتة وأنا أعد في رأسي، واحد، اثنان، ثلاثة...



الفصل التاسع عشر

بينما كنت أقود السيارة بعيدًا عن مركز الشرطة نظرت عبر المطر على الطريق أمامي محاولة التركيز على الخطوط البيضاء. لكن الأعوام مرت وتذكرت العودة إلى الشقة التي كنت أشاركها مع لورين في الجانب الشمالي من الحرم الجامعي. حام نسر أصلع في السماء فوقي وشعرت أنا الأخرى بأن وزني يخف مثل الريشة. كنت أفكر بجنسن، بالطريقة التي كنا نقترب فيها من بعضنا البعض ونحدد حجم عائلتنا المستقبلية. إذا عاد لي الآن وطلب مني العودة بالزمن لمدة سبعة عشر عامًا للزواج منه سأرفض. لكن لا يمكنني نسيان الأمر حتى الآن.

أوقفت سيارتي بجانب الرصيف واتصلت بناثان.

قلت له بمجرد أن أجاب هاتفه «أنا فقط أحتاج لأن أسمعك تتحدث».

«صوتك يبدو وكأن حافلة صدمتك. هل أنتِ بخير؟».

«أنا بخير. استمر بالتحدث فحسب. كما اعتدت».

«عندما التقينا للمرة الأولى؟».

«نعم، هكذا».. أغمضت عيني وتشبعت بصوته الموسيقي. لم يدم الأمر طويلًا كما لو كان جزء مني ينزلق بعيدًا نحو الماضي.

«احزمي أمتعتك وعودي إلى منزلي. أنتِ لستِ بأمان في منزلك».

«هل أنت هناك الآن؟». سألته وأنا أمسك بهاتفي بإحكام شديد.

«لا، لكنني سأكون هناك. منزلي هو منزلك أنتِ تعرفين ذلك. لديكِ مفتاحه».

«المنزل سيئ بدونك».

قال ضاحكًا «ماذا ستفعلين عندما نعيش معا؟».

«ستكون في المنزل طوال الوقت، أليس كذلك؟».

«هذه خطتي بنهاية المطاف».

عبرت شاحنة بجانبي واهتزت سيارتي قليلًا. يبدو هذا القفص المعدني وكأنه غير صلب وقد يتم سحقه بسهولة بالغة. قلت له «قابلت المحقق، وتذكرت...أمورا».

«أي أمور؟ ليس عليكِ الإجابة عن أسئلته». سمعت أصواتًا ومحرك يدور في الخلفية.

«كانت فكرتي أن أتحدث معه. أنا بخير. الأمر فقط.»...

شعرت بالحدة في لهجته وهو يسأل «ماذا؟ ما الأمر؟».

«هل تذكر الليلة الأولى التي أمضيناها في سياتل عندما شعرنا بالنزوة وسرنا في شوارع وسط المدينة ثم قمنا بالمبيت في هذا الفندق الرديء؟».

خفت حدة لهجته وقال لي «كيف لي أن أنسى؟ ماذا كان اسم هذا النادي الليلي؟».

«لا أتذكر. كل ما أتذكره هو كيف كانت الفودكا قوية وكأنها مصنوعة من الكحول الصافي. لا أستطيع أن أصدق كيف كنت ثملة لهذه الدرجة».

«كنتِ فقط ثملة قليلًا. لكن أعجبني الأمر. لقد حظيت بمرح لم أحظَ به منذ وقت طويل».

قلت له «لقد صنعنا بعض الذكريات الجيدة».

«وسنصنع المزيد... قد نعود إلى هذا الفندق كالأيام الخوالي».

«كانت المرتبة هشة والوسائد مسطحة».

«لم ألاحظ. لا يهم الفراش عندما أكون معكِ».

ابتسمت، فهذا ما كنت احتاجه. سألته مداعبة «هل تنام معي على فراش من المسامير؟».

«بالتأكيد، لكنكِ تحتاجين إلى فراش ناعم. فأنت مثل الأميرة وحبة البازلاء[1]».

---

(١) قصة أدبية خرافية للكاتب هانز كريستيان اندرسن تحكي قصة أميرة لم تستطع النوم فوق عشرات المراتب لأنه كان هناك حبة بازلاء تحتهم كناية عن رغد عيشها.

- «أنت محق».

- «حسنًا، ما الأمر يا ماريسا؟».

- «كنت بحاجة لسماع صوتك فحسب».

- «أنا آسف بشأن تعرض منزلكِ للسرقة. أنا آسف بشأن لورين. أنا آسف بشأن الفستان».

- «إذا لن أستعيده أبدًا...»...

- «سوف ترتدين شيئًا آخر، وسنتزوج رغم ذلك».

قلت له «أنا أعلم».

قال لي «أحبك بجنون».

«وأنا أحبك أكثر جنونًا».

أغلقت الهاتف وسحبت الصورة من جيبي. صورتي أنا ولورين وجنسن في المطعم منذ فترة طويلة. كانت لورين ترتدي الفستان الأزرق. أخذت الصورة إلى قسم الشرطة لكنني لم أرِها للمحقق. كنت سأرتدي الفستان في يونيو الماضي ليلة حفل الباليه لآنا عندما بدأت أنا وناثان المواعدة. ولكن في النهاية اخترت بدلة بسروال أكثر تحفظًا. حلمت بالعديد من الحفلات ومسابقات الإملاء والنزهات مع ناثان وآنا. ولكن بعد العرض اندفعت آنا نحوي فاتحة ذراعيها ثم انحرفت في آخر لحظة وركضت لتعانق والدتها.

كانت ريان تشاهدها من الصف الخلفي مبقية على مسافة بيننا. كانت مع رجل لا أتذكره ربما حبيبها، بالكاد أتذكر أي شيء عنه. أتذكر فقط نظرة الارتياح على وجهها عندما عانقتها آنا.

وضعت الصورة في جيبي مرة أخرى وانطلقت نحو الطريق. لكن بدلًا من العودة إلى منزلي اتجهت خارج البلدة على طول الطريق المتعرج إلى منزل ناثان في طريق سيداروود. أوقفت السيارة في الممر وأسرعت نحو الباب الأمامي لمنزل آل إكلوند. قرعت الجرس وأصدرت نغمته صدى من خلال الغرف لكن لم يفتح أحد. كانت سيارتهم الهوندا الفضية موجودة في الممر. قرعت الجرس مرة أخرى. لكن لم يجب أحد مجددًا. توجهت إلى منزل آرثر نجوين وقرعت الجرس. خرج على الشرفة وبيرت بين ذراعيه يهز ذيله. كانت رائحة التبغ تفوح وكان آرثر يرتدي القبعة ونظارات قراءة سميكة مسنودة على أنفه. بينما ربتّ أنا على رأس بيرت.

قال آرثر «ماريسا، أتريدين الذهاب لصيد السمك؟ البركة ممتلئة».

«لا، شكرًا. أردت أن أسألك عما قلته من قبل. لم تتح لي فرصة التحدث معك. كنا قلقين بشأن آنا».

قال لي وهو ينظر نحو منزل ناثان «كانت في منزل الشجرة، أليس كذلك؟».

- «كنت على حق. شكرًا».

- «أطفالي كانوا يحبونه، خاصةً ابنتي الكبرى. ستذهب إلى بيركلي هذا العام بمنحة دراسية».

- «لا بد أنك فخورًا بها».

- «أوه لطالما كانت المجتهدة بينهم. كانت تسهر لساعات متأخرة لتحصل على علامات عالية».

- «بالحديث عن السهر لساعات متأخرة، قلت إنك رأيت شخص ما بالخارج ليلة الجمعة مع لورين؟».

- «ما رأيته كان ظلا. ظننت أنني سمعت أصواتًا لكنني لم أعر الكثير من الاهتمام. أدركت في الصباح عندما جاء المحقق أنني ربما رأيت قاتلًا ولم أكن أعرف، أو ربما لم يكن هناك شيء. من يدري؟».

- «سمعت بيرت ينبح. هل كان ينبح على الظل؟».

- «لا أعرف، لكنه كان غاضب جدًا».

تلوى بيرت بين ذراعيه وقفز إلى الأرض وهو يهز ذيله ثم اتجه نحوي ليلعق يدي. قلت «أنت كلب جيد يا بيرت وتنذر الحي عند الخطر».

قال آرثر «هذا كلبي».

«بيرت لا ينبح عادةً على أشخاص يعرفهم. أليس كذلك؟».

أجابني آرثر بعد تفكير «ينبح إذا شعر بوجود خطب ما. كما ينبح على السناجب والأرانب. لكنكِ على حق. عندما يتعلق الأمر بالناس ينبهني بوجود المتسللين أو الغرباء».

«إذًا إما كان هناك شخص غريب يتجول بالجوار أو أنه كان يطارد حيوانات برية. هل سمعت أي شيء آخر بخلاف نباحه؟ ربما جدال؟».

«لا أدري. لم أكن أعر الكثير من الاهتمام. كان بيرت يريد قضاء حاجته وكنت بحاجة للعودة إلى النوم. أتمنى لو أستطيع أن أكون أكثر عونًا».

«لقد كنت عونًا كبيراُ. شكرًا».

«لا عليكِ، سأبذل ما بوسعي للمساعدة».

في طريقي إلى سيارتي صعدت إلى ممر منزل آل إكلوند ومن ثم إلى الباحة الخلفية. أعلم أنني تعديت حدودهم مرة أخرى لكن يبدو أن هناك أحد في المنزل. اتجهت نحو شرفة المراقبة حيث يوجد شريط مسرح الجريمة والذي يمتد مثل شريط الحفلات بطول عشرين قدمًا بين شجرتي تنوب عاليتين.

انحنيت عكس اتجاه وأنا أتبع الحدود وأنظر إلى الأرض والتراب والعشب ومنطقة مسطحة تؤدي إلى شجيرات متشابكة ومتشبثة بحافة الهاوية. شجيرات من ثمر الورد البري باللون الوردي. هناك وجدت آثار أحذية على التربة. هل تعود للورين؟ أو لشخص آخر؟ على كل من جانبي آثار الأقدام تنمو نباتات الردندرة بارتفاع ثمانية أو تسعة أقدام. إن لم يكن هناك فروع شجرة التنوب لكان المطر قد جرف آثار الأقدام.

هناك خطب ما. ألقيت نظرة عن كثب على نباتات الردندرة. الفروع مكسورة، تم قطعها في ارتفاع الصدر. لا بد أن الشرطة قد رأت هذا. يبدو الأمر كما لو أن شخصًا ما قد تمسك بالفروع حتى لا يقع.

تراجعت وكان معدل تنفسي يزداد. كانت لورين تكافح وتتشبث بتلك الفروع. هرعت عبر الباحة وهبطت على السلم إلى الشاطئ. تتبعت خطواتي إلى المكان الذي عثرت عليها فيه. أو بالقرب منه. لا أستطيع التأكد من المكان بالتحديد. لا يوجد شريط هنا، لا علامات، لا شيء. ارتفع المد نحو الشاطئ ثم انحسر تاركًا وراءه أصدافا وحصى جديدة. هنا، بالقرب من هذا النتوء. هذا هو المكان الذي رأيتها فيه.

نظرت للأعلى نحو المنحدر. من المستحيل معرفة ما حدث في الأعلى. تبرز جذور المادرون والأشجار حيث تتآكل التربة الناعمة بواجهة الهاوية. لا بد أن الصخور هبطت مكدسة الركام بالأسفل.

تساءلت عما حدث للورين. ركعت ومررت أصابعي في الرمال. لا توجد علامة على أنها كانت هنا على الإطلاق. مشيت على خط الماء وأنا أمعن النظر بهذا الشاطئ المهجور حيث تجرف المياه أشياء غريبة مثل الأصداف والطيور البحرية في بعض الأحيان وسرطان بحر مقلوب والمحار البنفسجي والفضي في كتل. لمحت مخلوقا من الريش لونه أحمر في المياه الضحلة على حافة صخرة. كان قنديل بحر شفافا يتخبط على الرمال، لكني لم أشهد واحدًا بهذا اللون أبدًا. مع اقترابي رأيت وميضا أحمر لشيء يلمع.

شيء من صنع الإنسان. زجاج أو معدن. انحنيت لإلقاء نظرة عن كثب. المادة الحمراء عبارة عن مجموعة من النسيج الرقيق المغطى بالماء. ربما وشاح. كان هناك زر معدني يلمع في أحد الطرفين مطبوع عليه صورة ورقة شجر.

نظرت حولي لكن لم أجد على طول الشاطئ سوى عشب البحر والأصداف المكسورة والأخشاب على الرمال. كيف وصل الوشاح إلى هنا؟ هل من الممكن أن يكون للورين؟ هل من الممكن أن تكون قد فقدته في طريقها إلى الأسفل؟ لكنها لم ترتدي الأوشحة أبدًا. لم تكن تحب أن تشعر بالقماش حول رقبتها. هل من الممكن أنها انتزعت الوشاح من شخص آخر؟ أو هل كان شخص ما هنا على الشاطئ منذ صباح أمس؟ أخرجت هاتفي واتصلت بالمحقق.

سألني «هل لمستِ الوشاح؟».

- «لا، لكنه في الماء. معلق بصخرة».

- «سآتي حالًا. هل هناك احتمال أن يطفو بعيدا؟».

- «المد يزداد».

- «راقبيه».

أراقبه؟ حتى يصل الماء إلى ساقي وأغرق؟ حتى تتصادم الأمواج بالجرف؟ المد يرتفع إلى هذا الحد بين الحين والآخر. يتحرك الوشاح جيئة وذهابًا في الماء كما لو كان حيًا.

بعد عشر دقائق أتى المحقق مسرعًا عبر السلم مرتديًا معطفه الأسود الطويل. شعرت وكأنني كنت أنتظر لأيام. أخذ الوشاح بيده

الذي ارتدي فيها قفازًا ووضع القماش المترهل في كيس أدلة ثم سألني «هل وجدتِ أي شيء آخر؟».

نظرت نحو الهاوية وقت له «مشيت نحو الشريط الأصفر. لم أعبر الخط لكنني رأيت الفروع المكسورة بمستوى الصدر بالقرب من آثار الأقدام. أعتقد أنك سجلت كل ذلك كدليل».

«نحن لا نتغاضى عن الكثير، ولا أنتِ كذلك. أتريدين العمل لصالحنا؟».

اسرعت متبعة إياه عكس اتجاه الريح وأجبته «كانت تتشبث به، أليس كذلك؟ كانت تحاول. قبل أن تسقط من الحافة».

«نحن نحاول معرفة ما حدث». قالها وهو يلف رأسه نحو الخلف لينظر في وجهي بينما كان يصعد السلم درجتين بالخطوة الواحدة.

أسرعت للحاق به وقلت له «هذه إجابتك النموذجية، أنت تعرف أن الوشاح دليل وإلا لم تكن لتأتي إلى هنا».

أجابني «هل قلت ذلك؟». وكان يخطو على طريق مائل عبر العشب وكأنه يريدني أن أغرب عنه فورًا.

«رأيت النظرة على وجهك». قلتها وأنا أتبعه إلى سيارة الصالون السوداء الخاصة به التي أوقفها عند الرصيف.

«أي نظرة؟».

«تركيز حاد. كأنك وجدت شيء مهم».

أجابني «كل شيء مهم».

«لم تكن ترتدي الأوشحة، أنت تعرف».

«عمن تتحدثين؟». قالها وهو يضغط على زر في سلسلة مفاتيحه. أضيئت المصابيح الأمامية لسيارة الصالون وأصدرت الأبواب صوت الفتح.

«لورين. لم تكن ترتدي الأوشحة أو القلادات أو الياقة الطويلة. كانت تقول إنها تشعرها وكأنها تتعرض للخنق. لا يمكن أن يكون الوشاح لها».

«من الجيد معرفة ذلك».

«إذًا من أين أتى؟ هل من الممكن أن تكون قد انتزعته من أحد؟ من أيًا كان من دفعها؟».

قال وهو يدخل السيارة «كل شيء ممكن»..

«إذا أتى الوشاح من مكان بعيد فقد يتآكل أو يبهت لونه. ما الاحتمالات؟».

نظر إليّ بتعبير غريب في عينيه وقال «أخبريني أنتِ. يبدو أنكِ تعرفين كل شيء».

«هل يمكنك إجراء اختبار الحمض النووي على الوشاح؟».

«يصعب استخراج الحمض النووي إذا كان الدليل غارقا في الماء المالح لفترة طويلة. إذا مر هذا الوشاح على عدة مالكين.»...

«ستكون هناك أحماض نووية مختلفة على النسيج».

رفع حاجبيه وقال «ممكن».

«لن تخبرني بما تفكر فيه، فماذا بوسعي سوى التكهن؟ كانت صديقتي. وسقطت من الهاوية، وتشبثت بالفروع، والآن ها هو الوشاح. أعتقد أنه كان هنا طوال الوقت، لكنك لم تلاحظه».

قال لي «هذا محتمل، أتمنى لك يومًا سعيدًا يا سيدة بارليت. حاولي أن تنالي قسط من الراحة».

بينما كنت أشاهده وهو يبتعد شعرت بأنني أريد أن أركض خلفه وأطرق على النافذة للحصول على إجابات.

سمعت صوتا صغيرا خلفي يقول «ماريسا؟».. التفت ورأيت برين تخرج من الطريق إلى شرفة المراقبة قائلة «من كان هذا؟».

الفصل العشرون

أخبرت برين بشأن الوشاح وسألتها «هل هو ملككِ؟ أو ملك والدتكِ؟». تنفست بعمق في محاولة لتبديد صورة لورين وهي تفقد توازنها والفروع تُنتزع بينما تسقط.....

قالت لي «لا نرتدي الأوشحة».. كانت ترتجف وتنظر على منزلها. سقطت ورقة شجر من شعرها غير المهندم بينما تسأل «هل هو دليل؟».

«لا يعرفون بعد. أريد أن أسألك سؤالًا. هل تعرفين أي شيء عن اقتحام شخص لمنزلي؟».

«ماذا؟ هل تمزحين معي؟ ما الذي تتحدثين عنه؟».

أجبتها بصوت معتدل «اقتحم شخص ما منزلي».

سألتني بعينين باردتين مجددًا «هل تتهمينني؟».

«أنا لا أتهم أحدًا. انا أسألك فحسب».

«أتسلل ببعض الأحيان، لكنني لست سارقة».

«هناك شيء واحد مفقود، فستان أزرق خاص. رأت جارتي سيارة تشبه سيارة والدتك متوقفة بالجانب الآخر من الشارع».

أجابتني وهي تركل الأرض «الكثير من الناس لديهم سيارات مماثلة، من المستحيل أن أقتحم منزل أحد».

- «إذًا لا بد أنه شخص آخر».

- «مررت بالقرب من هناك أمس.»...

- «كنتِ هناك؟».

- «لكنني لم أقتحم منزلك. لا أستطيع التصديق أنكِ تقولين ذلك».

- «لماذا مررتِ بالقرب من هناك؟».

- «أردت التحدث معكِ».

- «لكنكِ لم تتوقفي داخل المنزل؟».

قالت وهي تنظر إلى قدميها «لم تكوني في المنزل بعد».

- «أوقفتِ السيارة بالجهة المقابلة من الشارع وجلست هناك بداخلها؟».

- «نعم، لم أكن أعرف ماذا أفعل. أردت فقط القيام بجولة».

أجبتها وأنا أشعر أن الهواء يتدفق في رئتيّ ببرودة الثلج «ليس عليكِ أن تفسري. لم يكن علي ذكر الأمر الآن. كنت مصدومة

فحسب من كل ما يحدث. لقد عدت إلى منزلي لأجده تعرض للاقتحام والسرقة».

ارتجفت مرة أخرى ووضعت يديها في جيبها ثم قالت «أنا لا أفهم لماذا يقتحم الناس المنازل. لم أر أحدًا عندما كنت هناك. لا بد أن الأمر حدث بعد مغادرتي».

أقحمت يديّ بجيوبي لأن أصابعي بدأت تتخدر ثم أجبتها «ربما ستكتشف الشرطة أي شيء، مثل بصمات الأصابع».

قالت «لن تكون بصماتي».

قلت لها «سيكون الأمر على ما يرام حتى إذا وجدوا بصماتك، أنا متفهمة».

حدقت بوجهي بينما كان أنفها أحمر بسبب البرد وقالت «لكن لم أكن أنا الفاعلة».

«أفهمك. نحن لسنا بحاجة إلى التحدث بهذا الموضوع أكثر من ذلك». لكني تذكرت البقعة على جدار غرفة نومي والزجاج المحطم على الأرض. لا أستطيع طرد فكرة العنف من رأسي وصورة أصابع شخص غريب تبحث بملابسي وتفتح أدراجي وتتعدى على مساحتي الشخصية. تقول برين أنها لم تكن هناك. حتى لو كانت هي، لكنت ألقيت اللوم على الجنون المؤقت المصاحب للحزن.

أخرجت الصورة من جيبي وأعطيتها إياها قائلة «هذا هو الفستان الذي أعطته لي والدتك. الفستان الذي أتحدث عنه».

حملت الصورة بالقرب من وجهها كما لو أن أسرارها ستتضح عند ضغطها مقابل أنفها ثم سألت «أين عثرتِ على هذه الصورة؟». قلبتها ونظرت إلى الخلف ثم أبعدت الصورة عن وجهها باتجاه الضوء.

«كانت بحوزتي لأعوام. تم التقاطها منذ زمن بعيد».

«هذا فستان رائع. يبدو وكأنه نادرًا جدًا. سيكون من الصعب على شخص ما إخفاؤه أو ارتداؤه دون أن تتم ملاحظته».

أجبتها «أوافقكِ القول».

«أنتِ وأبي وأمي.... كنتم أصدقاء بالماضي».

سألتها وأنا أحاول ألا أبدو مرتبكة «لم تكوني تعرفين ذلك؟».

- «كنتم تبدون أصغر سنًا بكثير».

- «كنا كذلك».

أصدرت الفروع صوتًا في الغابة وخرج شخص ما من الظل. تجمدت بمكاني لكنني وجدت ظلا صغيرا لفتاة بشعر برتقالي وأسود تشوبه خصلات شقراء. تملك وجها أنثويا متميزا وملامحها رقيقة. وبينما كانت تقترب منّا لمعت حلقات بأنفها وأقراط بأذنها في الضوء. وقفت بجوار برين وأقحمت يديها في جيوب سروالها الجينز الضيق.

سألت «من تلك؟ صديقة؟».

مدت برين كتفيها وذقنها ثم أجابت «هذه كارينا، حبيبتي. حبيبتي بمعنى الكلمة».

«حسنًا». قلتها لكني لم أشعر بالصدمة، رغم أنني لم أتوقع فتاة ترتدي الكثير من الحلي. كانت عيناها الداكنتان تتألقان بجرأة.

قالت «مرحباُ».

«مرحبًا». قلتها وأنا أمد يدي بينما صافحتني بتوتر بأصابعها الدافئة.

نظرت إلى برين بينما كانت تحدق في وجهي كما لو كانت تتحداني لطرح المزيد من الأسئلة.

قلت لها «هل هذا هو السبب في أن والدتك كانت تريد أن ترسلك إلى مدرسة داخلية؟ بسبب كارينا؟».

نظرت برين خلفي ورمشت بسرعة ثم سحبت نفس عميق وقالت «لم تكن أمي سعيدة تمامًا. لقد رأتنا في غرفتي. لكنها لم تهتم بأنني أميل للفتيات».

أخرجت كارينا يديها من جيوبها وتظاهرت بفحص أظافرها.

سألتُ برين «هل يهتم والدك للأمر؟».

مدت برين يدها لتمسك بيد كارينا كما لو كانت الاثنتان تتشبثان بحياتهما في قارب إنقاذ بالمحيط العاتي.

أردفتُ «هو لا يعرف بالأمر، أليس كذلك؟».

«سأخبره عندما يحين الوقت». نظرت برين إلى الصورة مرة أخرى وقالت «كان أبي متيمًا بكِ حقًا.... إنه يحدق بكِ وكأنه غارق بحبك».

يظهر في الصورة بجانب وجهه حيث كان ملتفتا ليواجهني وأنا على يمينه، بينما كانت لورين على يساره. من الصعب قراءة تعبير وجهه. كان جنسن عالقا في الوسط. من الذي التقط الصورة في تلك الليلة؟ النادلة؟ كان عيد ميلاد جنسن حيث كان فتات الكعكة متناثرا بأطباقنا.

قلت لها «إنها صورة قديمة كما قلت، لا أتذكر».

- «لماذا تحملينها إذًا؟».

- «أخذتها لأري المحقق الفستان».

- «تبدو أمي بمظهر جيد في الفستان».

«نعم بالفعل». قلتها وأنا أشعر بتقلب معدتي.

«لكنكِ وأبي كنتما تحبان بعضكما. لا تنكري الأمر فأنا لست غبية. لكن لماذا تبدين حزينة؟».

«هل أبدو حزينة؟ حقا؟». اطلعت على الصورة من قرب. ربما كنت أعرف مسبقًا إلام سيؤول الأمر. أردفت قائلة «أعتقد أنه كان هناك أغنية حزينة مشغلة».

«لكم من الوقت كنتِ تخرجين مع أبي؟».

لشهور، لكني أجبتها قائلة «لا استطيع التذكر بالضبط».

«لم يتحدث عن الأمر أبدًا. سألته ذات مرة كيف التقى بأمي وقال من خلال صديقة. لكن أمي أخبرتني كل هذه القصص عن كيفية ارتباطهم بشدة وكانت علاقتهم قوية جدًا، وأنه بإمكانهم النجاة من أي شيء. ولكن هذا..»...

قالت كارينا «مفاجأة».

ابتلعت لعابي وشعرت أن السماء تدور ثم أجبتها «برين، أنا ووالدك كنا على علاقة. ربما لا يريد والداك أن تعرفي ذلك. لست متأكدة لماذا. كان هذا منذ زمن بعيد».

«لقد هجركِ من أجل أمي. أليس كذلك؟ هل هكذا التقى بها؟ من خلالك؟».

تنفست ببطء، واحد، اثنان، ثلاثة. تذكرت حين كنت في الشقة أفتح باب غرفة النوم. سمعت صوت قطرات منتظما من صنبور في الحمام. لا أستطيع الانتظار لأخبر جنسن بجوابي.

انتشلتني برين من أفكاري قائلة «ماريسا؟ هل أسأل أسئلة شخصية؟ الأمر يخص والديّ».

«أعرف، لا مشكلة. الطريقة التي حدث بها الأمر تبدو محيرة بعض الشيء الآن».

نفخت وارتفعت خصلاتها من على جبينها ثم قالت بصوت يشوبه البكاء «لم تخبرني بالأمر أبدًا. والآن لا يمكنني حتى أن أسألها. ربما كان بإمكاني رؤيتها تخرج إذا كنت في المنزل».

«لكن...اعتقدت أنها أخذتك من الحفلة».

مسحت أنفها بظهر يدها وقالت «قامت بذلك فعلًا، لكنني تسللت للخارج مرة أخرى. ربما اعتقدت أنني كنت نائمة في غرفتي »

قلت لها «كنتِ بالخارج مع كارينا».

كانت تلعب كارينا بواحدة من أقراطها الكثيرة. بينما همست لي برين قائلة «صعدنا إلى منزل الشجرة. كان القمر مكتملًا.... ورأينا آنا».

شعرت بأن قلبي توقف والهواء توقف وانحبست أنفاسي. سألتها «ماذا؟ متى؟ ماذا كانت تفعل؟».

«لقد كانت تلتقط الصور. إنها تفعل ذلك في بعض الأحيان. لا أعرف متى كان الوقت».

«هل أخبرتِ الشرطة؟».

«لم استطع. كانوا سيسألون ماذا كنت أفعل بالخارج. ووالدا كارينا..»...

قاطعتها كارينا قائلة «كانوا سيرسلونني لإعادة التأهيل أو العلاج أو ما هو أسوأ».

سألتها بصوت خافت كأنه آت من نفق بعيد «رأيتِ آنا. هل أنت متأكدة؟».

قالت برين «نعم، متأكدة ألف بالمئة. لقد تعرفت على منامة الطيور التي ترتدينها. كانت رابضة خلف السياج بالقرب من غرفتها. كنت سأنزل وأتحدث معها لكنها عادت إلى نافذتها».

«لم تخبري أحدًا. لا أحد على الإطلاق».

«كنت أعرف أنها ستقع بورطة. لكنتُ وقعتُ بورطة بدوري أيضا».

«هل رأيتِ أي شيء آخر؟ والدتك؟ أي أحد؟ الضوء الذي يعمل بمستشعر الحركة؟».

قالت برين «لا، أتمنى لو أنني رأيت أي شيء. أتمنى هذا أكثر من أي شيء آخر. لربما استطعت إنقاذها».

الفصل الحادي والعشرون

قال لي ناثان عبر الهاتف بينما كنت أقود السيارة في طريق العودة إلى منزلي «برين تكذب بالأمر برمته. أخبرني جنسن أنه يواجه مشاكل معها. فكري في الأمر. أنكرت اقتحام منزلك. كيف تصدقين أي شيء تقوله؟». صدى صوته كان يرتد من سماعة الهاتف كما لو كان في محطة فضائية وليس العمل.

«إذا كانت آنا هناك ورأت شيئًا.»...

«لا أريد أن تستجوب الشرطة طفلتي. سيعرّضها الأمر لصدمة أكبر. امنحيها بعض الوقت في منزل والدتها».

«ألا تعتقد أن الأمر مهم؟».

«لم ترِ شيئًا. ولا تعرف ماذا حدث».

أوقفت السيارة بجانب الطريق بينما كانت مساحات الزجاج الأمامي تصدر إيقاعا رتيبا ومنتظما. قلت له «كيف يمكنك أن تكون متأكدا لهذه الدرجة؟ أتفهم أنك تريد حماية آنا. لكن لورين قُتلت».

أجابني «مهلًا، نحن لا نعرف ذلك».

«ربما أنت لا تعرف ذلك، لكنني أعرف».. أغلقت الهاتف واتصلت بريان على عكس أفضل اختياراتي. التقطت أنفاسي عندما أجابت الهاتف. كانت مترددة في مقابلتي في البداية وقالت إنها يجب أن تغادر للعمل، لكنها وافقت مؤخرا عندما أخبرتها أن الأمر يتعلق بآنا. قدت سيارتي نحو الجانب الجنوبي الغربي من البلدة حيث تقيم آنا مع ريان في منزل أصفر مستأجر بالطراز الفيكتوري، أحد المنازل الأصلية التي تم بناؤها بترانكيل كوف في أوائل القرن العشرين على منحدر خفيف أمام الساحل. أعلم أن الأمر مخاطرة أن أتواصل مع الزوجة السابقة التي تعتقد أنني تأثير سيئ على ابنتها.

رغم ذلك ذهبت إلى منزلها حيث تغطي الستائر الرقيقة نوافذه وحديقته مشذبة الزوايا بعناية بالغة. كانت آنا تقود دراجتها على الرصيف. وعندما رأتني توقفت ثم تقدمت نحوي وتوقفت بجوار السيارة وأراحت قدميها على الأرض.

قلت لها «أنا هنا لأرى والدتك».

قالت لي «لا يـ..يـ..يمكنك التحدث معها. سأقع بورطة».. يا إلهي إنها تتلعثم مجددًا. شعرت بقلبي يتألم، ولكن لم نفقد كل شيء. هي تشعر بالأسى بسبب الأحداث الأخيرة فحسب. هذه ليست حالة دائمة.

سألتها مبتسمة لإخفاء قلقي «لماذا ستقعين بورطة؟ الأمر بيني أنا ووالدتك».

«.ليس من الـ..مـ..مفترض أن تأتي إلى هنا». كانت تطبق قبضتيها على المقود بشدة لدرجة أن أصابعها كانت بيضاء.

«لن أبقى لفترة طويلة». قلتها وأنا أمعن النظر نحو المنزل. كنت أحدق مقابل شعاع من ضوء الشمس. سألتها «هل تحبين غرفتك هنا؟ هل وضعتِ صندوق المجوهرات الخاص بك على الرف؟».

ارتعشت شفتيها وتذبذبت الدراجة قليلًا ثم انزلقت الخوذة فوق جبينها وأجابتني «ف..ف..فيم تريدين التحدث معها؟».

خرجت ريان من الباب الأمامي وهي تلوّح منادية «مرحبًا!».. سترتها الذهبية القديمة كانت تلمع في الشمس. أردفت «تفضلي إلى هنا. آنا، لديك عشر دقائق أخرى بالخارج».

عبست آنا في وجهي وترددت ثم ضغطت الدواسات وتحركت على الطريق بأقصى سرعة لديها بينما قاومت أنا الرغبة في مطاردتها لطمأنتها.

دعتني ريان داخل الشرفة حيث تزدهر النباتات المورقة على طاولات جانبية تحت الأسقف المقببة.

قلت لها «تبدو آنا حزينة، لم تعد تتحدث بطلاقة..»...

قالت ريان بصوت يشوبه القلق «لقد لاحظت التلعثم أيضا. هل هذا سبب قدومكِ هنا؟».

«لا، لم ألاحظ ذلك قبل وصولي إلى هنا. اسمعي، أعتذر عما حدث في منزل الشجرة. نحن... كان ينبغي أن نراقبها».

«عليّ أن أعتذر عن وقاحتي عندما كنت هناك. أنا قلقة على حالة ابنتنا، هذا كل ما في الأمر. بعد ما حدث يوم الجمعة.»...

«في الواقع جئت إلى هنا لأسألك عن تلك الليلة».

«نعم؟». نظرت إلي دون أن ترمش.

- «ربما ذهبت آنا إلى الخارج. ربما كانت تلتقط مقاطع الفيديو وشاهدت شيئًا ما».

- «لا يُسمح لها بالخروج في الليل».

- «ناثان يعرف ذلك. نحن نعرف ذلك. لكن آنا عنيدة».

- «يتوجب على ناثان أن.»...

«يقع اللوم عليّ أيضا. لكن إذا رأت شيئًا ما، فقد يكون ذلك ما أخافها». أخبرت ريان عن المنامة وحقيبة آنا.

قادتني إلى غرفة المعيشة المفروشة بدرجات من اللون السمني. جلست على كرسي مبطن وأمسكت المسند كما لو كانت في رحلة جوية مضطربة ثم سألتني «هل تعتقدين أن ابنتي تخفي شيئًا ما؟ شيء تعرفه وقد يكون سبب عودة التلعثم لها؟».

جلست على الأريكة المقابلة وأجبتها «ليس لدي أدنى فكرة».

قالت ريان «حسنًا».

«لا يريد ناثان أن يخبر الشرطة. يعتقد أن الأمر سيزعجها أكثر. أنا أتساءل إذا.»...

«تريدين مني أن أتحدث إلى المحقق. لست متأكدة. ما رأي ناثان؟».

«لا يعرف أنني هنا. هل توافقين على إرسال آنا للتحدث إلى شخص آخر إن لم يكن إلى الشرطة؟».

«طبيب نفسي. أهذا ما تقترحيه؟». قالتها بصوت بعيد ومشتت.

قلت لها «أيهما أفضل برأيك».

«سأتحدث مع آنا. ما تقولينه... يفسر ذعرها. رغبتها في الهرب. التلعثم. وما حدث للورين.... علاوة على ما حدث في الليلة السابقة وضاعف من صدمة آنا».

«ما حدث في الليلة السابقة، تقصدين خطبتنا».

«آنا تواجه مشكلة بالتكيف مع الكثير من التغييرات على دفعة واحدة. في بعض الأحيان لا تعرفهم. إليكِ مثال». أمسكت بوعاء من الطين الأحمر اللامع من فوق طاولة القهوة. كان غير متساوٍ وغير جيد لكنه مشبع بالسحر والأصالة. «لقد صنعت هذا في الصف قبل بضعة أسابيع. انظري إلى النقش». قلبت الوعاء وأرتني النقش في الأسفل بأحرف صغيرة. لأمي + أبي ♥ آنا

«يا للطفها». قلتها رغم أن الكلمات كانت تدق في قلبي. لكن أي طفلة لا تريد أن يكون والديها معًا من جديد؟

«لا تزال ترى ثلاثتنا كوحدة أسرية».. عبست ريان وهي تضع الوعاء على الطاولة ثم أردفت «مثل هذه الأمور... لا أتحدث بها. لست بحاجة إلى تذكيرها بأنني ووالدها لم نعد نعيش في نفس المنزل. وأنها لا تستطيع إعطاء الوعاء لكلينا. إنها قلقة بما فيه

الكفاية. وأخيرًا أدركت الحقيقة. ليلة الجمعة أرسلت لي العديد من الرسائل. بدت غاضبة».

«لقد هرعت إلى الفراش مبكرًا. كنت قلقة».

نظرت ريان إلى بينما كان الضوء ينعكس على عينيها الزرقاء «كانت حزينة بسبب الخطوبة. لن أتفاجأ إذا خرجت كما تقولين. هل تعتقدين أنها رأت ناثان؟ أخبرني أنه كان خارجًا عندما أرسلت له رسالة».

«إذًا لم يكن يكذب. أرسلتِ له رسالة فعلًا».

«أعلم أن الوقت كان متأخرًا. أتساءل إذا كان من الممكن أنها قد رأته هناك؟».

«هل تقصدين أنها ربما اعتقدت أن له علاقة بحادث لور....؟».

قالت ريان «لم يكن ليؤذي أحدًا». لكن كلماتها تبدو ضعيفة وغير موثوقة ثم أردفت «إنها تعرف ذلك. وأنا أعرف ذلك. لكن من الممكن».

نظرت إلى الصور التي تصطف على رف الموقد. آنا في مسرحية مدرسية ترقص في صورة رسمية. قلت لها «ربما أستطيع إقناعه بالتحدث معها ومعرفة ما إذا كانت قد رأته، ويمكنه أن يصحح أي أفكار غريبة في رأسها».

قالت ريان «سأتحدث مع ناثان أيضا. إنها بحاجة ماسة للاستقرار. فهي تتصرف بغرابة تلك الأيام».

«تتصرف بغرابة؟». قلتها وأنا أفكر في الصورة التي تم تمزيق وجهي منها. لكنني لم أذكر ذلك لريان.

- «مزاجها متقلب للغاية. لطالما كانت كذلك، لكن الأمر يزداد الآن. إنها تحتاج إلى جدول منتظم وحياة هادئة».

- «أتفق معك. أنا أهتم لأمر آنا».

- «أعلم انكِ تهتمين».

- «لم نرغب في إدخال الدراما إلى حياتها».

قالت «أوه، أنا أعلم ذلك. لم أعني ذلك. أعني فقط إنها تستحق السعادة. لم أكن أريدها أن تتربى في عائلة ممزقة كما كان الحال معي».

«إنها مرنة. سنعمل على هذا».

ابتسمت لي ريان وقالت «يبدو أنكِ تقومين بذلك بالفعل. أليست مواعيد ناثان صعبة عليكِ؟ يتم استدعاؤه طوال الوقت. هل لا يزال يخرج ليلًا ليتحدث في الهاتف لمدة طويلة؟».

«ليس بمعظم الوقت». قلتها وأنا أقوم ثم قادتني هي إلى الباب الأمامي.

«ربما أصبح مستقرا. لطالما كان جدول مواعيده جنونيا».

«أفترض أن هذه هي طبيعة وظيفته».. لا يمكنني التخلص من صورة ناثان وهو يخرج من غرفة النوم بينما كان وجهه مضاء بشاشة هاتفه.

«كان دومًا حريصا على الذهاب للعمل إذا مرض أحد زملائه أو احتاجوا إلى بديل. كان مكرسا لهذه الوظيفة. الأمر له تاريخ معه».

«تقصدين بسبب والدته».

«هل أخبركِ؟». فتحت الباب وأشارت إلى آنا لتعود. تحركت آنا بالعجلة على الطريق بينما كان شعرها يطير من أسفل خوذتها.

«قال إن والدته عانت من نوبة قلبية عندما كان والده في عملية جراحية. قام المستجيب الأول بإنقاذ حياتها ولم ينس ناثان الأمر أبدًا. أصبح المسعف بطله».

قالت ريان «ها أنتِ ذا، تعرفينه جيدًا الآن رغم هذا الوقت القصير».

ابتسمت مقاومة الرغبة في الدفاع عن نفسي. فالأمر لا يعنيها، لكنها محقة بطريقة ما. أنا وناثان سويًا منذ وقت قصير نسبيًا.

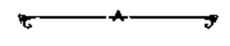
خطوت خارجًا نحو الشرفة وأغمضت عيناي مقابل الشمس. كانت آنا تقود فوق الممر ثم أوقفت دراجتها أمام المرأب المنفصل وفكت خوذتها.

قلت لريان «شكرًا لوقتك بالتحدث معي».

«ما زلتِ قلقة. أنا أتفهم هذا الشعور. أنت تحبينه كثيرًا ومع ذلك.»...

نظرت إليها وكان قلبي يدق بالقفص الصدري. وآنا وضعت خوذتها على المقود. كذبت على ريان قائلة «لست قلقة».

ابتسمت ريان بحزن وقالت «لكنكِ تشككين. أنا أعلم. لقد جربت هذا الشعور. فأحيانًا يكون من الصعب تصديق أنه سيذهب للعمل لمساعدة الناس عندما يغادر ليلًا. أنتِ تعرفين، أحيانًا تقودنا مخيلتنا إلى أماكن مشتتة».





الفصل الثاني والعشرون

قال لي ناثان: «لماذا تحدثتِ مع ريان بحق الجحيم؟».

كنا قد خرجنا لتناول العشاء بوقت متأخر في مطعم ترانكيل باي ذا باي .. كانت طاولتنا تطل على الماء وتتمايل شعلات الشموع بيننا في الثامنة والنصف تقريبًا. كان هناك عدد قليل من الأزواج يجلسون في زوايا هادئة، وضوء القمر يتمايل على صفحة البحر.. كان ناثان ساحرًا وهو يرتدي قميصًا أخضر فاتحًا، أزراره العلوية مفتوحة كالمعتاد، وسروال جينز باهتًا، ويحمل وجهه تلك الابتسامة العشوائية.

قلت له «كانت ريان تتحدث معي عن آنا، إنها ليست في حالة إنكار».

«لقد ذهبتِ إلى منزلها.. إنها غير متزنة».

«هذا تصريح قاسٍ».. نظرت إليه وأدركت أنني لا أعرف الحقيقة.. فبسمته لريان تبدو زائدة على حدها.

«هل لهذا السبب اقترحتِ أن نخرج لتناول العشاء، للضغط عليّ بخصوص آنا مرة أخرى؟».

«ليس فقط بشأن آنا».. هو لا يعلم أنني جرّبت خمسة أزواج مختلفة من الأقراط قبل أن أستقر على زوج من الذهب المزخرف؛ ليتناسب مع خاتم الخطوبة، أو أنني شعرت بالقلق قبل اختيار تنورة من الساتان الأسود وسترة كستنائية ناعمة.. هو لا يعلم أن الشك يقتلني. لا يعلم أن لورين ظهرت لي من الظل بوجه دامٍ وملطخ بالرمال قائلة: «ماذا تفعلين؟ ستخرجين لتناول العشاء، بينما أنا ميتة؟ كيف تجرؤين؟».

قالت النادلة وهي تضع القوائم على الطاولة: «هل أحضر الشراب لكما؟».

قلت لها «أريد ماء من فضلك».. لا أريد الكحول الليلة.. أحتاج أن أكون بوعيي.

قال ناثان وهو مازال ينظر إلى «كأس من النبيذ الأبيض».

قالت النادلة «فورًا» ثم ذهبت بعيدًا.

فتحت أنا منديل القماش على حجري ثم فتحت القائمة.. سلاطة المانجو واللفت، ريزوتو بريمافيرا ....

وضع ناثان القائمة على طبقه، ومال إلى الأمام ثم أمسك بيدي.. أمسكت يده بدوري وشعرت براحة فورية.. لم أكن أدرك كم كنت بحاجة للمسته ودفء وحزم قبضته.. قال لي «ما الأمر؟».

أجبته «الأمر يتعلق بنا.. يبدو كل شيء خارج عن السيطرة.. بطريقة ما وبعد كل ما حدث قد يكون المستقبل السعيد بعيد المنال».

«لماذا تقولين ذلك؟ لم يتغير شيء بيننا.. يمكننا التغلب على هذا.. تنهار العائلات وتعود الأمور لمجراها بطرق مختلفة.. يولد أشخاص.. ويموت أشخاص.. نضحك ونبكي ونحزن على من فقدناهم.. الحزن جزء من الحياة».

«أنا أعرف كل هذا.. الأمر... أشعر بأن كل شيء تغير بعد وفاة لورين.. أشعر أنني أنظر إلى العالم، من خلال نافذة ضبابية ولا يمكنني مسح الزجاج».

قال لي «اتكئي عليّ.. انتظري، أليست هذه أغنية؟».

سحبت يدي من يده وابتسمت، بينما عادت النادلة مع مشروباتنا.. طلب ناثان السمك وشرائح البطاطا، بينما اخترت أنا الريزوتو.. نظرت على الزوجين اللذين يجلسان على بُعد طاولتين منا.. كانت نظراتهما متشابكة.

سألته بعد أن رحلت النادلة «لماذا انفصلت أنت وريان؟ لم تخبرني من قبل.. وعندما زرتها قالت...».

«أوه.. لا.. دعينا لا نتحدث عنها»، قالها لي وهو يضغط أصابعه على جبينه كما لو كان يبدد أي فكرة عنها.

«قالت إنها كانت خائفة أثناء زواجكما.. ربما كانت تشك في خيانتك لها.. تحدثت عن مناوباتك الليلية بالعمل».

«هذا... يا إلهي.. لا أستطيع أن أصدق هذا».. أغلق عينيه وأخذ نفسًا عميقًا، ثم فتح عينيه وقال: «لا يجب عليكِ التحدث معها.. أفكارها غير صحيحة».

- «ما هو الصحيح إذاً؟».

- «لقد كانت تشك بي بشكل مفرط».

- «هذا شيء متطرف لتقوله عن زوجتك السابقة، والدة طفلتك».

- «مازلت مصدومًا من هذه الحقيقة».

أحضرت النادلة المقبلات وسلاطات وخس زبدة مزينًا بالفجل والبصل وصلصة الخردل على الجانب.

قلت له: «يتوجب عليك التفسير، أخبرني لماذا تعتقد أنها غير متزنة».

قلّب ناثان سلاطته ثم نظر إليّ وشد عضلات وجهه، ثم أخذ نفسًا عميقًا، وقال «لم أكن أعرف طبع ريان عندما تزوجتها.. لقد حملت وعندما وُلدت آنا أحببت كوني أبًا.. لكن أصبحت ريان متملكة ومتطلبة».

«هذا غامض.. كيف بالضبط؟».

«إنها غير واثقة بنفسها.. بعبارة ملطفة.. كانت تريد أن تعرف أين أكون وماذا أفعل بكل دقيقة.. بقيت طويلًا في علاقة زواج ضارة بسبب آنا».

«للحفاظ على الأسرة مترابطة.. قالت ريان إن مناوبات عملك الليلية....».

«كانت مناوبات ليلية.. ولاتزال كذلك.. لقد بقيت في مهنتي لأعتني بآنا.. بقيت لضمان حصولها على طعام وملبس وهدايا عيد

ميلاد.. كان من الممكن أن استقيل.. لقد رأيت ما يكفي لصدمة شخص مدى الحياة.. ولكن وجود طفل يغير الوضع.. سأفعل أي شيء بمصلحتها».

«مثل حمايتها من نفسها؟ أنت لست متفاجئًا أنها خرجت ليلًا».

«هل أخبرتِ ريان؟ الآن ستلقي باللوم عليّ..... لا أستطيع العيش من دون آنا».

«تعتقد أن ريان ستحاول أخذها.. تعتقد أن هذا يتعلق بتقييم ريان لك».

نظر إليّ وقال: «لا، الأمر يتعلق بآنا! ماذا لو أرادت ريان حضانة كاملة باعتقادها أنني والد غير صالح؟ آنا لا ترغب في العيش بمنزل والدتها طوال الوقت».

كان وقع كلماته كطعنة صغيرة في قلبي.. أجبته قائلة: «لم تنجح الأمور بالنسبة لثلاثتكم كأسرة.. لكن لا يمكنك الاستمرار في محاولة حماية آنا، عليك الحديث معها بخصوص أيًا كان ما تمر به».

«إنها مشوشة.. هذا كل ما في الأمر.. عندما رأيتك للمرة الأولى، عندما كنتِ معها في المدرسة، كانت تبتسم.. لقد أحبت ما كنتِ تفعلينه من أجلها.. كنت لم أر ابتسامتها منذ وقت طويل».

«لكن هذا كان بالماضي.. نحن بالحاضر»، قلتها ثم شعرت بأن الطعام على طبقي أصبح غير شهيًا فجأة.

«سوف تتخطى الأمر».

نظرت إليه بوجه جامد وقلت: «شخص ما دفع لورين من فوق الهاوية...».

«مازلتِ لا تعرفين ذلك».

ملت نحو الأمام واقتربت منه ثم قلت له «وأنت تعوق....».

«لا يمكنك تصديق ذلك!»، نظر على الطاولة المجاورة ثم أخفض صوته وأردف: «أريد أن أعرف ما حدث لها بقدر ما تريدين أن تعرفي.. لا يمكنكِ السماح لهذا الأمر أن يؤثر بنا.. ماذا رأت برين، لا أدري.. إنها مضطربة بشكل خطير.. كانت تتشاجر مع والديها.. كنت أسمعهم ببعض الأحيان.. رغم كل ما نعرفه قد تكون....».

«ماذا؟ ألقيت والدتها من فوق الهاوية؟ وكذبت بخصوص رؤية آنا هناك؟»، نظرت خارج النافذة، لكنني أشعر باحتمالية صحة تخمينه.. تذكرت عيون برين الباردة والغضب في صوتها، وهي تقول «مدرسة داخلية.... كانت لتحاول إجباري على الذهاب إلى هناك».

أرجع ناثان ظهره نحو الخلف مرة أخرى وقال: «ربما.. آنا قادمة للبقاء معي في وقت لاحق من هذا الأسبوع.. لنكن فقط معها.. لنكن أباها وماريسا.. ربما ستتحدث إلينا من تلقاء نفسها».

ترددت ثم أجبته «حسنًا.. أنت ووالدها.. إذا كان هذا هو ما تريد القيام به».

«هذا ما أريده.. ثِقِي بي في هذا الأمر».

قلت له: «أنا دائمًا أثق بك».. لكن ماذا لو أن آنا قد رأت ناثان بالخارج تلك الليلة؟ وإذا رأت والدها فهل كان يفعل شيئًا آخر غير إرسال رسالة إلى ريان؟ قال إنه كان يحتاج لاستنشاق الهواء الطلق.

قال لي: «لنذهب في رحلة إلى المدينة بنهاية هذا الأسبوع؟ سيكون الأمر كإلهاء على الأقل».

ابتسمت وهززت رأسي بالموافقة.. بينما كنا نطلب كعكة الجبن بالتوت العليق المحصود محليًا للتحلية؛ كنت أقوم أنا بدفع شكوكي خارج رأسي.. أنا سعيدة مع ناثان.. فهو يحبني ويحب ابنته. لا أستطيع أن أحملّه خطأ كونه يحميها.. ربما أنا كثيرة الشك.. قبل أن ألتقي به كنت بعلاقة جدية واحدة فقط بعد جنسن.. لكنني لم أقع بالحب تمامًا، لذا أنهيت العلاقة بعد عام.. لقد كنت دائمًا بخير بمفردي، في انتظار أن يأتي الرجل المثالي.. رجل مثير للاهتمام وصادق ومهتم وغير قادر على الخيانة. لكن لم يفِ أحد بالمواصفات.. حتى أتى ناثان.. تذكرت أول مرة استيقظت على فراشه بالصباح.. صوت الاندفاع الناعم للمحيط الذي يتدفق عبر النافذة.. كنت في سلام.. كنت أعلم أنه عليّ التمسك به.. مازلت أشعر بهذه الطريقة.. لكن الشك، تسلل الشك إلى عقلي ليلة الجمعة وبقي هناك مع بقايا ما حدث من قبل في شقة الكلية.. رفرفة الستائر عندما دخلت في وقت مبكر والضغط بالهواء، تلميح إلى شيء لم أكتشفه بعد.. لكن لا يمكنني البحث عن علامات الخيانة.. يجب أن أثق بناثان وإلا ما هي الفائدة من الأمر؟

كنا آخر من غادر المطعم، وكنا نحيط بعضنا البعض بأذرعنا في البرد.. وكانت السماء السوداء مليئة بالنجوم والسحب. في الطريق إلى المنزل بشاحنته جلست بالقرب منه ويدي على فخذه.. كان دفئه يشع بداخلي وكان يمكنني أن أشعر بنبض قلبه وتنفسه البطيء والعميق.. ورائحته التي تشبه الصابون والنبيذ كانت تحيط بي. سمحت لقلقي أن يتضاءل، وتخيلت أن أستيقظ بجانبه كل صباح، وملابسي معلقة بشكل دائم في الخزانة، والبيانو الخاص بي في غرفة معيشته، والكرسي الأزرق المفضل لديّ عند النافذة، والأواني والمقالي الخاصة بي في خزائن المطبخ. سأشاركه الإفطار كل صباح، فهو يحب مربى البرتقال والمشمش والبيض المسلوق.

عندما عدنا إلى منزله خلعنا معاطفنا.. ثم قبّلني وهو يجرني نحوه.. شفتاه كانتا باردتين ومتسرعتين.. سار معي بالرواق وهو لايزال يقبلني ويفك أزرار قميصي. تركنا أثرًا من الملابس على الأرض كمعالم على الطريق إلى الفراش.. تركت شفتاي تنغمس بشفتيه وأنا أشعر بالامتنان للمسته الرقيقة.. حينما نكون بالظلام، يمكننا أن نسافر نحو كوكب آخر.. نحو كون آخر لا يوجد به حزن.. ناثان يعرف كيف يثيرني بملاطفة بسيطة أو همسة بأذني.. حثني على الاستسلام له وإعطاؤه نفسي وأنا أطعته.

بعد فترة، وبينما كنت مستلقية بين ذراعيه واهنة وناعسة.. كان الهواء يفيض بالطاقة المحيطة.. ضرب ذراعي بذهول، وقال بلين عبر شعري: «لقد كنت أفكر في العمل».

«رومانسي للغاية».. همستها له رغم أنني لست بحاجة إلى أن أكون هادئة.. كنا وحدنا هناك.

«لا، أعني أنني أريد التقاعد مبكرًا.. لهذا السبب أعمل بكثير من المناوبات.. أريد التخلص من هذه الوظيفة وقضاء المزيد من الوقت معكِ ومع آنا».

اعتدلت لأنظر إليه في الظلام.. نظرت بتفاصيل وجهه الحادة وسألته: «هل أنت جاد؟».

«لم أكن أكثر جدية في حياتي».. مد يده ليلمس خدي ثم أردف: «أنتِ جميلة جدًا.. أتعرفين ذلك؟».

«عندما تقول ذلك، أشعر أنني جميلة».

مرر إبهامه على شفتي السفلية، وقال: «يجب أن تعرفي أنكِ كذلك دومًا.. عندما أكون في العمل أفتقدك طوال الوقت.. أحتاج إلى الخروج من هذا الفخ.. الحياة قصيرة يا ماريسا».

«لكنك تساعد الناس.. أنت تنقذ الأرواح.. أتتذكر تلك المرأة التي اصطدمت بعمود الهاتف؟»، بينما كنا بطريق العودة من متجر البقالة، انحرفت أمامنا مباشرة.. أوقف ناثان السيارة وأسرع لمساعدتها. كانت تتصبب عرقًا وترتعد. اعتقدت أنها كانت ثملة، لكنه سرعان ما قرر أنها مصابة بمرض السكري، وتعاني من انخفاض نسبة السكر في الدم. أعطاها نصف كوب من عصير البرتقال من المتجر، وانتظرنا وصول سيارة الإسعاف.

قال لي: «أشعر أنني فارغ الطاقة، لا يمكنني القيام بذلك بعد الآن».

«لكن كيف يمكنك التقاعد الآن؟».

«إنني بحاجة إلى العمل لمدة عامين آخرين، وسيكون الأمر على ما يرام.. سأعتمد على ميراث أبي ومدخراتي حتى يبدأ راتب تقاعدي...».

«هل أنت واثق؟ ماذا ستفعل بدلًا من ذلك؟ أنت مدمن أدرينالين.. أنت تحب شعور ضخ الأدرينالين عند الخروج إلى مكان الأزمات».

سحبني نحو ذراعيه مجددًا وقال: «هناك طرق أخرى للحصول على جرعتي من التسلية.. يمكنني التدريس أو كتابة كتاب.. يمكنني العمل في المنزل أيضًا.. أحتاج إلى استبدال النوافذ وإصلاح بعض القرميد بالسقف...».

قلت له وأنا أنغمس بجسده: «أنت تجيد استعمال يديك».

أجابني بهدوء وهو يقبّل جبهتي «هذه هي الفكرة».

«إنها فكرة مثيرة.. أعلم أنك تستطيع أن تنفذها.. فبمجرد أن تضع شيء بعقلك...».

أكمل جملتي بدلًا عني «أنفذه».

دارت بعقلي الاحتمالات.. هل يمكنني العمل بدوام جزئي في المدرسة والشروع في مغامرة جديدة مع ناثان؟ وبينما كنت أنام

أيقظتني نغمة وصول رسالة على هاتفه. ابتعد عني ليرى هاتفه على الطاولة.. كانت الساعة تشير إلى ١١:١٢ صباحًا.

سألته بصوت هامس وناعس: «من يرسل لك بهذا الوقت المتأخر؟ هل كل شيء على ما يرام؟».

أجابني وهو يعود بالقرب مني «بخير، أنه العمل، لكنني لن أذهب».

دق جرس الخطر في ذهني لكني تجاهلته، فأنا متعبة للغاية ولا أستطيع التفكير. رن صدى صوته بأذني «أنه العمل»، بينما كنت أغرق بالنوم.. بحلول الصباح الباكر زارت لورين أحلامي.. كانت الرمال تحيط بها ويتجمع الدم عند قدميها في بركة عاكسة واسعة وسوداء.. قالت بملامح يحدها ضوء القمر «أحتاج أن أخبركِ بشيء.. الأمر يتعلق بكلانا، وما حدث من قبل.. يتعلق بأسرتي.. برين وجنسن. الأمر يتعلق بنا، أنا وناثان».

الفصل الثالث والعشرون

تلاشى الحلم بحلول الصباح.. كان ناثان قد ذهب بمناوبة نهارية بالعمل.. إنه يذهب ويأتي مثل الطيف، لكنه على الأقل ترك لي ملاحظة مكتوبًا بها «أحببت الليلة الماضية.. أحبك بجنون».

قلت بصوت عالٍ: «وأنا أحبك أكثر جنونًا».

شعرت بالارتياح لاحتسائي كوبًا من القهوة القوية، وحاولت نسيان الرسالة التي أتت الليلة الماضية.. قال لي: «إنه العمل»، وأنا اخترت أن أصدقه على الفور.. عندما طلب مني الزواج بالدش- قبل أن نعلن الأمر بالعشاء- كنت متأكدة من ردي على الفور.. أومأت برأسي تحت الماء الساخن والهادئ، ثم همست في البخار قائلة «أوافق»، وعانقني هو بشدة.

لكنني لم أكن متأكدة قبل العديد من الأعوام، عندما لم أحضر محاضرتي الأخيرة في ظهر ذلك اليوم من فبراير.. كنت قد اشتريت عطر جديد من نوع كوكو لكي أكون جاهزة؛ لتناول العشاء مع جنسن في جريت نورثويست سوب كامباني. استغرقني الأمر أسبوع وكنت سأقدم له ردي أخيرًا.. تخيلت نفسي وأنا أمد بيدي حتى يتمكن

من إدخال خاتم الخطوبة بإصبعي، وتخيلت الابتسامة تنتشر على وجهه.. كنت طائشة وأحلم بالكثير.

حينها عندما عدت إلى الشقة قمت بنزع ملابس المطر الرطبة، وتركت حقيبتي بالقرب من الباب.. رأيت معطف لورين مرميًا على الأريكة.. وكتاب رياضيات مفتوح على طاولة القهوة.. تركت أطباقها على طاولة المطبخ كالمعتاد.. كانت أغراضها منثورة بلا مبالاة بأرجاء غرفة المعيشة.. عاجلًا لن يتوجب على تحمل عاداتها المزعجة.. سأنتقل من المنزل وسأجد أنا وجنسن منزلًا معًا.

كنت قد خلعت جواربي الرطبة، عندما لاحظت معطفًا رجاليًا «أسود»، مرمي على كرسي.. مشيت بالرواق على أطراف أصابعي، وذهبت إلى باب غرفة نومها الذي كان مفتوحًا جزئيًا.. ازداد صوت الهمسات الغريبة والهمهمات باقترابي.. فكرت بعقلي «في الظهيرة.. وقحة.. ألا تدرس أبدًا؟».. كنت أستيقظ ليلًا في بعض الأحيان على صوت الصرير الإيقاعي النابع من فراشها.. وكنت أرتدي سدادات الأذن. في الأشهر التي سبقت ظهر ذلك اليوم أحضرت ثلاثة رجال مختلفين- أو أولاد إن صح القول- إلى الشقة بعد ساعات، وكانوا يغادرون بالصباح شاعرين بالذنب. كنت أراهم.. شعرهم المضطرب وقمصانهم المجعدة.. لكنني لم أعرف أبدًا من كانوا.. لم تكلف نفسها عناء التفسير أبدًا.

كانت صداقتنا تتهاوى فوق أرض مهزوزة.. كنا نلعب معًا بطفولتنا، وكنا ندور معًا في مركز التسوق بمراهقتنا.. لكن لا يقارن أي من ذلك بالعيش معًا في الكلية. ارتفعت أسوأ عاداتها إلى السطح

مثل حثالة البركة.. ربما ارتفعت عاداتي أنا الأخرى.. فقد كانت تصرخ في وجهي لترك غطاء معجون الأسنان مفتوحًا، وشرب آخر فنجان قهوة دون إخبارها.. على الأقل لم أنم مع رجال غرباء.

لم تكن تحاول حتى أن تكون هادئة.. لا بد أنها لم تسمعني عندما أتيت.. أو ربما هي وحبيبها لم يهتموا.. فتحت الباب أكثر بقليل.. لم يروني.. حدقت في ظهرها العاري والمتعرق وهي تتحرك صعودًا وهبوطًا.. لم أر سوى جزء منه، كان جنسن. شعره كان متناثرًا على الوسادة وعيناه شبه مغلقتين.. لم يكن ينظر إليها حتى.. كان مشتتً للغاية ويضع يديه على وركيها.

كان يصدر أصواتًا لم أسمعها من قبل.. أصوات عميقة وخشنة.. وكان المصباح يضيء منحنيات لورين وشعرها المتشابك والفوضوي.. كان هناك وسادة على الأرض.. خلال المدة التي وقفت فيها، والتي شعرت بأنها آلاف السنين كانا لورين وجنسن كيانًا واحدًا.. وحشًا واحدًا يتلوى ويتأرجح ممزقًا أحشائي.. كنت أريدهم أن يروني أو يلاحظوني.. كنت أريدهم أن يقتلوا أنفسهم من الذنب، لكنهم لم ينظروا في اتجاهي.

شعرت بالضعف والغثيان ثم تراجعت في حالة صدمة.. كانت الأمطار تهطل على السطح.. أدركت بينما كنت أركض للاختباء في غرفتي أنني أصبحت الحبيبة التي تمت خيانتها، والتي تكررت على مر الزمن.. كرهت كوني صورة نمطية أكثر من كرهي للورين وجنسن.

غادرت الشقة بهدوء، وخرجت إلى الممشى الخرساني أسفل المنصة.. ثم تظاهرت بالعودة إلى المنزل.. كنت أصدر صوتًا عاليًا بمفاتيحي، أغلقت الباب بعنف، وكنت أغني.. وقفت في غرفة المعيشة وانتظرت.. سمعت صوت هرولتهم وجهودهم للتستر. ثم خرج جنسن من الرواق مرتديًا ملابسه بالكامل، لكن وجهه كان شاحبًا.. وتبعته لورين من غرفتها تتصبب عرقًا، وشعرها في حالة من الفوضى.

قالت لي «أوه، أهلًا يا ماريسا.. وصل جنسن باكرًا».

ابتسم ابتسامة عريضة، وعدّل قميصه ثم قال: «فكرت أنه يمكننا أن نذهب لتناول العشاء من هنا.. كنت فقط في الحمام».

وقفت هناك أتساءل أين لهم الجرأة بالنظر في عيني.. لكنت صدقتهم إذا لم أرهم؟! حتى مع كل الهرولة والفوضى.. كنت سأفضّل تصديق الكذبة.

قلت «لقد رأيتكما».

قالت لورين ووجهها ينفجر احمرارًا «ماذا؟».

«رأيتكما في غرفتك.. عدت إلى المنزل وكان بابك مفتوحًا ورأيتكما».

ضحكت قائلة: «ماذا تظنين أنكِ رأيتِ؟ لم تر شيئًا».

كنت أرتجف بشدة، وشعرت بأن عظامي تتحطم.. قلت لها «أنا... رأيتكما».

أجابت «الأمر ليس كما يبدو...».

«الأمر كما يبدو بالضبط».

قال جنسن «اللعنة يا ماريسا، تبًا».. كان شعوره بالذنب ينفجر من وجهه.. لكن هذا لا يهم.. كنت أحتقره.. ركضت إلى غرفتي وأغلقت الباب.. أخذ يطرق الباب ويقول إنه لم يستطع المقاومة.. وأنه لا يعرف ماذا دهاه.. على الأقل كان معترف بخطئه. أما لورين فلم تفعل أبدًا.

الآن بينما أفرد زبدة الفول السوداني على الخبز المحمص، أفكر فيما إذا كنت سأخبر جنسن بأمر برين أم لا؟ ربما عليّ أن أدعهم وشأنهم وأبتعد عنهم.. ولكن ماذا كانت تفعل بالخارج ليلًا؟ يبدو الأمر كما لو أن البلدة بأكملها تسللت للخارج بفعل سحر القمر.. ماذا كانت تفعل في منزلي؟ هل كانت تريد التحدث حقًا؟ أم أنها تفتعل القصة بأكملها؟

أثناء محاولتي تحديد ما يجب على فعله، لاحظت أن جنسن يهرول باتجاه سلم الشاطئ، مرتديًا سروالًا رياضيًا وسترة واقية من الهواء.. كما لو أنه قرأ أفكاري. تركت الخبز المحمص على الطاولة، وخرجت بأسرع ما يمكنني، وأنا أضع قبعتي فوق شعري المتشابك.. ركضت إلى الشاطئ مرتدية بدلة رياضية وحذاء الركض. أسرعت للحاق به حتى كادت تنفجر رئتاي.. أبطأ قليلًا وقال معبرًا بابتسامة حزينة «ماريسا، مرحبًا».

سألته «أي أخبار؟».

«عاد المحقق.. سيرسلون فريق الطب الشرعي لفحص الجرف.. يريدون استرداد حذائها ليفحصوه».

اندفع الدم في أذني، وأنا أسأله «ما الدليل الذي يمكنهم أخذه من الحذاء؟».

«يمكنهم معرفة المكان، الذي سارت فيه، استنادًا إلى المواد النباتية في الجزء السفلي من حذائها».

«إلى أين عساها سارت؟».

«لدينا شكل فريد من الغطاء الأرضي في الجزء الخلفي من المنزل.. يمكنهم معرفة ما إذا كانت ذهبت إلى الخلف مباشرة أو اتخذت مسارًا مختلفًا».

قلت له «يبدو الأمر مبالغًا فيه».

«ليست مبالغة البتة.. تختلف خصائص الأرض باختلاف مناطقها.. يستخدمون تقنية مجهرية لمقارنة عينات التربة الموجودة على الحذاء بالحديقة».

«يا للعجب! إنهم يتعاملون مع الأمر كتحقيق في جريمة قتل إذًا».

«لا بد أن الخبر انتشر.. زارتني إحدى المراسلات أمس.. ظنت أنه بإمكانها أن تستخدم طلاقة لسانها ومعاملتي بلطف لتعرف القصة».

قلت له: «أتمنى أن تكون قد طردتها».

«أخبرتها أن تغادر منزلي.. لم أكن مهذبًا.. لا أريد أن يُذكر الأمر بنشرة الأخبار».

«لا ألومك».. أخذت نفسًا عميقًا ثم أخبرته بما حدث في منزلي وعن الفستان.. عن حديثي مع برين.. وعن الفروع المكسورة وآثار الأقدام على حافة الهاوية.. عن الوشاح.. لم أذكر كارينا حبيبة برين أو خروج ناثان في منتصف الليل.. «لم تتم سرقة أي شيء آخر، الفستان فقط».

كان هادئًا للغاية، كنت أعرف أنه مذهول.. قال لي «أعتذر بشأن برين إذا اقتحمت منزلك.. الأمر صعب عليها.. سأرى إذا كان فستانك لديها».

«لا أريدها أن تقع بورطة.. أريتها صورة من... عيد ميلادك في مطعم ذا ميديترنيان منذ سبعة عشر عامًا.. خمنت وفهمت الأمر.. بشأننا.. بشأنك أنت ولورين وكيف انتهى بكم الأمر معًا؟».

نظر إليّ بعيون ضربها الاحمرار، وسأل: «هل أخبرتِها ببقية القصة؟».

«اعتقدت أنه واجبك.. فأنت والدها».. نظرت إلى وجهه المربع، وهو يميل في مهب الريح.. تظهر عليه علامات تقدم السن، لكنه لايزال وسيمًا.. لا أزال أشعر بألم خفيف في أحشائي، كلما أنظر إليه.. كبقايا لما حدث منذ فترة طويلة.

«لم أخبرها أبدًا.. لم تخبرها لورين أيضًا.. لم نملك الشجاعة».

«هذا صريح بشكل مفاجئ».. أو جبن، شعرت بوخز كالإبرة تحت بشرتي مرة أخرى بعد كل هذا الوقت.

«كانت الحياة مع لورين كالجحيم.. لم تعترف بأي شيء.. كانت تتشاجر بسبب كل شيء.. وكانت تشرب الخمر كثيرًا في الحفلات وتغازل الغرباء.. لكنني أحببتها وأحبها، وسأظل أحبها دومًا».

«أنا أعلم».. التفتنا ثم عدنا مشيًا بجانب الشاطئ.

قال لي وهو يمسح أنفه بظهر قفازه: «لقد كنتِ تخيفينها».

سألته «أخيفها؟».

«أخبرتني كيف كنتِ تساعدينها في الدراسة للاختبارات، لكنكِ لم تواجهي أي مشكلة في الحصول على أعلى علامات بالاختبارات.. كان عليها أن تبذل الكثير من المجهود على عكسك.. أما الأشياء الأخرى كانت تأتي لها بسهولة.. كانت معجبة بكِ.. كانت تشعر بالذنب وأرادت أن تعوضك».

«من الجيد معرفة ذلك.. على الأقل استيقظ ضميرها بعد كل هذه الأعوام».

«لم تعرف كيف تعتذر لأنكِ كنتِ مستاءة جدًا. لم تتحدث مع أي منا لفترة طويلة»

تبعته في اتجاه سلم الشاطئ، وقلت: «لم تعرف كيف تعتذر؟ حقًا؟ لا أصدق ذلك. هل تعرف لماذا عدت إلى الشقة مبكرًا ذلك اليوم؟».

توقف وكانت الرياح تهب بشعره ثم قال: «لم يسبق أن قلتِ لي...».. انتظرني لأكمل حديثي وشعرت بانسحابي نحو الماضي.

«لقد قررت أن أقبل عرض زواجك.. أن أتخلى عن حذري وأرمي به في مهب الريح. كنت على استعداد تام للزواج منك والعيش في سعادة للأبد».

بدا وجهه مصدومًا وقال: «لم تقولي لي ذلك قط».

«كنت سأخبرك.. لكن لم تسنح الفرصة. شعرت بأن الأمر مميز جدًا.. كنت مرعوبة كأنني أسير على الهواء.. كنت خائفة من المستقبل... ومن كل شيء.. كنا صغارًا جدًا.. ولكن بعد ذلك فكرت أن الناس يتزوجون صغارًا طوال الوقت.. أتعرف ما غير رأيي؟ أستاذي بمادة علم الاجتماع.. أثناء المحاضرة كان يوضح مفهوم الزواج الأحادي... أخبرنا عن كيفية التقائه بحب حياته في المدرسة الثانوية، وأنهم ظلوا سويًا لمدة أربعين عامًا.. كان على وشك التقاعد والسفر ليجوب العالم معها. لقد ألهمني».

بهت وجه جنسن وسأل «حقًا؟ ألا تكذبين؟».

أدرت وجهي نحو الرياح، واستنشقت هواء البحر البارد، ثم أجبته «لماذا عساني أكذب بهذا الأمر؟».

- «ماريسا.. لم تكن لديّ أي فكرة.. أحببتك».

- «أعرف أنك أحببتني».

- «إذا قلتِ لي قبلًا...».

- «ما الفرق الذي كان سيحدثه؟».

أخت نفس عميق وتذكرت.. توقف هو ولورين عن المواعدة بعد أن وجدتهما سويًا. ظل جنسن يطاردني، ويلتقي بي في كل مكان، ويخبرني بأنه يريد المحاولة مرة أخرى.. أعلن حبه لي على ركبتيه خارج مبنى علم النفس، عندما خرجت من المحاضرة.. رضخت لطلبه أخيرًا.. واعدته مجددًا لكن لم يكن الأمر جديًا.. استمر الأمر ستة أسابيع أخرى...

قال لي: «لم تكوني نفس الشخص.. لقد خرجنا ولم تتحدثي معي، أحيانًا لم تتحدثي طوال العشاء.. حاولت أن أكون معكِ مرة أخرى».

«أنت تجعل الأمر يبدو، وكأن ما حدث كان خطأي، وكل خطأي أنني لم أستطع أن أسامحك!».

«أنا أعرف... أنا لا أقصد ذلك.. أقصد أنه كان بإمكاننا أن ننجح بالأمر...».

صعدت السلم، بينما كان يتبعني وقلت له: «حقًا؟ ربما لم تكن لتأتي لورين إليك وتخبرك أنها حامل.. من تلك المحاولة البسيطة التي حدثت بظهر ذلك اليوم؟ ربما لو بقيت معي لكانت أجهضت الجنين ولم تكن برين لتولد أبدًا».

جفل وقال: «لا تقولي ذلك».

- «أو من يعرف؟ لربما أصبحت لورين أمًا عازبة.. في النهاية كنت ستعود إليها».

- «لا يمكننا التحدث عن الاحتمالات.. ما حدث قد حدث».

- «لا، لقد قمت باختيار، ثم قمت باختيار آخر.. ثم، حسنًا، أن تعرف البقية».

وصلنا لأعلى السلم.. توقفت لالتقاط أنفاسي ثم أكملت سيري. كان متأخرًا عني بخطوة وقال لي: «لماذا لم تخبريني بكل هذا من قبل؟».

«حدث الأمر منذ وقت طويل.. ربما لم أكن لأخبرك إن لم يحدث ما حدث للورين...».

قال لي وهو يأخذ نفسًا عميقًا، «أنا أعرف.. أريد أن أخبرك بشيء أيضًا.. لقد أصابها الاكتئاب منذ شهرين.. لم تكن تريد مني أن أخبر أحدًا عما حدث في نهاية أغسطس...». مسح أنفه مرة أخرى بظهر يده.. أعطيته منديلًا مجعدًا من جيبي، والذي لن يستخدمه على الأرجح.. لطالما لم يحب أن يمسح أنفه.

«أخبرتني هيدرا أن لورين كانت تدخن سيجارة خلسة، وتبكي في حفلة الشواء بآخر مرة رأتها فيها».

«نعم، لقد كانت محطمة.. بعد أن أنجبنا برين، أرادت لورين صبيًا.. حاولنا كثيرًا لكنها لم تحمل أبدًا.. منذ أشهر قليلة حملت أخيرًا، وأظهرت أشعة الموجات فوق الصوتية أنه صبي».

«لم تخبرني».

«لم تخبر برين حتى.. أوصانا الطبيب بالانتظار، وقال إن خطر الإجهاض يزداد مع تقدم العمر.. كانت لورين في السادسة والثلاثين.. أرادت أن تبقي الأمر طي الكتمان.. ثم فقدت الطفل».

«أوه، كم الأمر صعب عليكما.. لم يكن لدي أدنى فكرة».. بحثت في ذاكرتي عن شرب لورين للكحول بكميات أكثر مما ينبغي ومغازلتها لناثان.. هل كانت تفعل كل هذا لتنسى حزنها؟

قال «كانت تكتم الأمر بداخلها».

«يا لها من خسارة فظيعة.. لا بد أن الأمر كان صعب للغاية».

«كان كذلك، لكنها لم تكن تقترب من ذلك الجرف.. لم تكن لتفعل لو كانت بوعيها. لم تكن لتفعل لو كانت لورين السعيدة. لكنها لم تكن كذلك».

«هل تعتقد أنها ربما تكون قد انتحرت؟ حتى مع كل المؤشرات؟».

قال جنسن بوجه يملأه الألم: «لا أعرف ماذا أعتقد.. لقد أرادت أن تكون سعيدة مرة أخرى.. أعلم أنها أرادت ذلك.. كانت تحاول بأقصى جهدها.. لكن عندما مات الجنين، أعتقد أن جزءًا من لورين قد مات أيضًا».

الفصل الرابع والعشرون

عدت إلى منزلي وشعرت بأن اليوم يدور بداخلي دوران الأرض حول محورها. وعلى الرغم من أنني أخذت عطلة من العمل لبعض الأيام، إلا أنني كنت أرد على رسائل البريد الإلكتروني الواردة من أولياء الأمور والمعلمين، الذين يرغبون في إرسال الطلاب إلى الفحص.. كما كنت أعمل على برامج التعليم الفردي، وأتصفح تصميمات دعوات الزفاف؛ التصميمات الأولية التي أنشأتها لحفل زفافي أنا وناثان. كان هناك تصميم لديه حدود بشكل الفروع المورقة، وتصميم آخر يحمل رسم خواتم زواج المتشابكة، وآخر مليء بالورود.. لكنني كنت مشتتة.. عاد عقلي إلى جنسن والمفاجأة في عينيه عندما أخبرته أنني خططت للزواج منه، وتحول تعبيره إلى الحزن عندما أخبرني بشأن لورين.

أصبحت تصرفاتها تبدو لي بلون جديد وحزين.. كان من الممكن أن أكون أكثر تسامحًا إذا كنت أعرف بالأمر.. لم أكن لأتجاهلها عندما قالت إنها بحاجة للتحدث معي.. لكنني كنت لاأزال أحمل ضغينة محبوسة بداخلي من الماضي.

لكي أعود إلى الحاضر، سحبت بطاقة عيد الميلاد الرومانسية التي أرسلها لي ناثان بالخريف الماضي.. كانت تحمل قلبًا مصنوعًا من خيوط حمراء على المقدمة ومكتوب عليها...

أنا أحبك.. هذا كل ما في الأمر.

قرأت الرسائل التي أرسلها من هاتفه.

«أحترق شوقًا لأراكِ... اشتريت وسائد جديدة... لنستحم معًا عندما تأتي إلى هنا.... أنا بمنزل والدتها... لا يمكنني التوقف عن التفكير في الليلة الماضية.... كنتِ جامحة».

اطلعت على هداياه؛ قلادة فضية رقيقة مع تميمة بشكل حوت أوركا كذكرى لأول رحلة لمشاهدة الحيتان في جزيرة سان خوان، ودفتر مذكرات يدوي الصنع بغلاف من الكتان. تخيلته يتكئ على الوسائد في فراشي وهو يضحك.. تحولت خسارتي التي حدثت منذ فترة طويلة إلى مكسب. إذا لم ينته الأمر بلورين وجنسن معًا، فربما لم أكن لأقابل ناثان أبدًا.. لكن لكانت لورين لاتزال على قيد الحياة.. أو لا.

جنسن على حق.. لا يمكنني التحدث عن الاحتمالات.. لربما كان كل شيء ليصبح كما هو الحال عليه.. يجب أن أنسى.. حاولت أن أجد العزاء في تفاصيل حياتي مثل غسل الملابس، ووضعها في الأدراج.. صادفت حمالة صدر رفيعة مثل تلك التي أعارتها لي لورين منذ أعوام عندما سُرقت خاصتي في حمام السباحة بالمدرسة الثانوية.. أخذت فتاة من المدرسة حمالة صدري، وألقت بها

في الرواق. وقفت في البرد أغطي صدري.. تذكرت صوت غلق الخزانات وصرير الصنابير في الدش والضحك.. تذكرت صوت النعال على بلاط الأرضية ورائحة الكلور المعلقة في الهواء.

كنت أصرخ على الفتاة «لماذا فعلتِ ذلك؟»، بينما كانت الفتاة تضحك في وجهي. أتت لورين ودفعتها ثم هرعت للبحث عن حمالة صدري، لكنها كانت قد اختفت، شخص ما أخذها.. أعطتني حمالة صدرها، وعادت دون واحدة في ذلك اليوم. لقد كانت تدافع عني ليس ضد شباب الأخوية الثمال فقط، بل ضد قسوة الفتيات الأخريات أيضًا.. لكن وقوعها في حب جنسن كان أقسى الأشياء التي فعلتها لي. لم تكن متعمدة ولكن لايزال الأمر قاسيًا.

عدت إلى منزل ناثان في المساء، وأخبرته بما أخبرني به جنسن.

قال لي ناثان وهو يضع يده فوق يدي على مائدة الطعام: «الأمر برمته مأساوي. كيف حالكِ؟ أعلم أن هذا الأمر يعيد لكِ الذكريات».

قلت له: «يعيد ذكريات سيئة وجيدة.. أتمنى لو كانت أخبرتني عن إجهاضها.. لكن أحيانًا تكون الأشياء الأكثر حزنًا هي الأشياء التي نبقيها أكثر سرية.. لا نتحمل الحديث عنها.. كما أننا لم نعد أنا وهي وأصدقاء مقربين».

سألني جنسن «هل كان لديها أي أصدقاء مقربين؟».

«أعتقد، بعض الممرضات في المستشفى.. لأنها كانت تعمل بمناوبات طويلة».

أماء لي ناثان ثم نظر بعيدًا.. كان يحاول أن يكون منتبهًا، لكن من الواضح أنه مشتت.. كان يحرك الفاصوليا الخضراء بشوكته وينظر إلى هاتفه.

سألته: «هل هناك ما يزعجك؟».

نظر إليّ وفتح فمه ثم أغلقه ونظر إلى طبقه، وقال: «لقد كان يومًا صعبًا.. كان هناك حالتا وفاة بالعمل.. أحدهم كان طفلًا توفي بحادث مروري.. لم يكن يرتدي حزام الأمان.. أكره حالات الوفيات التي كان يمكن منعها... و...».

«وماذا؟».

شد على يدي وقال: «هناك صديقة لي في مأزق، على ما أعتقد».

«هل تريد التحدث بالأمر؟».

أفلت يدي وقال: «لا أريد أن أزعجك».

أجبته «لن تزعجني».

- «لقد مررتِ بما يكفي من حزن.. يمكنني التصرف».

- «يجب ألا تتصرف وحدك».

- «لا، سأفعل.. الوضع معقد».

قلت له وأنا أتراجع «حسنًا، أنا موجودة إذا أردت التحدث».

«أعرف ذلك وأقدّره».

بعد العشاء كان ناثان صامتًا، ونحن نقوم بتنظيف المطبخ.. صب كأسًا من مشروب سكوتش، كما لو كان يحاول تهدئة أعصابه.. صعدت أنا على الأريكة ودونت ملاحظات حول ما سأقوله في حفل تأبين لورين.. كنت أراه ينظر إليّ بين الحين والآخر وعينيه مضطربتين.. أعلم أنه يواجه مواقف فظيعة ومأساوية كل يوم. لم أضغط عليه، وأعطيته المساحة التي يحتاجها.

استيقظتُ على صوت شاحنة منخفض.. أثناء نومي شعرت بأن لورين قريبة مني تطاردني بأحلام مشوشة.. للحظة نسيت أين كنت.. ثم تذكرت أنني بالفراش مع ناثان.. مددت يدي محاولة الرؤية في الظلام. كان الغطاء في حالة من الفوضى لكن ناثان لم يكن موجود.. هل تم استدعاؤه للعمل؟ ها نحن ذا مجددًا. سمعت صوت المحرك والإطارات، وهي تسير فوق الحصى.. تداركت أنفاسي وخرجت من الفراش ثم ارتديت ردائي وربطته حول خصري.. كنت أسمع أنفاسي وأنا أسرع حافية القدمين عبر الرواق إلى المطبخ.

كان يقف ناثان في الممر، شاحنته تدور والعادم يتصاعد في ضوء القمر.. دخل السيارة وقادها نحو الشارع.. أخذت مفاتيح سيارتي وارتديت حذائي وسرت خارج الباب وأغلقته وأنا مندهشة من مدى سرعتي.. لا وقت للتفكير بملابسي.. كانت شاحنته قد اختفت بالفعل خلف المنحنى، عندما خرجت بالسيارة.. انعطف يمينًا وتتبعته، رغم أنه كان بعيدًا أمامي.

لقد نسيت هاتفي الخلوي لكن لا وقت للعودة.. تبعت ناثان طوال الطريق عبر البلدة التي تغط بالنوم.. مررت بمتجر البقالة ثم البنك على طول طريق ووترفيو، ثم متاجر الملابس المغلقة والمكتبة.. بقيت بعيدة عنه.. لماذا أفعل ذلك؟ قال لي أبي ذات مرة أن أظل على ثقة بالعالم، لكن حاسة الفضول تحكمت بي.. بعد حدوث كارثة لورين، وجنسن نصحني أبي ألا أنعزل وألا أشك في الجميع على أنهم مخادعين.. رغم ذلك لا يمكنني منع نفسي.

سلكت شاحنة ناثان الطريق خارج البلدة.. توقعت أن يتوقف يمينًا عند مركز الإسعاف لكنه واصل القيادة. صدمت يدي بعجلة القيادة وقلت: «لقد فوّته! ستستدير، أليس كذلك؟».

لكنه لم يفعل.. وصلنا إلى الطريق السريع الضيق المجاور للشاطئ.. واصل ناثان القيادة لمسافة ميلين آخرين، مرورًا بالمطعم، ثم انحرفت سيارة سكن متنقلة بالحارة المرورية أمامي، وحجبت رؤيتي.. صرخت قائلة «افسح الطريق!».. لم يمكنني المرور على هذا الطريق المتعرج ذي المسارين. بعدها أبطأت سيارة السكن المتنقلة واتجهت إلى موقع المخيم.. كان الطريق مظلمًا بالأمام.. أسرعت مرورًا بفندق وغابة مظلمة ثم محطة وقود لكن لم يكن هناك وجود لشاحنة ناثان.

توقفت بجانب الطريق، وأرحت جبهتي على عجلة القيادة.. ماذا الآن؟ تحركت سيارة دورية تابعة للشرطة ببطء بجانبي.. أخفضت رأسي متظاهرة بأنني أنظر إلى هاتفي على حجري.. لكنني بغباء نسيت هاتفي، ونسيت رخصة قيادتي أيضًا... ما الفائدة من كل هذا؟

قلت لنفسي: «مرحبًا يا والدي.. حاسة الفضول خانتني».

كان الأمر منذ زمن طويل.. لقد كبرنا جميعًا.. لا بد أن ناثان يملك سببًا وجيهًا للقيادة على الطريق حتى هنا.. خرجت إلى الطريق واستدرت عائدة أدراجي.. وأثناء مروري بالفندق وببطء هذه المرة، أنارت اللافتة ذاكرتي. فندق أوك تيراس.. يظهر الشعار رسمة شجرة بلوط فوق ورقة بلوط. يشبه الشعار الموجود على بطاقة الفتح التي وجدتها.. تسارع نبضي فجأة فأنا مررت بهذا الفندق لكنني لم أمكث به أبدًا. أبطأت ونظرت على ساحة الانتظار بينما أمر.. يا لسخافتي، ما الذي أبحث عنه؟

قدت بالمنعطف إلى محطة الإسعاف.. كانت شاحنة ناثان واقفة في مكانه المعتاد بجوار المبنى.. بالطبع هو في العمل.. ما الذي كنت أفكر فيه وأنا أراقبه مرتدية ثوب النوم والنعال أمام عجلة القيادة كزوجة مريضة بالشك؟

الفصل الخامس والعشرون

استلقيت على فراش ناثان في هذه الغرفة المألوفة مع نوافذ السقف والأدراج الريفية، التي يرافقها صوت البحر، والذي يشبه التهويدة المريحة. كان ضوء الصباح يشكل أنماطًا من الظل على السقف.. كلما نظرت لفترة أطول تظهر ألوان متلألئة؛ القليل من الأحمر والذهبي المختلطين باللون الرمادي.

أخذت هاتفي من فوق الطاولة، وأرسلت رسالة إلى ناثان.

«أريد أن أطمئن عليك، لا يمكنني النوم».

رد على رسالتي: «أفتقدك».

- «هل كل شيء على ما يرام؟».

- «نعم، لماذا؟».

- «أهناك أي مشاكل في العمل؟».

- «دائمًا، لماذا ا؟».

- «أعني، اعتقدت أنك ستغادر في الصباح».

- «تم استدعائي مبكرًا».

أردت أن أسأله لماذا مر عبر محطة الإسعاف.. ربما كان بحاجة إلى التوقف عند المتجر أو للتزود بالوقود.

قمت وارتديت ملابسي، وذهب إلى منزلي لألملم شتات أفكاري.. أتمنى لو باستطاعتي مشاركة فنجان من الشاي بالنعناع مع أبي.. كان النعناع مشروبه المفضل.. قلت له: «أحتاج منك أن تذكرني بالخير في العالم».. ظل يبتسم لي من صورته بعيون ناعمة ومتسامحة.

اتصلت بي الشرطة بعد الظهر لإخباري بأنهم لم يصلوا لأي خيوط تدل على عملية اقتحام منزلي. كما أرسل لي ناثان رسالة يخبرني فيها بأن الفاحص الطبي سيفرج عن جثة لورين قريبًا، وأن أسرتها استقرت على موعد حفل تأبينها.. أما أنا فمازلت في عطلة من العمل لكن الأعمال الورقية تستمر في التراكم ومازال عقلي يفكر بشعار فندق أوك تيراس.. هل من الممكن أن تكون لورين قد ذهبت إلى هناك؟ فلم يطالب أي شخص آخر بالبطاقة.

اتصلت بجولي في العمل.. كانت في استراحة بين الصفوف.

قالت لي «الأطفال يفتقدونك.. لكن الوضع جنوني هنا.. أنا سعيدة لأنكِ تحظين ببعض الراحة من العمل».

- «أيمكننا التحدث؟ أشعر بالذعر قليلًا».

- «أيمكنكِ لقائي هنا بعد المدرسة؟».

- «سأكون هناك».

عندما أوقفت سيارتي بساحة انتظار مدرسة ترانكيل كوف الابتدائية بالساعة الثالثة، كان الطلاب يخرجون ويتسابقون للركوب بحافلاتهم.. على الرغم من أنني أفتقد النشاط النابض بالحياة، إلا أنني لا أريد التحدث مع أي شخص الآن. انخفضت بمقعد السائق في محاولة للتخفي.. لكن تم كشف أمري عندما رآني تومي آرونسون؛ صبي رائع يبلغ من العمر عشرة أعوام، أعالجه بسبب مشكلات التخاطب المتعلقة بمتلازمة داون. ركض مسرعًا عبر ساحة انتظار السيارات باتجاهي، وكانت حقيبته ترتد على ظهره.. طرق على نافذتي فجلست باستقامة، وابتسمت له ثم أنزلت نافذتي.. حتى الآن لا وجود لجولي.

قال لي وهو يهتز فرحًا: «سيدة بارليت، سيدة بارليت! اعتقدت أنكِ متِ».

«أنا بأفضل حال»، قلتها وأنا أفتح الباب ثم خرجت لأعانقه.. هرعت والدته خلفه وهي تزيح حزام حقيبتها فوق كتفها.. قالت لي: «أعتذر، كنت أتحدث إلى...».

قلت لها: «لا عليكِ».

سألني «متى ستعودين؟».

- «خلال بضعة أيام».

- «هل أنتِ مريضة؟ أفتقدك.. فأنا أنسى كيف أتحدث».

انفجرت ضحكًا وأجبته: «أنا أيضًا أفتقدك.. ولكنك لن تنسى أبدًا كيف تتحدث».

ابتسامته الودودة أثلجت صدري.

قالت والدته وهي تجر يده: «هيا، أتريد الذهاب إلى صف السباحة؟».

«مع جيمي وشونا وكاس و...».

«مع جميعهم»، قالتها ثم ابتسمت بوجهي وأردفت لي: «على الأرجح تحاولين أن تقضي عطلتك؟».

«عطلة، نعم» قلتها، وأنا أشعر بالارتياح لمقابلة شخص لا يبدو أنه يعرف عن موت لورين.. شاهدتهم وهم يغادرون وتومي كان يلوّح لي. خرجت جولي من المدرسة واندفعت نحوي، كما لو كانت تقضي فترة بالسجن.. فتحَت باب الراكب ودخلت مسرعة.

«أسرعي، لنذهب من هنا».

قدت إلى الممر بالقرب من الحديقة المواجهة للشاطئ، وأنا بالكاد أصدق أن حياتنا طبيعية.

تحركت جولي إلى المقعد الخلفي بمجرد وقوفنا، وبدلت ملابسها لترتدي سروال المشي وحذاء الركض البنفسجي، ثم قالت لي «يا له من يوم».. وبمرور دقيقة واحدة كنا نسير على الممر.. أردفت جولي «كان على البقاء لوقت متأخر لحضور اجتماع.. لقد أنقذتِني.. ما بكِ؟ أنتِ تبدين شاحبة.. هل كنتِ تتسكعين مع مصاصي دماء في الآونة الأخيرة؟».

«لم أنم جيدًا».. أخبرتها عن مغادرة ناثان ليلًا، وأنني تتبعته.. أريتها بطاقة الفتح التي تحمل شعار شجرة البلوط.. «ربما ذهب إلى هذا الفندق».

ضحكت قائلة: «أتظنين أنه التقى بعشيقة هناك؟».

«لا، لا أظن ذلك، لكنني فقدت أثره قليلًا عندما تتبعته».

«أتتحدثين بجدية، فكري فيما تقولين.. أنتِ على وشك الزواج من هذا الرجل، ولكنك تراقبيه! أتصدقين حقًا أنه متورط بعلاقة غرامية؟»، قالتها وهي تسير مسرعة، بينما كنت أسرع لألحق بها.

- «أنتِ على حق.. أنا لا أعرف ما أفعله.. فأنا أثق به...».

- «لكنكِ تتبعتيه.. لماذا لم تتصلي به فقط؟ أو تسأليه عما يفعل؟».

- «هذا من شأنه أن يوفر له فرصة للكذب عليّ واختلاق قصة».

- «تعتقدين أنكِ إذا تتبعتيه بخبث فسيمكنك إلقاء القبض عليه متلبسًا.. قرأت للتو هذه العبارة في رواية.. أحب وقع كلمة متلبسًا».

- «كفي عن ذلك! لن أجده مع امرأة أخرى.. لم أكن أفكر... كنت فقط...... ماتت لورين للتو.. وهو ذهب للخارج تلك الليلة، ثم خرج مرة أخرى وتجاوز محطة الإسعاف».

- «يا إلهي يا ماريسا.. سوف تدفعين نفسك نحو الجنون».

- «أعرف، رأسي مشوش».

- «أتعتقدين أن هذا له علاقة بما حدث في الماضي؟ مع جنسن ولورين؟».

- «لا، لا أدري.. أنا لا أشك بالأمر.. أنا... مشوشة.. حسنًا، أنا أشك بالأمر».

- «إذًا تحدثي مع ناثان.. قولي له أنكِ تتبعتيه مرتدية... ماذا كان؟ قميص نوم؟».

- «رداء نوم عادي».

- «أوه، ممل.. أو اذهبي إلى الفندق واسألي عن البطاقة».

- «لن يعطوني أي معلومات شخصية عن عميل.. سوف يأخذون المفتاح فحسب وسينتهي الأمر هكذا».

- «بإمكاننا أن نذهب إلى هناك ونجرب كل الأبواب.. هل سيساعد ذلك؟».

قلت ضاحكة «سيتم القبض علينا.. ولن تعمل البطاقة على أي حال».

«اسمعي، خطيبك ليس زير نساء.. ربما لا ينبغي أن أقول ذلك. الكلمات الأخيرة الشهيرة، أليس كذلك؟ أنا متأكدة من أنه ليس خائنًا بنسبة ٩٩,٩٩ بالمئة».

قلت لها «لكن ربما لورين كانت خائنة.. لا أحد آخر طالب بالبطاقة.. قالا جنسن وهيدرا إنها ليست ملكهما».

- «ماذا عن زوج هيدرا ما اسمه؟».

- «كيث.. أنا متأكدة من أن هيدرا سألته عندما أرسلت لها رسالة».

فرقعت جولي إصبعها في الهواء وقالت «آه، ولكن، إذا كان ملكه، فسيقول إنه ليس له، أليس كذلك؟».

توقفت متجمدة وقلت: «هل تقصدين أنه كان يجتمع بلورين في الفندق؟»، حاولت أن أزيل الفكرة من عقلي ثم أردفت: «لا أستطيع افتراض هذا.. هذه قفزة هائلة.. لقد بالغنا بما فيه الكفاية».

«أنا أفترض فحسب.. من الممكن أن يكون ملكه».

قلت لها: «أو ربما من الممكن أن يكون للورين.. لن يكون ذلك خارج نطاق الاحتمالات».

- «هل تملك الشرطة أي خيوط؟ وكيف حال جنسن؟».

- «مُدمَر.. قال لي شيئا عن لورين.... لا أعرف إذا كان ينبغي على أن أقوله».

- «أنا صديقتك المقربة!».

- «لا تخبري أحدًا، حسنا؟ لورين مرت بالإجهاض منذ وقت ليس ببعيد.. كانت حزينة للغاية لهذا السبب».

فتحت جولي فمها في صدمة، ثم قالت «لورين المسكينة.. أنتِ الآن تفكرين في أنها انتحرت؟ هذا مأساوي أكثر من القتل».

- «ربما كانت مكتئبة، لكنها لم تكن انتحارية.. لكن لسبب ما شعرت بأن جنسن أرادني أن أظن أنها كذلك».

- «الآن تعتقدين أنه قتلها».

قلت «لا أدري».

توقفت جولي لترى مجموعة كبيرة من البط بالماء، ثم قالت «حفل التأبين غدًا.. يقولون إن القتلة يحبون حضور الجنازات.. إذا دفعها أحدهم، فسوف يكون هناك».

«أعتقد أنكِ تشاهدين الكثير من المسلسلات البوليسية».

قالت: «الأمر حقيقي.. يكون هناك دائمًا شخص لا يبكي».

«هذا لا يعني أي شيء.. بعض الناس يتحملون الأمل دون إظهاره، خاصة إذا كانوا في حالة صدمة».

قالت لي: «لكنكِ سريعة البديهة.. أراهن أنه يمكنكِ ملاحظة الأمر.. فقط راقبي الحضور».



الفصل السادس والعشرون

كانت الكنيسة بجوار مقبرة ترانكيل كوف، عبارة عن مبنى عصري من الخشب والطوب تحيط به غابة. يوجد لوحة على الجدار مكتوب عليها «كنيسة القديس برنابا الأسقفية، بُنِيَت بمحبة السكان المحليون».. لقد أتيت إلى هنا من قبل، ليس في الكنيسة، لكنني تجوّلت في المقبرة، وقرأت النقوش على شواهد القبور.

دخل الموكب الرسمي إلى الداخل، وكان يرتدي بعض الحضور اللون الأسود والبعض الآخر يرتدون ملابس ملونة.. هبت الرياح خلسة، من خلال قمم الأشجار. وملأت رائحة إبر الصنوبر أنفي.

رحب بنا مسؤول الكنيسة الشاب عند المدخل، بينما كان يسلمنا برنامج حفل التأبين.. على غلاف الكتيب كانت لورين تبتسم بصورة ملونة بشعرها الداكن الذي يحيط وجهها وشفاها الممتلئة المنحنية إلى أعلى في ابتسامة لعوب.. كانت عيناها متألقتين ومليئتين بالحياة.. كُتب تحت الصورة «في ذكرى لورين إكلوند»، مع تاريخ ميلادها ووفاتها.

فكرت برأسي «أوه، لورين ماذا حدث لكِ؟».. أتصور أنها ستدخل من الباب في أي لحظة الآن وتلوح في الأفق، وتبتسم قائلة: «إن كل ذلك كان مزحة.. كانت فقط في عطلة».

دخلنا إلى الكنيسة ووقّعت كتاب الحضور، ماريسا بارليت.. كتبتها بالقلم الأسود وتساءلت عما إذا كنت سأغير اسمي، وأبدأ التوقيع باسم ماريسا بلاك.. أين ناثان؟ من المفترض أن يقابلني هنا.

جلست على مقعد خشبي فارغ بالخلف، وأنا أتفحص الكنيسة.. لا علامة على وجود ناثان.. كان هناك أناجيل وعبوات صغيرة من المناديل خلف المقاعد.. النوافذ الزجاجية الملونة مستطيلة الشكل تطل على الغابة.. وفي الجزء الأمامي من الكنيسة ألقت نافذة زجاجية أكبر بكثير ألوان دافئة من الضوء على صندوق ذهبي صغير يحمل رفات لورين.

بالمقاعد رأيت زملاء لورين وأصدقاءها ومعلمي برين من المدرسة، وغيرها من الوجوه المألوفة. كانت ريان ترتدي بدلة سوداء وتجلس بجانب آنا في الصف الأوسط. وكانت آنا ترتدي فستانًا فيروزيًا داكنًا وسترة سوداء.. أما المحقق فكان يجلس وحيدًا أمامنا بعدة صفوف، مرتديًا ملابس سوداء بالكامل.

دخل جنسن مع والديّ لورين وبرين وكارينا وأقارب لهم لا يمكنني تحديد هويتهم، ثم جلست العائلة في الصف الأول.. بعدها دخل كاهن من الباب مرتديًا ملابس بيضاء، واتجه إلى الممر الأوسط بمقدمة الكنيسة.. وحتى حينها لم يكن هناك وجود لكيث وهيدرا.

أتت جولي وجلست بجانبي.. أومأت لها قليلًا لكن أبقيت نظرتي للأمام مباشرة؛ حيث كان يخاطبنا الكاهن دون مقدمات.

«أنا هو القيامة والحياة، من آمن بي ولو مات فسيحيا. اليوم نتذكر بحضوركم حياة السيدة لورين إكلوند...».

كانت برين تبكي بهدوء في الصف الأمامي.. شعرت بقلبي ينكسر وتذكرت الكنيسة في شمال سياتل؛ حيث أقيمت جنازة أبي.. اجتمع زملاؤه وعملاؤه لتكريمه في ذلك اليوم الصيفي المشمس، كنت أعرف القليل منهم.. فقد رحلت عن المنزل لأعيش وحدي بالثامنة عشرة. عشت بعيدًا عنه لما يقرب من ثمانية أعوام.. عادت أمي لحضور حفل التأبين.. لم أكن أريدها ببادئ الأمر، لكن عندما جلست جانبي وأمسكت يدي شعرت براحة مؤقتة وشوق عميق.. لم؟ لأمي أن تبقى، ولأبي أن يعود إلى الحياة؟ اشتقت إلى العائلة السعيدة التي اعتقدت أنني كنت أعيش معها في السابق، لكنها كانت مجرد خيال.. غادرت أمي بعد ساعات قليلة، وكانت تلك آخر مرة رأيتها فيها.

صعد أفراد عائلة لورين إلى المنصة واحد تلو الآخر؛ لقراءة القصائد والذكريات. كان هناك الكثير من الدموع والضحك وعرض الصور.. كنت قد نسيت تلك الصورة لاثنتينا، ونحن نرتدي ملابس السباحة، وننفخ فقاعات الصابون في الباحة الأمامية حين كنا بالثالثة عشرة أو الرابعة عشرة.

مرت الصور، حفل تخرّج لورين من المدرسة الثانوية، زفافها هي وجنسن.. شاهدت حفل الزفاف لأول مرة كما وصفته لي؛ بالكاد يمكن رؤية بطنها الحامل.

شعرت بالدموع تجري بعيني، ومددت يدي نحو المناديل أمامي.. كان المحقق هاردينج يراقب الحضور ويؤدي عمله.. بينما أتى ناثان متأخرًا وهو لا يزال يرتدي زي العمل.. قفز قلبي فرحًا عندما رأيته يهرع للجلوس بجواري، ويهمس «علقت بالعمل»، ثم شددت أنا على يده.

صعدت برين إلى المنصة منهارة بالبكاء، وقالت: «كانت أفضل أم على الإطلاق...».. كانت صديقتاها ممسكتين بذراعيها وكأنهما يسندانها.. وكانت عيونهن حمراء ومنتفخة.. تحدثت برين عن أعياد الميلاد، وعن تعطل سيارة صديقتها في رحلة، وكيف غادرت لورين العمل وقادت سيارتها لخمس ساعات حتى توصلهما دون أن تغضب. تحدثت عن صنعها لأفضل كعك عيد ميلاد من ثلاث طبقات، وعن كيفية إخبارها أنها يمكن أن تكون أي شخص، وتفعل أي شيء، وكيف عاشت من أجل الآخرين.

كممرضة، اهتمت لورين بالآخرين، لكن ماذا عن حياتها الشخصية؟ حتى قبل أن أجدها مع جنسن.. نظرت مرة من نافذة الشقة ورأيتها تعود متأخرة وتبدل حذاءها ذا الكعب العالي بحذاء الركض، تحت ضوء الشرفة، كما لو كانت لا تريد مني أن أراها.. هل كانت تواعد جنسن سرًا بالفعل؟ هل كانت تعيش لنفسها؟

ماذا عن علاقتها ببرين؟ أخبرتني لورين الشهر الماضي، حين كنا بحانة شورلاين نحتسي المشروب «طفلتي ذكية ونبيهة للغاية، مثل والدها تمامًا».. بعد كأسين من مشروب جِن أند تونيكس رمشت لورين بعينيها نحو النادل.. بدت فخورة ببرين، ومع ذلك خططت لإرسال ابنتها إلى مدرسة داخلية.. قالت لي برين: «أرادت فقط أن تتخلص مني».. هل هذا صحيح؟

تذكرت أعين برين الباردة والطريقة التي كانت غاضبة بها، عندما علمت أن والدتها قد سرقت جنسن مني طوال تلك الأعوام الماضية. لكنها الآن بالتأبين تبدو حزينة حقًا.

نظرت ريان إلينا ولوّحت آنا نحونا.. قالت والدتها شيئًا لها، ثم نظرا نحو الأمام مجددًا.. نزلت برين من المنصة وهي تترنح بسبب خسارتها الفادحة لوالدتها على ما يبدو. إذا لم تكن حزينة فعلًا، فهي تقدم أداء تمثيليًا رائعًا.

كنت قد كتبت ما أريد قوله على ورقة مطوية فوق حجري. ولكن عندما حان الوقت للتحدث لم أنظر بها أبدًا. لحظاتي مع لورين وكرمها وكل الذكريات تسربت مني، ولكنها لم تكن كافية، وأنا أقف أمام أشخاص، ربما لا يعرفون الجانب الحقيقي من شخصيتها.

قلت «ذات مرة عندما كنت صغيرة، لم يكن والديّ قادرين على تحمل تكلفة دمية باربي، مع أرجل قابلة للثني عند الركبة. حصلت على دمية مقلدة من البلاستيك ذات أذرع وأرجل مفرودة.. رأت لورين كم كنت منزعجة وأعطتني دمية باربي الخاصة بها، وكانت من نسخة ملكة جمال أمريكا.. أعطتني الكثير من الأشياء. عشنا في

نفس الشارع.. بحفلات المبيت، كنا نضحك تحت أغطية الفراش.. لا أتذكر كيف كنا نبدأ الضحك ولماذا كنا نضحك، ولكن في غضون عشر دقائق، كنا نضحك على كل شيء.. كنا نحرك إصبع قدم ونضحك، نتجشأ ونضحك».. لمحت جنسن في الصف الأمامي.. كان يحدق في وجهي ويستوعب كل كلمة.

أما برين فكانت تميل نحوه بينه وبين كارينا وكتفيها يهتزان.. وعندما هبطت عن المنصة مد جنسن يده لأخذ يدي لفترة وجيزة، وأنا أمشي والدموع تنهمر على خديه.

قدم الكاهن الابتهال النهائي، ثم توجهنا جميعًا إلى المكان أسفل الأشجار؛ حيث سيتم نثر رماد لورين.. تجمع الكاهن وأفراد العائلة حول شاهد القبر المصنوع من الجرانيت، كلٌ في حزنه الخاص.. رأيت ريان عبر الأشجار؛ حيث كانت ترشد آنا إلى السيارة.. بقيتُ لفترة وبعد ذلك عانقنا جميعًا جنسن وبرين والعائلة، وقدمنا تعازينا ثم تحركنا إلى الداخل، من أجل الاستقبال، لكن لم يكن لديّ شهية لتناول المقبلات والكعك.

فقدت ناثان في الحشد، لكن جولي كانت تلوّح لي عبر الغرفة.. كانت ترتدي معطفًا من الصوف الأسود، الذي كانت قد تضعه على ذراعها أثناء حفل التأبين. شقّت طريقها نحوي عبر الحشد ثم قالت «سأرحل».

تجمدت وأنا أحدق بياقة معطفها وانزلق الكوب البلاستيكي من أصابعي ثم سقط على الأرض؛ لتنسكب آخر قطرات من عصير الفاكهة.. التقطت الكوب ومسحت السائل بمنديلي.

سألتني وهي تعطيني منديلًا إضافيًا: «هل أنتِ بخير؟».

«أشعر بالقليل من الارتخاء اليوم».. اعتدلت قليلًا ووقفت لمواجهتها، ثم أشرت إلى ياقتها وسألتها: «من أين لكِ هذا؟».

قالت لي: «عم تتحدثين؟».

خرجت الكلمات من فمي وهي تكاد تخنقني «المعطف، قولي لي من أين حصلتِ عليه».. لم ألحظ الزر من قبل، فقد خلعت معطفها قبل أن تجلس بجواري.. الآن، تكشف الياقة التي تصل إلى ذقنها عن الزر، الذي يلمع تحت ضوء الفلورسنت. كان عليه رسم ورقة الشجر واللمعان المعدني، مطابقًا الزر الموجود على الوشاح الذي وجدته طافيًا على الماء بالشاطئ.

الفصل السابع والعشرون

عبست جولي في حيرة، وسألتني «إلام تنظرين؟ هل هناك بقعة على معطفي؟».

قلت لها وأنا أقلب بالصور على هاتفي: «أنا أعرف الزر الموجود على ياقتك».

تدفق الحضور من حولنا في نهر مليء بالهمهمات.

«أي زر؟»، قالتها وهي تسحب ياقتها وتنحني برأسها لتنظر إلى أسفل على الزر.

«نعم، هذا الزر المعدني.. إنه مميز».

قالت وهي تنظر على الصور في هاتفي: «أنا أعلم، أحب هذا الشكل».

قلّبت بين سلسلة من صور الوشاح وقربت الصورة على الزر المعدني، ثم سألتها «أترين؟».

قالت وهي تلمس طوقها: «يشبه هذا الزر».

قلت لها: «لا يشبهه، إنه مطابق له».

التقطت صورة للزر على معطفها، وقلّبت ذهابًا وإيابًا بين صور الزرين.

«تبًا».. قالتها ثم وضعت يدها على فمها، وأردفت «لقد قلت لفظ بذيء في الكنيسة».

- «أترين؟ هل كان للمعطف وشاح مطابق؟».

- «لا أعتقد ذلك، لكن هذا ممكن...».

- «رأيت الوشاح في الماء بالقرب من المكان، الذي عثرت فيه على لورين».

- «تبًا».

همست لها «ها أنتِ ذا مجددًا تقولين ألفاظ بذيئة بالكنيسة».

- «هل تعتقدين أن الوشاح كان لها؟».

- «لم تكن تحب ارتداء الأوشحة، لكن ماذا لو كانت...؟».

- «قد جذبته من القاتل؟ يا إلهي».

التفت الناس ينظرون إلينا.. أرشدتها نحو الباب، لنخرج خلال اليوم الخريفي بالخارج.

«الآن يمكنكِ التحدث بأي ألفاظ تريدين».

وضعَت يديها في جيوب معطفها، وقالت: «تأكدي من متجر ريان.. اشتريت المعطف من هناك.. ربما جاء الوشاح من هناك أيضًا».

«هل اشتريتِ المعطف من آفترلايف كونسيجمنت؟».. قلتها بينما هبت نسمة من الرياح لترفع شعري، وقد بدأ الضيوف في المغادرة والذهاب إلى سياراتهم.

«نعم، منذ بضعة أيام.. لكنني لم أر أي وشاح».

«شكرًا».. وضعت يدي بحقيبتي بحثًا عن مفاتيحي، وأنا عاقدة على العودة إلى سيارتي.

قالت جولي، وهي تسرع لتتبعني: «انتظري، أأنتِ ذاهبة إلى هناك الآن؟».

أجبتها وأنا أجلس على مقعد السائق، «أريد أن أعرف أمر الوشاح».

«لا يمكنني الذهاب معكِ.. لديّ مواعيد.. يمكنني تغيير المواعيد....».

قلت لها: «لستِ بحاجة للذهاب معي».

«ماذا عن ناثان؟».

«سأتواصل معه لاحقًا.. أريد القيام بهذا الشيء بمفردي».

دخلت متجر ريان، وشعرت أنني عدت بالزمن.. كان هناك فستان طويل أبيض من طراز الخمسينيات معلق على الجدار بجوار قميص داخلي أبيض ورداء وردي. كانت التماثيل تعرض قبعات

عتيقة، والمصابيح العتيقة ترسل توهجات ذهبية إلى أحلك الزوايا.. على كل رف يوجد ملابس من الساتان والكريب والقطن بموديلات تتراوح بين العشرينات وحتى الثمانينات.

لا يوجد شبر واحد خالٍ من الملابس.. استكشفت أغرب أنواع القماش؛ فساتين من الساتان، قمصانًا قطنية، فساتين زفاف، معاطف عتيقة، أوشحة، سترات.. كما كانت هناك لافتة على الجدار خلف الطاولة مكتوب عليها «آفتر لايف كونسيجمنت». كانت تفوح رائحة اللافندر الممزوجة مع روائح الأقمشة المتعددة.. وكان ينبعث صوت إديث بياف من سماعتين مثبتتين على الجدار، وكأنه من الماضي.. وكان هناك شابتان تراقبان غرفة القياس في الجزء الخلفي من المتجر.

كانت ريان تقف خارج غرفة الملابس، وتتحدث مع أحد الزبائن في الداخل.. علقّت قميصًا أزرق على الباب وقالت: «إليكِ قياس أربعة.. قولي لي إذا كنتِ بحاجة إلى نمط مختلف».

لم تكن تراني.. تخفّيت خلف أحد الأبواب وقلبي يدق.. ظننت أنني سآتي إلى هنا وأوجّه هاتفي أمام وجهها، مطالبة بمعرفة لمن باعت الوشاح، أو ما إذا كانا المعطف والوشاح لها.. كان يجب أن أذهب مباشرة إلى المحقق، لكنه لم يكن ليشارك استنتاجاته لذلك أحتاج التحقيق بنفسي.

فتشت في الملابس بحثًا عن مزيد من الأزرار المعدنية.. فتشت برف المعاطف وتظاهرت أنني أتفقد الملابس.. لا توجد علامة

على وجود أوشحة أو معاطف بأزرار مشابهة، لكن الأمر سيستغرق وقتًا طويلًا للبحث في مخزون ريان بأكمله.

ذهبت ريان إلى الطاولة واتكأت فوق سطح الزجاج؛ لترتب القفازات والأوشحة في الجزء العلوي من العلبة.. تبدو ريان كعارضة أزياء وهي مرتدية طرازًا انتقائيًا من الأحذية الطويلة وسترة طويلة وجينز قديم وقلادات من الخرز.. لقد عادت من حفل التأبين وغيّرت ملابسها في وقت قياسي.

ها أنا أمشي نحوها وأقول «ريان».

«أوه، أنا لم أراكِ».. قالتها بحذر بينما أضع أنا يدي على الطاولة.. أردفَت قائلة «قلتِ أشياء لطيفة عن لورين.. لقد أعطيتها حقها».

ألقت امرأة ما نظرة سريعة علينا، ثم واصلت البحث في الملابس.

قلت لها «شكرًا لكِ.. أريد أن أسألكِ عن وشاح أحمر به زر معدني».

أسقطت منديلًا مطرزًا لأراه يتحرك نحو الأرض، متدفقًا إلى الخارج، مثل المظلة الصغيرة.. انحنت بسرعة لالتقاط المنديل وأعادته إلى الرف، ثم سألتني «أي وشاح؟».

«كان في الماء تحت الهاوية؛ حيث سقطت لورين».

اتسعت عيون ريان ثم أخفضت صوتها هامسة لي: «هل الوشاح مهم للقضية؟».

- «ربما تكون قد انتزعته ممن دفعها من فوق الهاوية.. لكن المحقق صادر الوشاح».

- «كيف يمكنني المساعدة؟».

- «صديقتي جولي لديها معطف مع زر مطابق.. قالت إنها اشترته قبل بضعة أيام من متجرك.. لقد أخذت صورة له».

«دعيني أرى»، قالتها وهي تميل على الطاولة، بينما أريتها أنا الصورة.

قالت ريان: «نعم، هذه قطعة أنيقة للغاية.. لقد بعت المعطف لجولي.. لم يكن مقاسي، لكنني تمنيت لو كان كذلك».

قلبّت صور الوشاح في الماء، وقلت لها: «الزر مطابق، نفس النقش، أترين؟».

وضعت ريان إصبعها على ذقنها، وقالت: «أنا أتذكر هذا الوشاح.. أعرفه.. فهذا زر مميز ومن الصعب نسيانه.. اشتريت المعطف والزر من نفس المالكة.. وبعدها حاولت البحث عن أزرار مماثلة عبر الإنترنت لكن لم أجد مثله أبدًا.. إنه نادرة».

تسارع نبضي وتخدرت يداي، وأنا أسألها: «هل تتذكرين من اشترى الوشاح؟».

نظرت نحو غرفة الملابس؛ حيث كانت تلقي الزبونة سروالها على الباب.. ثم نظرت إليّ مجددًا، وقالت: «ربما لا يجوز أن أبحث عنه، لكن في ظل هذه الظروف....».

- «أرجوكِ.. كانت لورين صديقتي المقربة حين كنا أطفالًا... قد يكون هذا الوشاح مهمًا.. قد يعرف أيًا كان من يملكه أو فقده شيئًا».

- «أو ربما قتلها».

- «نعم... هذا صحيح».

- «لقد كان يوم السبت قبل الماضي، قبل عشاء خطبتك.. أتذكر الأمر؛ لأن هذا الوشاح كان مميزًا جدًا.. باعته مساعدتي.. فعندما جئت يوم الأحد للعمل كان قد تم بيعه».

ضغطت ريان على شاشة جهاز الآي باد المسند على حامل فوق الطاولة.. قامت بالتصفح وتحريك وتقليب البيانات، ثم أشارت لي لآتي بجانبها. أشارت على الشاشة إلى عملية بيع مكتملة في الساعة ٤:٣٥ بمساء يوم السبت قبل حفل العشاء.. كانت عملية شراء لعدد قليل من العناصر بأسعار مختلفة عن طريق بطاقة الخصم المباشر.

سألتها: «هل الوشاح مدرج هنا؟».

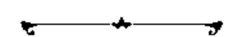
«الإيصال لا يظهر هذا المستوى من التفاصيل.. اعتدت بالماضي أن أدخل كل عنصر مع صورة له، لكن أصبح لديّ الكثير من الأشياء الآن فتوقفت عن الأمر. هذا هو».. أشارت إلى عنصر تحت بند (ملابس - صوف)، تم بيعه مقابل ٥١ دولارًا، بالإضافة إلى الضريبة.

سألتها: «كيف عرفتِ أنه الوشاح؟».

«كان الشيء الوحيد بهذا السعر، وهو العنصر الوحيد المصنوع من الصوف.. رفعت من ثمنه؛ لأنه كان جميلًا للغاية».

«من اشترته؟ هل بإمكانك معرفة ذلك؟».

قالت ريان، وهي تمرر إصبعها على الشاشة «نعم، لأنها استخدمت بطاقة الخصم. ها هي.. لقد بعت الوشاح إلى هيدرا بلاك».



الفصل الثامن والعشرون

كيث وهيدرا لا يستجيبان للمكالمات.. عندما عدت إلى منزلي، حاولت أن أتذكر ما كانا يرتديانه عندما وصلا إلى منزل ناثان. فعندما خلعت هيدرا معطفها لم يكن هناك وشاح.. كانت ترتدي فستانًا بلون الزمرد.. وبحلول الصباح كانت قد بدلت ملابسها وارتدت سروالًا وسترة.. هل قامت بوضع الوشاح في حقيبتها أو كانت تضعه بمعطفها؟

كنت أعزف موسيقى شوبان على البيانو الخاص بي.. تدفق اللحن الأنيق الحزين من أصابعي، وأن أسأل صورة أبي «أتعتقد أن هيدرا قاتلة؟».

سمعت صوت أبي في رأسي، وهو يقول: «أعتقد أنكِ تفتقدين صديقتك».

«لكن شخص ما قتلها، وأريد أن أعرف من كان لأن....».

«أنتِ تشعرين بالذنب لأنكِ لم تسامحيها قبل وفاتها».

تصلبت أصابعي على مفاتيح البيانو وضاق صدري، لذلك قمت واتصلت بجولي؛ فأنا أحتاج أن أسمع صوتها المهدئ.. أريد أن أسمع وجهة نظرها.

قالت لي عبر الهاتف، «يجب أن تخبري المحقق، يجب أن يعرف أن هيدرا اشترت هذا الوشاح».

«أرسلت له رسالة، لكني أشعر بالسوء، فهيدرا ستكون قريبتي.. أنا متأكدة أنه بوسعها تفسير الأمر.. آمل أن تعيد الاتصال بي».

«ماذا كان رأي ناثان؟».

«اتصلت به، لكنه لا يستطيع اتخاذ موقف.. باستثناء أنه قال من الممكن أن يكون الأمر محض صدفة»، قلتها وأنا أعيد صياغة كلامه.

«ألا يرى أن الأمر مهم؟ أعرف أنه رجل جيد، لكن بربك!».

نعم بربك يا ناثان.. قلت لها «إنه أكثر ميلًا لرؤية الخير بالناس وعدم الشك بهم. مثل أبي.. ربما هذا هو أحد الأسباب التي تجعلني أحبه كثيرًا».

«دعينا نأمل أنه على حق».

لبقية اليوم، وبينما كنت أتابع التقارير واستعد للعودة إلى العمل كنت أفكر في كلمات ناثان لي بلهجته الحذرة، عندما أخبرته عن الوشاح.. «صدفة... أنتِ تبحثين عن روابط بينما قد لا يكون هناك أي رابط».

عدت إلى منزله في الوقت المناسب لتناول العشاء.. كان قد أعد مقليات، لكنه بالكاد كان يأكل.. كتفاه كانا متراجعين، وكان مشتتًا وينظر إلى طعامه أكثر مما ينظر لي.

«ما خطبك؟ تحدث معي».

وضع شوكته على طبقه الذي كان به خضرواته، التي لم يمسها ثم حك يده بجبينه وقال: «أنا آسف إذا بدوت مشتتًا».

«لست ضعيفة يا ناثان.. يمكنني دعمك بأيٍ كان ما تمر به».

أمسك بيدي بين يديه ونظر بعمق في عيني ثم قال: «أنا متعب فحسب، لكنني بخير، أم أنتِ فلستِ كذلك».

«أنا بخير..».

«لا أنتِ لستِ بخير.. تحاولين إخفاء الأمر، ولكني أرى حزنك».

«أنا بخير، أنا حقًا بخير».. قلتها وأنا أشعر أن الدموع تهدد بالنزول مرة أخرى.

قبّل خدي وأزاح شعري بعيدًا عن جبهتي ثم قال: «أعلم أن الأمر صعب عندما نفقد الأشخاص الذين نهتم بهم».

قام بعدها من الطاولة وذهب إلى خزانة الخمر، وصب لنا كأسين من النبيذ. انضممت إليه على الأريكة، ووضع ذراعه فوق كتفي.

قال لي: «أحب الجلوس هنا معكِ والاستماع إلى الرياح».

استقررت بين ذراعيه وأجبته: «الشتاء قادم.. أستطيع أن أشعر به».

أخذ الكأس من يدي ووضعه مع كأسه على الطاولة، ثم قبّلني طويلًا وبعمق.. قادني إلى غرفة النوم ومارسنا الحب.. لكنه كان متعجلًا ومتوترًا، كما لو كان يحاول إبعاد الأشباح التي تطارده.. بعد ذلك استلقينا بهدوء في الظلام، ثم غلبني النوم.. عندما استيقظت مرة أخرى كان الوقت قد تعدى منتصف الليل.. قمت لأجلس بالفراش، بينما كان الظلام يغرق الغرفة.. كنت وحدي مجددًا وكان المنزل صامتًا بشكل غير طبيعي.

قمت وارتديت ردائي وخفي، ثم ذهبت إلى المطبخ، ونظرت خارج النافذة.. شاحنته غير موجودة.. يجب أن أتصل به أو أرسل له رسالة لأسأله عما إذا كان قد تم استدعاؤه للعمل.. لكن مرة أخرى وبدلًا من ذلك بدلت ملابسي وارتديت سروالًا جينز، وحذاء وسترة واتجهت إلى سيارتي.. هذه المرة أخذت محفظتي وهاتفي. اتبعت حدسي، وسلكت الطريق خارج البلدة إلى فندق أوك تيراس في الظلام الخالي والبارد. كان بإمكاني العودة إلى المنزل والنوم والتظاهر بأنه غادر مبكرًا للعمل مرة أخرى، وأفترض أن لديه مهمات ليديرها بعد منتصف الليل. أو يمكنني الاستمرار في القيادة والتمني أن أكون مخطئة.

قلت لأبي بعقلي: «أواجه مشكلة صغيرة مع حاسة الفضول».. ابتسم لي في عقلي. كنت أثق به.. كان دائمًا بجانبي، فهو من أمسك بمقعدي عندما تعلمت ركوب الدراجة، وهو من عانقني عندما

فقدت مسابقة التهجئة في الجولة الأخيرة.. وهو من ضمد جراح ركبتي عندما سقطت.. قلت لنفسي: «أنا أثق بناثان أيضًا.. فهو في العمل».

لكنه لم يكن في العمل.. تخطيت محطة الإسعاف، وبينما كنت أنعطف إلى ساحة انتظار السيارات الخاصة بفندق أوك تيراس، رأيت شاحنته متوقفة أمام باب يحمل الرقم «١٥»، وهو وحدة نزل سكنية مكونة من طابقين، وبعيدة عن المبنى الرئيسي. انفجر الأدرينالين بعروقي، وتسارعت ضربات قلبي، وبدأت عيناي تدمعان.. كتبت رسالة إلى جولي.

«ناثان في الفندق....».

لكنني لم أرسلها.. توقفت في منطقة مظللة أسفل شجرة أرز صغيرة تتأرجح فروعها المغمورة في مهب الريح.. أنا متأكدة أن لديه تفسيرًا معقولًا لوجوده هنا.. كحالة سرية أو حالة طبية طارئة.. تصورت نفسي وأنا أطرق الباب وهو يفتحه ممسكًا بحقيبة أدواته الطبية هناك مريض مضمد بجانبه.. سيدعوني للدخول وسأشعر بالإحراج مثل أي زوجة غيورة.. مثل ريان أو الطريقة التي يصفها بها.. لكنها لا تبدو غير متزنة على الإطلاق.

خرجت من سيارتي واتجهت إلى الجزء الخلفي من الوحدة.. يوجد باحة صغير تؤدي إلى الشاطئ الرملي خلف المبنى ذي الطابقين. انحنيت ودخلت خلسة إلى الفناء.. كانت هناك ستارة تحجب معظم الغرفة، لكن كان هناك شعاع من الضوء يتسرب منها.. ربضت ونظرت فوق عتبة النافذة عبر زجاج غشائي مملوء

برذاذ المحيط المالح.. استطعت رؤية زاوية الطاولة وثلاجة.. أما ناثان فكان يقف شابكًا ذراعيه.. لم أستطع قراءة تعبير وجهه لكنني أدركت الزوايا العامة لوجهه.. وكانت تجلس امرأة على كرسي بالقرب من النافذة في الظلام وظهرها موجه لي.. كانت تلوح بيديها، ربما كانت تتجادل معه.

فرد ناثان ذراعيه، ووقفت هي ثم لفت ذراعيها حول رقبته.. سحبها بالقرب منه وشعرت أنا بأن العالم يدور في أحضانهم، النجوم تتلألأ، تنفجر، نجوم جديدة تولد في السماء. شعرت بمرور الوقت وجسدي يشيخ ويتحول إلى غبار.. دفن ناثان وجهه في شعرها، وأنا أعود مرة أخرى إلى البرد والتشنج في ساقي، وأنا رابضة أسفل النافذة.. وبينما كان يمرر يده على ظهرها، جزء مني لم يكن يصدق الأمر ويصر على أن هذا لا يمكن أن يكون حقيقيًا.. لكنني أتذكر شروده وردوده الغامضة، عندما سألته ما الذي يزعجه؟ العلاقة الحميمة بينهما.. الظلام.. في فندق.. يبدو الأمر كصورة نمطية للغاية.

كان خاتم خطبتي يضيء في ضوء القمر، ويغمز لي ساخرًا مني.. نظر ناثان للأعلى وابتعد عنها.. أما أنا فكنت أفكر بجميع الشتائم التي سأنعته بها عندما أترك منزله.. لكنني أدركت أنني لم أنتقل للعيش معه من الأساس.. هل كان على علاقة بلورين أيضًا؟ تجمعت كل الأسئلة في حلقي.. من تلك المرأة؟ ماذا تقول لناثان؟ لماذا كلف نفسه عناء التقدم للزواج مني؟ أريد أن أهرب لكن لم يمكنني الكف عن المشاهدة.

على الأرجح ستقول جولي: «قد يكون الأمر أسوأ.. كان من الممكن أن تريهم بالفراش معًا مثل المرة الماضية».. لا، هذا عقلي يحاول تخفيف الألم فحسب ويحاول إقناعي أنه لم يتم خداعي.

وضع ناثان يديه على كتفيها.. هل كانت تبكي؟ رأسها منحني وشعرها يغطي وجهها.. أتمنى لو باستطاعتي قراءة تعبير وجهه.. آمل أن يكون تعبير الندم والذنب.. آمل أن يكون مصدومًا من سلوكه.

استدار ناثان وسار بعيدًا.. وبدت المرأة الآن كصورة ظلية داكنة.. اتجهت نحوي وانحنيت أنا لأختفي، رغم رغبتي في تحطيم الزجاج بقبضتي.. بإمكاني أن أقف الآن وأضع أنفي على الزجاج وأخيفها حتى الموت.. لكني تجمدت بمكاني.. لا أصدق ما يحدث.. أتمنى أن أستيقظ في فراش ناثان بجانبه، وتأتي آنا إلى الغرفة مبتسمة وتقول: «أنا سعيدة للغاية؛ لأنك ستتزوجين من أبي وستعيشون في سعادة دائمة».. أتمنى أن تعطيني لورين كعكة الجوز والموز وتقول: «لم يكن ينبغي أن أغوى جنسن.. لطالما أحبك أكثر مني.. وبالمناسبة أنا على قيد الحياة».

لكن هذا، هذا كابوس مروّع.. سحبت المرأة الستار ولم تلحظني، وأنا أربض في الظلام، لكني رأيت وجهها.. الأنف المنحوت والشعر الأشقر الطويل.. كل شيء مشوه من زاوية رؤيتي هذه.. لم أكن مندهشة حقًا؛ فأنا أعرف بالفعل من تكون. أعرف طولها وشكلها الأنيق.. لكنني أتساءل عن كيث، فأنا متأكدة من أنه سيكون مهتمًا بمعرفة أين كانت تتواجد هيدرا.

الفصل التاسع والعشرون

انزلقت بظهري على الجدار، وكانت الخرسانة باردة تحتي.. الريح يصفعني في وجهي وأصوات الهمهمة تنبعث من الداخل.. أغلقت هيدرا الستارة.. أما أنا فتذكرت ذكرياتي مع ناثان؛ مثل وميض ضوء الشموع على مائدة العشاء بيننا، وهو يمد يده ليمسك بيدي، والليالي المتأخرة التي قضيناها ونحن نتحدث.

سألني ذات مرة: «ما أكبر مخاوفك؟».

قلت: «أن يتم هجري دون ملاحظتي.. وأن أكون غير محبوبة.. ماذا عنك؟».

«أنا لا أخاف من أي شيء.. حسنًا، شيء واحد.. عدم القدرة على إنقاذ شخص أحبه».

لا أسمع أي صوت من الداخل الآن.. ماذا يعني ذلك؟ يجب أن أطرق هذا الباب وأفتحه عنوة.. لكن بدلًا من ذلك هرعت إلى ساحة انتظار السيارات.. دخلت سيارتي وأخذت نفسًا عميقًا.. كنت أشعر بأن قلبي ينهار.. انتظرت خمس دقائق أو عشرًا. حدقت في هاتفي

وشعرت بتخدر أصابعي.. أريد إرسال رسالة إلى جولي لكنني لا أريد إيقاظها.. إذا أخبرتها بما رأيته للتو، فسيصبح الأمر حقيقيًا دون رجعة.

رأيت شاحنة ناثان تقف في الظلام في مرآة الرؤية الخلفية.. مؤخرًا حركت أصابعي وأرسلت له رسالة.

«استيقظت ولم تكن هناك».

انتظرت بعدها، وأنا أشعر بدمي يفور.. مرت بضع دقائق قبل أن يرد.

«هناك مشكلة أحتاج إلى حلها.. أحبك».

«نحن بحاجة للتحدث».

«حسنًا.. هل الأمر ضروري؟».

شعرت بأن علامة الاستفهام تسخر مني.. هل الأمر ضروري؟ ضروري كمريض يعاني من أزمة قلبية؟ ضروري كضحايا الحوادث؟ ضروري كعلاقته السرية؟ ارتعشت يداي وألقيت هاتفي على المقعد، ثم أدرت السيارة وعدت أدراجي عبر البلدة إلى منزل ناثان. كان من الممكن أن أطرق بابهم بصوت عالٍ وأطالب بتوضيح، ولكن ما الفائدة من إثارة الفضائح؟

عندما عدت إلى منزله بدت الغرف مظلمة وغير مُرحِبة.. كنت أرتعش على الرغم من الحرارة المنبعثة من فتحات التدفئة.. كان الطين يغطي حذائي فخلعته وتركته عند الباب الأمامي.. قلبت

المنزل رأسًا على عقب، فتشت الأدراج والخزائن ومكتبه، وبحثت في خزانة ملابسه وداخل جيوبه بينما يقف جزء مني بالخلف ويسألني: «ماذا تفعلين؟ أنتِ لستِ متزوجة منه حتى».. كان الأمر جنوني؛ لقد قام بخيانتي.. أقنعت نفسي أنه لا بأس في استخراج العملات المعدنية والشرائط المطاطية من ملابسه. وجدت في جيب معطفه المفضل إيصال الفندق.. لقد دفع مقابل أسبوع من الإقامة. كان الإيصال يحمل تاريخ يعود إلى ثلاثة أيام.. دق قلبي كزلزال وأنا أضع الإيصال في جيبه مرة أخرى، فأنا حصلت على الدليل الذي أحتاجه.

أرسلت له رسالة أخرى «رأيتك أنت وهيدرا عبر النافذة».

بعد دقيقة ظهرت رسالته على شاشتي «هل تتبعتيني؟».

«استيقظت ولم تكن هناك.. عرفت أين ذهبت».

«الأمر ليس كما تظنيه».

ضحكت، لكنني أريد أن أصدقه.. كتبت له مرة أخرى «بدا الأمر واضحًا لي».

«انتظري من فضلك لا تذهبي سأكون في المنزل بالصباح.. سأشرح الأمر.. أنا متوجه إلى استدعاء عمل طويل».

صحيح، استدعاء عمل طويل.. حالة طوارئ تتطلب منه الاستعداد ربما لساعات. كحريق في شقة ربما، أو إنقاذ رهينة، ماذا عن إنقاذ غريق.. لماذا أهتم؟ لكنني لم أعد إلى المنزل، بل انتظرته

بدلًا عن ذلك.. ربما أنا في حالة إنكار.. أحتاج أن أتحدث معه وجهًا لوجه.

لذلك، بقيت في منزله وأنا أقاوم الرغبة في تمزيق ملابسه إلى قطع وتحطيم أطباقه على الأرض ورش الطلاء على الجدران.. لكن يجب أن أتذكر أن آنا تعيش هنا أيضا.. لا ذنب لها، وأنا أحبها.

لا أستطيع تحمل النوم في فراشه، لذلك استلقيت على الأريكة، وأغفلت عيناي من وقت لآخر.. استيقظت بالصباح الباكر، وأنا أشعر بالألم في جسدي المتصلب. لم يكلمني ناثان أو يرسل لي رسالة، لا شيء.. ما الذي أفعله هنا؟ ربما ينبغي عليّ القفز من فوق الهاوية والانضمام إلى لورين في العالم الآخر.. لا، سأنتظر وأمنح ناثان فرصة للتوضيح.. ومن الأفضل أن يكون لديه قصة جيدة وأداء يستحق جائزة أوسكار.

تبعت الممر البالي عبر الباحة المؤدية إلى حديقة منزل آل إكلوند.. الرياح تهب هنا أقوى من جهة الجنوب الغربي.. حاولت كتابة رسالة إلى هيدرا عدة مرات لكنني لم أضغط على زر الإرسال.. «ماذا تفعلين مع خطيبي بحق الجحيم أيتها الـ... كيف تجرؤين؟».. لا يمكنني ضمان التصرف بتحضر، لماذا عليّ التصرف بتحضر بالأساس؟ ولكن مازلت لا أريد أن أكتب كلمات قد أندم عليها لاحقًا.

من شرفة المراقبة يوجد منظر رائع للمحيط الممتد إلى الأفق.. وضعت مرفقي على السور وكان الطلاء يُزال تحت أصابعي وتنمو

الطحالب الخضراء على الخشب. تذكرت لورين وعينيها الغائمتين والكدمات وشحوب بشرتها غير الطبيعي.

نظرت إلى منزل آل إكلوند بالخلف.. لا تكشف نوافذه الداكنة أسرارها.. ثم نزلت على سلم شرفة المراقبة، ومشيت عبر العشب نحو الهاوية شمال شريط مسرح الجريمة.. شعرت بالوخز في معدتي والضعف بساقي.. في هذا الركن من الباحة تنخفض الأرض إلى الشاطئ بالأسفل.. إذا تقدمت خطوة واحدة قد أتعثر هبوطًا دون أن أستطيع التمسك.. سقطت لورين من الهاوية على بعد بضع ياردات من هنا.

هل دفعتها هيدرا؟ إذا كان الأمر كذلك لماذا دفعتها؟ ما علاقة ذلك بناثان؟ اتصلت برقم هيدرا، لكن صوتها الناعم بالمجيب الآلي أخبرني أن أترك رسالة. لا بد أنها ترى رقم هاتفي يظهر على هاتفها ولا تجيب.. وصلت إلى بريدها الصوتي وتركت رسالة: «أريد أن أعرف ما الذي يحدث بينك وبين ناثان».

اتصلت برقم منزلها لكن لم يكن هناك رد.. كنت مضطربة ولا أستطيع الانتظار للحصول على إجابات.. بحثت عن رقم هاتف العمل الخاص بكيث.. لا بد أنه هناك الآن، فهو يصل مبكرًا.. أجابت امرأة على الهاتف قائلة: «مكتب الدكتور. بلاك.. كيف يمكنني مساعدتك؟».

لم أستطع التفكير بسبب الألم في رأسي.. قلت لها: «هل يمكنني التحدث مع كيث؟ دكتور بلاك.. أنا... أنا خطيبة شقيقه.. إنها مسألة

شخصية.. أعرف أنه من المحتمل أن يكون مشغولًا أو مع مريض، لذا يمكنني ترك رسالة.. الأمر ضروري نوعًا ما».

قالت بصوت مهني ودود، على الرغم من أنني بالتأكيد أبدو مجنونة «أنا أتفهم، بالطبع.. لكن دكتور بلاك سافر لحضور مؤتمر...».

قلت مندهشة «سافر».. لم أكن أتوقع هذا، ولكن ذلك يفسر كيف استطاع ناثان وهيدرا أن يلتقيا في الفندق.

«سيعود بعد ثلاثة أيام.. هل تريدين الوصول إلى بريده الصوتي؟».

«أفترض أنكِ لا تستطيعين إعطائي رقم هاتفه الخلوي، أو أن تخبريني أين هو؟».

أستطيع أن أشعر بترددها في إيقاع الصمت.. قالت لي: «لا يُسمح لي بإعطاء أي معلومات شخصية أو أرقامه الشخصية....».

«حسنًا.. أظن أنه يتحقق من رسائله.. من فضلك أخبريه أنني اتصلت.. واطلبي منه الاتصال بي في أقرب وقت ممكن».

أعطيتها رقم هاتفي وأغلقت الهاتف وأنا بقمة غضبي.. قضي الأمر، سأرحل عن هنا.. جمعت أغراضي وأمتعتي؛ كل ما أملك وأستطيع أن أضعه في حقيبة السفر الخاصة بي.. فرشاة الأسنان، معجون الأسنان، الغسول، الملابس.. توقفت للنظر إلى غرفة آنا وشعرت بقلبي ينهار.. كيف سأشرح لها الأمر؟

وضعت بطاقة الفتح في جيب سترتي.. وعندما كنت جاهزة للرحيل، عاد ناثان إلى المنزل.. كان يقف أمامي في غرفة معيشته

لايزال مرتديًا زي العمل؛ سروالًا أزرق داكنًا، وسترة زرقاء فاتحة، ذات أكمام طويلة مع خطوط بيضاء على الذراعين، ورقع على الكتفين.. كانت سترته ملطخة بالدماء.. يا ترى لمن هذا الدم؟ وجهه شاحب وعيناه مظلمة وغاضبة.. يبدو شخصًا مختلفًا، شخصًا لا أعرفه حتى.

الفصل الثلاثون

قال لي: «نحن بحاجة للتحدث.. الأمر ليس كما يبدو عليه».

- «نظرت من النافذة.. أنا متأكدة مما رأيت».

- «لا، أنتِ لست متأكدة.. أنتِ لا تعرفين ما تقوليه».

«الأمر لا يتعلق بي.. الأمر يتعلق بك. يتعلق بكذبك وخداعك وتلصصك».. رفعت يدي اليسرى، وأشرت إلى خاتم الخطوبة، ثم أردفت «إنه يتعلق بهذا.. هذا الوعد».

أرخى كتفيه وقال: «أيًا كان ما رأيتِه....».

- «رأيتك تعانق هيدرا.. بل أكثر من ذلك».

- «لا ينبغي عليكِ أن تتبعيني».

- «ماذا عنك، لا ينبغي أن تتسلل مع زوجة شقيقك».

- «أنا لا أفعل، نحن لسنا... أنا أساعدها».

- «تساعدها.. تساعدها في الفراش أم ماذا؟».

«لا، الأمر ليس كذلك.. لا أستطيع أن أقول لكِ.. لقد وعدتها أنني سأحافظ على خصوصيتها، لكننا لسنا على علاقة غرامية.. أقسم لكِ».

أجبته مسرعة: «أنا لا أهتم بوعدك لها.. وعدك لي هو ما يهمني.. ماذا يجري بحق الجحيم؟ هيدرا لم ترد على مكالماتي.. وتركت رسالة لكيث».

- «ماذا؟ لا، لم ينبغي عليكِ فعل ذلك».

- «لماذا لا؟ ألا يستحق أن يعرف ماذا تفعل زوجته؟».

- « لم ينبغي عليكِ فعل ذلك.... قد توقعينها بورطة».

- «أنا أتمنى ذلك بالتأكيد».

- «قد توقعين نفسك بورطة.. يجب ألا تتورطي بالأمر».

- «فيم أتورط يا ناثان؟ علاقتك الغرامية؟ هل أنت جاد؟».

- «إنها ليست علاقة غرامية!».

- «أنت على حق، إنها ليست علاقة غرامية. أنا وأنت... نحن لسنا متزوجين بعد. أعتقد أن هذه لا تعتبر خيانة».

- «كنت سأخبرك.. لم أحاول الكذب عليكِ أو أن أكون مخادعًا».

- «لكنك كنت كذلك! كنت مخادعًا».

- «أرجوكِ، الأمر لا يتعلق بعلاقتنا».

خيّم الغضب على عيني، وقلت له: «الأمر يتعلق بعلاقتنا.. لقد خرجت ليلًا، لا أعرف لكم مرة، قابلت هيدرا في فندق ودفنت وجهك في شعرها.. لا يوجد تفسير آخر للأمر سوى كونه خداعًا».

- «أنتِ لستِ هدف هذا الخداع».

- «بدا الأمر هكذا بالنسبة لي».

- «الأمر معقد.. ماذا أخبرتِ كيث؟ من المهم للغاية أن تخبريني».

- «ماذا؟ لا أستطيع...».

- «ماذا يعرف؟ هل اتصل بكِ مرة أخرى؟ هل تكلمتِ معه؟».

- «تركت رسالة».

- «لا تقولي له.. أنا أساعدها على هجره وهو مسافر.. لكنه لم يسافر إلى ولاية أخرى. إنه فقط في سياتل.. بإمكانه العودة».

«آمل أن يفعل».. اتجهت نحو البهو وانتشلت حذائي.. وناثان اندفع أمامي ليسد طريقي.

«أنا لا أساعدها لتكون معي.. أنا أساعدها على الهروب منه.. للهروب من علاقة مؤذية جسديًا».

قلت له وأنا أشعر بالأفكار تدور في رأسي: «أتقول إنه يؤذي هيدرا».

«اجلسي.. سأشرح لكِ».. أمسك ذراعي وأرشدني نحو غرفة المعيشة ثم جلس بجواري على الأريكة.

«أنت تساعد هيدرا على هجر شقيقك.. أتتوقع مني أن أصدق ذلك؟».. لكني تذكرت قصص طفولته.. تذكرت كيث وهو يحبسه في السقيفة ويمسك برأسه تحت الماء.

«لم أكن لأكذب عليكِ».. قالها وهو يحاول أن يمسك يدي، لكنني سحبت ذراعي بعيدًا.

«حتى لو كان الأمر صحيحًا، لماذا لم تخبرني؟ نحن نخبر بعضنا البعض بكل شيء».. بحثت في عينيه عن إجابتي.. كيف أعرف إذا كان كاذبًا؟

«كيث ساحر وناجح.. ولكن رغم كل ذلك....».

قلت له وأنا أهز رأسي: «يبدو كأحمق متعجرف بالنسبة لي.. لكنني اعتقدت أنك قلت إنه لم يعد قاسيًا».

«اعتقدت ذلك أيضًا، لكن الآن أعلم أنه لم يتغير.. هيدرا مشوشة للغاية.. أخبرتها عن طفولتنا عندما تزوجوا حتى تعرف القصة الكاملة.. كنت متأكدًا أنه قد تغير.. أو ربما كنت آمل ذلك».. أخرج محفظته وأراني صورة لأسرة.. كان ناثان بالرابعة من عمره على الأرجح، وكان خداه سمينين ووردیين.. وأمه الرقيقة تمسك به فوق حجرها.. تخفي ابتسامتها المشرقة الشغور في عينيها. أما زوجها الوسيم طويل القامة فيقف خلفها واضعًا يدًا واحدة على كتفها.. وكيث كان يقف بجانبه، ربما كان بالسابعة أو الثامنة من عمره.

قلت له: «جميعكم تبدون سعداء باستثناء والدتك.. تبدو متعبة وحزينة بعض الشيء».

- «كانت متعبة وحزينة. أترين يد أبي على كتفها؟ ذلك دليل سيطرته.. كان لديه طريقة خفية في التنمر عليها والتقليل من شأنها».

- «أترمين إلى أن كيث ورث الأمر عنه».

- «أعتقد أن كيث أسوأ منه».

- «ماذا يفترض أن أصدق يا ناثان؟ إذا كنت تساعد هيدرا فحسب لماذا دفنت وجهك في شعرها؟ أتحاول أن تجعلني أشك في نفسي؟».

- «لا، ليست تلك نيتي على الإطلاق.. أعلم أن الأمر يبدو وكأنني تخطيت الحدود».

- «يبدو؟ سأكون حمقاء إذا فسرت الأمر بأي طريقة أخرى».

- «تلك كانت أكثر مرة اقتربنا فيها من بعضنا البعض يا ماريسا.. كانت تشعر بالحزن وتقول إنها تريد العودة إليه مرة أخرى بداعي القلق من ارتكابها خطأ.. رغم أنه قد يقتلها!».

- «إذا كان ما تقوله صحيحًا، فلماذا لا تهجره؟ لماذا تحتاج لمساعدتك؟».

- «كيث خطير.. لقد هدد بقتلها وخشيت أن يكون جادًا.. لكنه سيجد طريقة لجعل الأمر يبدو كحادث».

- «هذا لا يصدق.. كان عليك أن تخبرني».

- «لم أكن أعرف حتى وقت قريب.. كنت على وشك أن أخبركِ...».

«أوه، فعلًا؟» أخرجت بطاقة الفتح ولوحت بها أمام وجهه، ثم أردفت: «وجدت هذه بالصباح بعد حفل العشاء، لذا لا تتظاهر بأنك لا تعلم».

بدا مذهولًا كما لو أنه لم ير البطاقة من قبل بالفعل.

«لا بد أنها لهيدرا.. أخبرتني أنها هجرت كيث سابقًا لليلة واحدة.. كانت قد استأجرت بالفعل غرفة الفندق.. لكنها بدلّت رأيها وعادت إليه».

«فعلًا.. ماذا عن الإيصال الذي وجدته في جيبك؟ لقد دفعت مقابل أسبوع من الإقامة».

اشتد وجهه لكنه لم يتهمني بالتعدي على خصوصيته.. أجابني «كنت أمدد إقامتها».

«لماذا لا تستطيع أن تمددها بنفسها؟».

«قالت إنها دفعت نقدًا، ولم تكن ترغب في سحب نقدي مجددًا وإلا سيشك كيث بالأمر».

لم يمكنني منع لهجتي العدائية، وقلت له: «لذا وضعت حساب غرفة الفندق على بطاقة الائتمان الخاصة بك بدلًا من ذلك».

«اسمعي، لم أكن سأبقي هذا الأمر سرًا إلى الأبد.. لكنني كنت بحاجة لحمايتك وحمايتها.. كان خيارًا صعبًا.. كنت قلق ومتحير..

في الشهر الماضي، خرجت في استدعاء لحالة عنف منزلي.. ضرب الزوج زوجته، لن أقول التفاصيل.. اتصل أحد الجيران برقم الطوارئ وبمجرد أن رآنا الزوج قتل زوجته.. أطلق النار على رأسها.. ثم أطلق بعض الطلقات الإضافية من النافذة بشكل عشوائي.. لذلك شعرت بأنني في حاجة إلى الحفاظ سرية هيدرا من أجل سلامتك وسلامتها».

سري؟ تراجعت إلى الخلف، فقد كانت كلماته بمثابة ضربة بأحشائي.. قلت له «تلك المرأة مسكينة.. لكن وضع هيدرا مختلف، كما أنني كنت سأحفظ السر..».

«كيف يمكنني وضعك في هذا الموقف وإرغامك على حفظ السر؟».

«وبدلًا من ذلك حفظت أنت سرها.. أعطيتها الأولوية بدلًا من التحدث معي».

كانت عيناه تمتلئان بالألم، وهو يقول لي: «أنا أعلم أنني جرحتك».

- «كان بإمكان هيدرا أن تقول شيئًا أيضًا».

- «إنها مشوشة».

- «بالطبع».

قال لي: «لم يحدث الأمر بين عشية وضحاها.. أخبرتني أن الأمر بدأ بأشياء صغيرة.. كان يسيء إليها إذا تركت بقعة على طبق أو إذا

لم تطوي المناشف جيدًا. قلت لنفسي يا للهول، إنه مثل أبي بل أسوأ.. سمعت أبي بمرة يصرخ في أمي ويخبرها أنها قبيحة.. كان دائما يراقب كمية الطعام على طبقها.. كيث يتصرف مثله».

«لماذا لم تهرب هيدرا؟ منذ متى هما متزوجان؟».

مرر ناثان أصابعه عبر شعره، وقال: «كنت إشبينه في حفل زفافهما قبل ستة أعوام. قد يبدو وقتًا طويلًا لتحمل إساءة معاملته، لكنه يجيد الألعاب الذهنية.. ألا ترين؟ اعتمد على سحره وأخذها إلى المكسيك وهاواي ومنطقة البحر الكاريبي. نشأت هيدرا مع والدة مدمنة، وكان يتم طردهما من منزلهما في كثير من الأحيان. لذلك كان زواجها تحسنًا كبيرًا لها حيث انتقلت من الفقر إلى الرفاهية.. منزل كبير وحفلات وكيفية اهتمام كيث بها.. إنها تحبه وهذا ما يقلقني.. فهي تريد المغادرة، لكنها تريد العودة.. هذا الأحمق لا يسمح لها حتى بإجراء مكالمة هاتفية دون إذنه».

فكرت برأسي: «لماذا تحل تلك المشكلة بنفسك؟». أنا أكره هذه الأفكار مثل رغبتي في إبعاد هيدرا من الصورة.. ربما هي في ورطة، وربما لا.. تبتعد الحقيقة عن يدي.

جلست على وسادة الأريكة، وأخذت نفسًا عميقًا.. أشعر بأن الغرفة معبأة بالأسرار. قلت له: «شيء ما قد دفعها إلى هجره أخيرًا.. ربما معجبة قليلًا بشقيقه».

«لم يكن لديّ أي فكرة عما كان يحدث حتى طلبت مني المساعدة قبل بضعة أيام. كانت الكدمة على رسغها كذبة واضحة.. حينما قالت على العشاء، إنها سقطت عن المنصة أثناء جلسة التصوير».

- «كيث فعل ذلك؟ من الممكن أنك تختلق الأمر!».

- «عليكِ أن تثقي بي.. كيث متورط بالأمر.. إنه متلاعب.. مختل عقلي.. وسيحاول أن يلاحقها».

- «هذه كلمات قوية.. أمتأكد؟ ريان غير متزنة.. كيث مختل».

قال ناثان، «جرعة صغيرة من برود الأعصاب تساعد الجراح في الحفاظ على هدوئه.. إنه يجيد قطع الناس وجرحهم دون أي إحساس».

- «إنه ينقذ الأرواح».

- «إذًا لا بد أنه يهتم بالناس، أليس كذلك؟ لكنه لا يفعل ذلك».

تقلبت معدتي.. قمت وذهبت إلى النافذة، فأنا أحتاج إلى رؤية الأشجار والسماء المتغيرة والأشياء التي أعرفها حقيقية.. قلت له «أنا أقدر أنك قلت لي كل هذا يا ناثان.. لكنني أحتاج إلى سماع جانب هيدرا من هذه القصة، وهذا لا يعفيك من أكاذيبك أو ما كنت تفعله معها.. أحتاج أن أتحدث معها».

«حسنًا، لكن ليس الآن... نحن بحاجة للتفكير بتمعن».

درت بجسدي لمواجهته وقلت «ليس الآن؟ هل تمازحني بحق الجحيم؟».

رفع كفيه وحركهما بالهواء محاولًا إسكاتي، وهذا أغضبني أكثر.. قال لي «دعيها تصل إلى مكان آمن بعيدًا عن الفندق.. فقد يجدها هناك».

«كيف سيجدها يا ناثان؟ أنت من دفع مقابل عش الحب السري»، لم يمكنني كبح فمي عن التفوه بالكلمات الحانقة.. لا أستطيع إيقاف نفسي.

- «لم نمارس الحب.. كانت بحاجة إلى مكان حيث لا يتمكن من الوصول إليها فيه. لكن الآن...».

- «الآن ماذا؟ أنا لم أرشده».

- «سيعرف أن هناك خطبًا ما».



- «سأتحدث معها».

- «من الممكن أن تفزع وتفعل شيئًا متهورًا».

- «أنت خائف مما قد تخبرني به.. كلاكما...».

- «تحدثي معها بعد أن تصبح بأمان.. أنتِ لا تفهمين.. قد يقتلها كيث».

- «ربما يفعل، لكن أتعرف ماذا يموت أيضًا يا ناثان؟ علاقتنا».

ضرب ناثان قبضته براحة يده وقال: «هذا ليس صحيحًا.. اللعنة».

سألته وأنا أضع ذراعيّ فوق صدري: «هل تحميها من شيء آخر؟ هل تعلم بأمر الوشاح؟ هل كانت هيدرا بالخارج ليلة الجمعة الماضية؟ هل دفعت لورين من الهاوية».

شحب وجهه وقال: «لماذا قد تدفع لورين؟».

- «لا أعرف.. يبدو أنني لا أعرف الكثير من الأشياء هذه الأيام».

- «لم أكن أعرف شيئًا عن الوشاح».

«آه»، رفعت حاجبيّ وفتحت فمي.. أنا متأكدة من أنني أبدو غير مندهشة كما أشعر.

«أقسم أنني لا أعرف لماذا كان الوشاح بالماء».

لاتزال الخيوط بعيدة عن متناول اليد لكنها موجودة.. أنا متأكدة من الأمر.. ناثان، هيدرا، لورين، الوشاح، كيث الوحش الذي يطاردها.. أم أنه ببساطة جراح صعب الإرضاء ومنغلق على نفسه؟ حريص على عمله؟ يحب زوجته بطريقته الخاصة؟ أنا لا أعرفه على الإطلاق.. كما لا أعرف ناثان أيضًا.. كنت أعتقد أنني أعرفه.

نظرت حولي بغرفة المعيشة التي استمتعت فيها بالألعاب والضحك والألفة والشعور بالأمان.. أصبحت الآن مجرد مجموعة من الأثاث.. تلاشت السعادة ولم أعد أنتمي إلى هنا.. قلت له «عليّ الذهاب».

«ابقي»، قالها ناثان وهو يتحرك نحوي.

تراجعت، وقلت له «ابتعد عني».

«ماذا سأقول لآنا؟».

الآن يستغلها لمحاولة إبقائي هنا، أسلوب رخيص للغاية.. قلت له «أيًا كان ما تريد أن تقوله لها، الأمر لا يخصني».

«لا ترحلي.. لا يوجد شيء يحدث بيني وهيدرا».

«هذا هراء».. قلتها ثم خلعت خاتم الخطوبة ووضعته في جيبي.

عندما خرجت من الباب، تذكرت المرة الأولى التي أتيت فيها لتناول العشاء. أعطيته شجيرة الأزالية بوعاء.. تلك الشجيرة مزروعة الآن في الحديقة وتنام في كآبة الخريف. كان قد اعترف بأنه بحث على الإنترنت عن «وصفات عشاء للموعد الأول»، واختار وصفة يمكنه إعدادها بسهولة، وهي معكرونة كاربونارا.. لكنه أحرقها!

تلك المرة كنت أنا من يكذب؛ لأنني وقعت في حبه بالفعل.. قلت له وأنا أصر أنني صادقة: «هذه أفضل وجبة تناولتها على الإطلاق».

الفصل الحادي والثلاثون

مرت الساعات بشكل ضبابي مثل مشهد مشوش من نافذة قطار.. أغلقت الستائر وأغرقت حياتي في الظلام.. انكمشت بالفراش، وكنت أشعر بالأسف الشديد لنفسي، انهارت الأشهر بين تساؤلاتي؛ هل كنت أثق به أكثر مما ينبغي؟ أو حريصة أكثر مما ينبغي؟ هل وقعت في حب ناثان بوقت مبكر؟ أصبحت مفتونة به عندما التقينا للمرة الأولى، أم حدث ذلك بعد يومين في يوم المهنة؟

كنت أنظر داخل صف الفن الذي تدرّسه جولي ورأيته يرتدي زي العمل، ويجيب عن الأسئلة المتعلقة بحياته كمسعف.. أحضر معداته للعرض والتفاصيل.. كانت آنا تبتسم عندما تجمع الطلاب حولها وأراهم ناثان سماعة الطبيب ومقص الصدمات ومزيل الرجفان الآلي. كما حكي لهم قصصًا تتعلق بكل قطعة من المعدات وكان الأطفال مفتونين، وشعرت أنا بالبهجة أيضًا.

تعلقت عينانا ببعضها البعض، عندما نظر في اتجاهي. خرجت من الغرفة وشعرت باحمرار خدي من الخجل.. بعد نصف ساعة أتت جولي، وقالت «لقد سأل عنكِ. إنه في الرواق.. اذهبي وتحدثي معه قبل أن يذهب».

وجدته حينها عند صنبور المياه منحنيًا ليشرب.. استقام وابتسم لي ثم صافح يدي وعرّف نفسه مرة أخرى قائلًا: «أنا والد آنا، إن كنتِ قد نسيتِ».

قلت له «كيف لي أن أنسى؟».. شعرت بأصابعه القوية تمسك بأصابعي.. وشعرت وكأن كل العيون تنظر نحونا قبل أن يفلت يده.

قال لي: «هل يمكن أن نتحدث في الخارج بشأن علاج التخاطب الخاص بآنا؟».

قلت له «بالتأكيد، بالطبع».

تبعته في ساحة المدرسة وقلت: «إنها تحرز تقدمًا كبيرًا».

«أردت أن أشكرك.. فهي أصبحت أكثر ثقة الآن».

قلت له: «على الرحب والسعة».

سألني بطريقة مباشرة «أتودين تناول العشاء معي؟».. كنت أتوقع منه ألا يكون واضحًا، وأن يسلك طرقًا تمهيدية أولًا مثل التحدث عن الطقس.. لكنه نظر بعيني مباشرة وسألني بوضوح.

ضحكت وأجبته «هل تطلب مني الخروج في موعد معك؟».

- «نعم، بمنزلي؟ هل الأمر متسرع؟».

- «يمكنني أن أثق بك، أليس كذلك؟ فأنت والد آنا».

- «نعم، ثقي بي، لكني أحذرك، أنا أسوأ طاهٍ في العالم».

قلت قبل أن أتمكن من منع نفسي: «أنا متأكدة أن أمي هي أسوأ طاهية في العالم».

«لا أنا الأسوأ.. أراكِ ليلة السبت في الساعة السابعة؟ لن تكون آنا هناك.. ستكون في منزل والدتها خلال عطلة نهاية الأسبوع».

أومأت رأسي وعدت إلى الداخل، وأنا أتساءل عما إذا كنت قد خرقت بعض القواعد المدرسية مثل مغازلة والد طالبة في المدرسة.. لكنني لم أهتم.. كان قلبي يطير فرحًا.

هرعت جولي إلى مكتبي وأخبرتها بالسبق الصحفي.

قالت لي: «عشاء في منزله بأول مرة؟ لا غداء أو قهوة أولًا؟».

«رقمك بقائمة الاتصال السريع في حال واجهت مشكلة».

«ستكونين على ما يرام.. إنه رجل صالح ووالد صالح».

تأكدت من أنها على حق عندما ذهبت إلى منزله لتناول العشاء.. أعطيته الأزالية فابتسم وقال لي: «ستحب آنا هذه»، ووضع النبتة على الطاولة في البهو ثم أردف «إنها تبدأ في تعلم أسماء الزهور».

«إذًا خياري كان موفقًا».. قلتها ثم خلعت حذائي ودست فورًا على قطعة من المكعبات الخضراء.

قال وهو يلتقط المكعب: «إذًا كانت هنا طوال الوقت».

سألته مشيرة على طيور من المكعبات كانت موجودة على طاولة القهوة.. «هل صنعت آنا هذا؟».. كان هناك طائر قيق أزرق وطائر أبو الحناء والطائر الطنان.

قال: «نعم، هذه ابنتي، لم تحب الدمي يومًا.. يا للهول، العشاء!».

اندفع إلى المطبخ محاولًا إنقاذ إناء المعكرونة المحترقة.. كان هناك صور عديدة لآنا على الثلاجة.. إحداها وهي تشير بفخر إلى إحدى أسنانها الأمامية المفقودة، وأخرى، وهي تحمل اختبار إملاء تزينه نجمة ذهبية كبيرة، وأخيرة وهي تدور مرتدية تنورة وردية.

أزال كومة من كتب المكتبة الخاصة بآنا من فوق مائدة الطعام، قبل أن نجلس لتناول الطعام، وقال: «تحب القراءة أيضًا».

قلت له وأنا أبتسم خجلًا: «يجب عليها أن تأتي وتتفقد كتبي.. لدي مجموعة ضخمة.. وبطبيعة الحال يجب أن تأتي أنت أيضًا».

أثناء العشاء على ضوء الشموع حكى ناثان لي عن أفضل وأسوأ جوانب وظيفته، بدءًا بفرحة ولادة توأم في سيارة الإسعاف، وانتهاء بألم فقدان طفل سقط من نافذة في الطابق العاشر.

أخبرته عن عملي في مدرسة آنا، قلت له: «أنا أحب وظيفتي فهي مثيرة للتحدي. أحيانًا نستخدم الكلاب بالعلاج.. لديّ طالب يرفض القراءة جهرًا إلا إذا قرأ للكلب، فهو يخاف أن يسخر منه الأطفال الآخرين».

«أي نوع من الكلاب؟».

«كان لدينا مسترد ذهبي ولابرادور أصفر.. ومؤخرًا أصبح لدينا كلبة راعي فلاندر تبلغ من العمر أربعة أعوام تُدعى بينيلوبي».

«كلبة راعي ماذا؟».. قالها وهو يضحك حتى أوشك النبيذ أن يخرج من أنفه.

«أنت تعرف، كلبة كبيرة مشعرة ذات آذان مدببة ولحية.. تشبه دمية عملاقة لجيم هانسون».

«أحب أفلام جيم هانسون! شاهدت مع آنا للتو فيلم ذا مابتس تيك مانهاتن».

«فيلمي المفضل له هو ذا دارك كريستال».

ناقشنا الأفلام من الرعب إلى الكوميديا إلى الرسوم المتحركة، ثم عادت المحادثة بنهاية الأمر حول آنا وحبها للرقص والطبيعة ومشاكل الكلام، التي تعاني منها وجهودي لمساعدتها في التغلب على التلعثم.. في ذلك الوقت كنت قد عالجتها لبضعة أسابيع فقط.

قلت لناثان: «الصبر مهم في عملي.. الأمر كله يتعلق بالتكرار والخطوات الصغيرة، وإضفاء الطابع الشخصي على خطة العلاج.. فأنا لا أذكر كلمة تلعثم مباشرة أمام الطفل أبدًا».

«أخبرتني ريان عن ذلك».. قالها وهو يعيد ملأ كأسه، بينما أشرت له أنني لا أريد المزيد.. أطفأ ذكره لطليقته لهيب حماسي قليلًا لكنني لم أظهر الأمر.. تحدثت مع ناثان حتى وقت متأخر من المساء.. لم أكن منجذبة بمحادثة لدرجة نسيان الوقت بتلك الطريقة منذ مدة.

قمت بخفة عندما دقت الساعة الحادية عشرة، وقلت: «يجب أن أتركك لتنام».

قال لي: «النوم أمر مبالغ فيه».. لكنه سمح لي بالرحيل.. كان من الممكن أن ننام بنفس الفراش بسهولة تلك الليلة لكنه لم يحاول

أبدًا أن يعجّل الأمور.. كان مهتمًا ومتحمسًا لرؤيتي دومًا، فلمرات عدة أخذني للتجديف، وللمشي في الجبال، وللتمشية على الشاطئ، ولتناول العشاء.. لقد جذبني، فكيف لي أن أعرف ما سيفعله؟

حاولت الاتصال بهيدرا مرة أخرى، لكنها لم تجب، ولم أتلق ردًا من كيث.. لا يريدني ناثان أن أتحدث معها الآن، فقد أعرضها للخطر.. صحيح، قد أعرضها لخطر الاضطرار إلى تفسير الأمر لي. استنفد الأمر كامل طاقتي لكنني تمكنت من ارتداء معطفي واتجهت إلى سيارتي.. مدد ناثان مدة إقامة هيدرا في الفندق، مما يعني أن بطاقة الفتح التي بحوزتي ستفتح الباب.

الفصل الثاني والثلاثون

عدت بسيارتي إلى فندق أوك تيراس، خلال فترة ما بعد الظهيرة الباردة والمشرقة. لا يتحرك شيء من حولي، السماء وأوراق الشجر ثابتة.. توقف الخريف معلقًا الوقت دون حراك.. تبدو وحدات الفندق لطيفة تحت أشعة الشمس، بل وحتى رقيقة وهي تقع على جانب تل فوق حافة غابة محمية.. طرقت باب غرفة رقم خمس عشرة لكن لم يجيبني أحد.. نظرت خلفي ولم يكن هناك أحد قادم.. كان هناك طير نورس يصدر صوته عبر السماء في طريقه إلى البحر.. مرّرت بطاقة الفتح خلال القفل وانفتح الباب بسهولة.. جزء مني لم يكن يريد أن تفتح البطاقة الباب، وأن يكون الأمر برمته مجرد خطأ.. لكن من الواضح أن هيدرا استأجرت هذه الغرفة لمدة خمسة أو ستة أيام. انقبضت معدتي وأنا أدخل وأغلق الباب خلفي.

ناديت «مرحبًا! مرحبًا! هل من أحد هنا؟ هيدرا؟».. لم أتلق أي رد، فقط صدى صوتي.

نظرت إلى يساري؛ حيث توجد غرفة معيشة مفروشة بأثاث بسيط.. هبت رائحة بصل خافتة من المطبخ، ووجدت بقايا عجة

بيض في مقلاة على الفرن.. كانت دلائل وجود هيدرا متناثرة في جميع أنحاء الوحدة مثل أحمر الشفاه الموجود على حافة الطاولة، والحذاء النسائي أسفل طاولة القهوة، ومجلة إلى المفتوحة على صفحة المشاهير بجانب كوب فارغ.

جلس شخص ما على مائدة الطعام الصغيرة مؤخرًا ليأكل العجة والخبز المحمص من طبق مازال غارقًا في الفتات.. بدأت صعود درجات السلم نحو الطابق الثاني، ثم سمعت طرقة على الباب.. تسارعت نبضات قلبي وانزلقت يدي أسفل الدرابزين.

نادى صوت امرأة «خدمة الغرف!».

خدمة الغرف، نزلت وفتحت الباب.. كان هناك شابة تقف مرتدية زيًا بنيًا، وتملك جسدًا ممتلئًا.. ابتسمت لي وهي تلف أصابعها حول مقبض عربة مليئة بالمناشف ولفائف ورق الحمام.

قالت لي: «طلبتِ مناشف».

«آه، نعم».. ألقيت نظرة سريعة على الطابق الثاني ثم قلت لها: «أنا أقوم بشيء ما.. هل يمكنك العودة غدًا؟».

بدا على وجهها الضيق، وهي تزيح خصلة من الشعر اللامع خلف أذنها، ثم سألتني «هل مازلتِ تريدين مناشف حمام السباحة؟».

إذًا يقدم الفندق هذه الخدمات الفاخرة.. قلت لها «شكرًا لا نحتاجها».

«ماذا عن زوجك؟».

شرد ذهني بكلمة زوجك ثم قلت لها: «لا يحتاجها أيضًا».

أماءت الخادمة، ودفعت عربتها على طول الرصيف نحو الوحدة التالية.

قلبت لافتة «يرجى عدم الإزعاج»، وأغلقت الباب وأوصدته.. صعدت على السلم بأطراف أصابعي.. كان أمامي مباشرة حمام صغير وبداخله يوجد مستحضرات نظافة على الطاولة؛ غسول، صابون، فرشاة أسنان، معجون أسنان.. كل شيء يوجد منه عنصر فردي لشخص واحد.. كان هناك الشامبو والصابون في الدش ويوجد غرفة نوم واحدة فقط هنا.

ناديت وأنا أفتح الباب «مرحبًا؟».. اندفعت الستارة في النافذة.. وكان هناك فراش غير مرتب وبحجم كبير وكومة من الوسائد.. وعلى الطاولة كان هناك عبوة دواء فارغة.. سمعت أنينًا.. هناك شخص ما موجود على الجانب الآخر من الفراش.

فار الأدرينالين بعروقي.. درت حول الفراش ورأيت حذاءها أولًا ثم أقدامها الشاحبة والرباط الأبيض من ثياب نومها.. كانت مستلقية على جانبها، وهي تنظر نحو الجانب الآخر.. لورين، تذكرت لورين ملقاة على الشاطئ.. هناك بقعة من الدماء على زاوية الطاولة، كما لو كانت قد تعثرت وصدمت رأسها.

سألتها وأنا أهرع لأربض بجانبها: «هل أنتِ بخير؟».

كان شعرها يغطي جزءًا من وجهها، لكنني أعلم أنها هيدرا.

هززت كتفيها ببطء وقلت: «هل أنتِ بخير؟ هيدرا، جاوبيني»..

لم تستجب لكنها كانت تتنفس.. «هل وقعتِ؟».. لا إجابة. «هيدرا، استيقظي!».

بحثت في جيبي عن هاتفي.. وبينما كنت أتصل بالطوارئ، كانت هيدرا تستدير على ظهرها.. وقع الشعر بعيدًا عن وجهها كاشفًا عن جرح خفيف على جبينها. سحبت منديلًا من على الطاولة وضغطته على الجرح.. كان الدم يتخثر ولم تكن تنزف.. بدأ عقلي بالفزع وسألتها: «ماذا حدث، هيدرا؟ جاوبيني!».

تمتمت بعض الكلمات وحركت رموشها، ثم فتحت عينيها قليلًا.. بدت عيناها.. الزمردية.. ناعسة ومخدرة.

أجاب عامل الخط وقال: «خدمة الطوارئ.. أين حالتك الطارئة؟».

«أنا في فندق أوك تيراس، الغرفة رقم خمس عشرة.. أرجوك أرسل سيارة إسعاف»..

«ما نوع حالة الطوارئ يا سيدتي؟».

حاولت الحفاظ على رباطة جأشي وأجبته: «امرأة تناولت جرعة زائدة من الدواء على الأرجح.. أعتقد أنها سقطت وصدمت رأسها.. لقد عثرت عليها بهذه الحالة.. لا أعلم ماذا جرى.. إنها تتنفس... وواعية لكنها تبدو مشوشة».

- «المساعدة في طريقها إليكِ.. ما اسمك من فضلك؟».

- «ماريسا بارليت.. أنا صديقتها».

- «هل أنتِ في خطر هناك؟ هل أنت آمنة؟».

- «لا أنا بخير.. لا أعتقد أن هناك أي شخص آخر موجود هنا».

- «هل تعرفين ما الدواء الذي تناولته؟».

«لا، سأسألها».. حركت كتفها وقلت لها «هيدرا! ماذا حدث؟ ماذا تناولتِ؟».

تمتمت برد غير واضح، ثم هرعت أنا نحو الطاولة ثم أجبت العامل على الهاتف وأنا أقرأ الملصق الموجود على الزجاجة، «تبدو وكأنها.... حبوب سينيكوان.. اسم الطبيب ممحو.. ما هي حبوب سينيكوان؟».

قال لي: «إنها نوع من مضادات الاكتئاب.. كم حبة تناولت؟».

«لا أعرف.. هيدرا هل تناولتِ هذه الحبوب؟ كم حبة تناولتِ؟».

حركت رموشها، وتمتمت مرة أخرى.

قلت له: «إنها لا تجيب».

«هل تقيأت؟».

«لا، لا قيء.. متى ستصل سيارة الإسعاف؟».. قلتها وأنا أشعر برأسي يدور فجلست على السجادة كي لا أفقد وعيي.

«السيارة تبعد حوالي ثلاث دقائق».

لا بد أنهم كانوا باستدعاء آخر في مكان قريب، فنحن خارج البلدة بمكان بعيد.

تأوهت هيدرا فضغطت على يدها، وقلت لها: «اصمدي، المساعدة في الطريق»،

حاولت الاقتراب مني وتعلقت بكمي متمتمة «ناثان...».

«إنه ليس هنا.. أنا ماريسا.. أنا هنا وسأبقى معكِ».. فكرت برأسي، أين أنت يا ناثان؟ وماذا فعلت؟

تمتمت هيدرا بالمزيد من الكلمات وغرزت أظافرها في ذراعي.

على خط الهاتف، كنت أسمع نغمة وأصواتًا غير واضحة في الخلفية.. كان العامل يسأل المزيد من الأسئلة التي لم أنتبه لها.. سمعت صوت سيارة الإسعاف من بعيد ثم رأيت الأضواء تومض خارج النافذة التي تواجه ساحة انتظار السيارات.. قلت للعامل «لقد وصلوا».

قالت هيدرا «لورين...».

سألتها: «ماذا عن لورين؟ لقد ماتت يا هيدرا.. أتذكرين؟».

التفّت مقلتاها نحو الخلف.

قلت لها «اصمدي، وصلت سيارة الإسعاف.. أنا بحاجة للذهاب إلى الطابق السفلي وفتح الباب لهم.. حسنًا؟» تمتمت بهدوء وببطء وهي تغيب عن الوعي.. تنصلت من قبضتها الضعيفة، وبينما كنت أقف نظرت إليّ وقالت: «لورين.. تعرف.. لورين.. كانت تعرف».. ثم أغلقت جفونها.

الفصل الثالث والثلاثون

«أخبرتك أنها كانت بتلك الحالة، عندما عثرت عليها».. قلتها للمحقق هاردينج بينما كانت سيارة الإسعاف تسرع مبتعدة وتومض بالأضواء وصفارة الإنذار تلوح بالمكان. لم أتعرف على المسعفين، الذين صعدوا على السلم لإنقاذ هيدرا.. كنت أتوقع رؤية ناثان. أردت أن أصرخ عليه أو اتهمه أو أركض إلى ذراعيه أو ألكمه.

سألني المحقق وهو يشير بقلمه نحو اللافتة: «لماذا جئتِ إلى هذا الفندق؟» كان المقيمون بالفندق الآخرون يخرجون على شرفاتهم للمشاهدة، وكان المدير يتحدث إلى شرطي في سيارة دورية قريبة.

«أخبرتك بذلك أيضًا. تتبعت ناثان إلى هنا».. شعرت بمرارة كلماتي وأنا أقولها.

«خطيبك»، دوّن هاردينج ملاحظة بصوت خربشة مزعج صادر عن القلم.

- «وجدت بطاقة الفتح في الخزانة بعد حفل العشاء.. لا بد أن هيدرا قد نستها. لكنها أنكرت ذلك».

- «أنتِ سمحتِ لنفسك بدخول الوحدة...».

- «اعتقلني إذا كان ما فعلته مخالفًا للقانون».

- «إذًا تتبعتِ ناثان إلى هنا الليلة الماضية و...».

«رأيتهم عبر النافذة معًا، وهم يتعانقون.. عدت للحديث معها ووجدتها بتلك الحالة». أخبرت شخص ما عما رأيته وعما فعلاه ناثان وهيدرا.. هذا الشخص هو المحقق دونًا عن كل الناس.. الأمر أصبح جدي الآن ولا مجال للتراجع.

- «لقد أتيتِ إلى هنا لمواجهتها».

- «ربما، إذا كنت تريد اعتبار الأمر بهذه الطريقة».

- «إذن، لديك سببٍ وجيه للتشاجر معها ودفعها؟».

«لم أتشاجر معها.. لم أفعل أي شيء لها. لقد عثرت عليها على الأرض»، نظرت إلى الوحدة وأضواءها المشعة في الداخل، حيث كانت الشرطة تمشط الغرف وتفتشها.

سألته: «لقد تناولت الحبوب، أليس كذلك؟».

- «لا أعرف، أخبريني أنتِ».

- «رأيت الدم على زاوية الطاولة. لا بد أنها سقطت... هل ستكون بخير؟».

«نحن لا نعرف بعد»، نظر نحو الغرفة ثم إلي وأردف: «هل رأيتِ أي شخص آخر في الجوار؟».

- «لا أحد.. كانت وحدها».

- «هل من عادتك تتبع الناس واقتحام غرف الفنادق الخاصة بهم؟».

- «كان لديّ مفتاح كما قلت. ولم أتتبع الناس.. كنت أتتبع ناثان.. قالت هيدرا إن لورين تعرف.. أنا متأكدة من أن هذا ما قالته لي قبل أن تفقد الوعي.. «لورين تعرف».

- «برأيك ماذا كانت تعني؟».

- «ربما كانت لورين تعرف عن علاقتها مع ناثان؟».

«آها»، قالها المحقق وهو يمرر إصبعه على شاربه ثم سأل: «هل يمكن لخطيبك أن يكون له تاريخ من مقابلة النساء بالفنادق؟ ربما كان على علاقة بلورين أيضًا؟».

جمدّت الرياح بشرتي كوخز ألف إبرة من الجليد.. قلت له «ليس لديّ أدنى فكرة».

سألني، وهو يلوح بالقلم الرصاص في حركة دائرية صغيرة بالهواء «بليلة وفاة لورين، هل كنتِ بالخارج تطمئنين على ناثان؟ كما كنتِ تفعلين الليلة؟».

كان ينمو الخدر بوجهي وأضواء سيارات الشرطة تعميني.

أجبته «لا، كنت بالفراش».

عاد عقلي إلى الخلف، وتذكرت الصباح الذي وجدت فيه لورين، عندما خرجت مرتدية حذائي الرياضي.. كان رطبًا وتتعلق به قطع من العشب.

«هل أنتِ واثقة؟ أمن الممكن أن ناثان قد التقى بهيدرا تلك الليلة أيضًا؟ ربما خلسة في موعد؟».

حدقت فيه ببرودة وبأنفاسي الحارة، التي كانت تبخر الهواء بيننا وقلت له: «ما الذي تحاول الوصول إليه؟».

أجابني بلطف: «أشعر بالفضول فحسب.. ربما كان ناثان هنا في الفندق مع هيدرا بلاك اليوم قبل وصولك».

«ليس من الممكن أنه كان هنا.. إنه بالعمل».

أماء المحقق وقال: «أتريدين إخباري بأي شيء آخر؟».

«قال ناثان: إنه كان يساعد هيدرا لتهرب من علاقة زواجها المؤذية جسديًا».

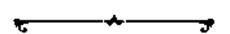
«كانت ستهجر الطبيب بلاك، جرّاح أمراض القلب».

قلت له: «لا يتعلق الأمر بمهنته.. لكنه سافر لحضور مؤتمر».

«هذا ما أسمعه».. شعرت بالمحقق ينظر إلى لكنني لم أرى نظراته.

قلت له: «أنا بحاجة للتحدث معها.. أريد أن أعرف ما الذي يحدث؟ لماذا تناولت هذه الحبوب؟ لماذا كانت هنا مع ناثان؟ ماذا كانت تعني بقولها إن لورين تعرف؟».

وضع المحقق المفكرة في جيبه مرة أخرى، وقال: «تلك أسئلة وجيهة يا ماريسا.. أود معرفة الإجابات أيضًا.. يجب أن نسألها عندما تفيق».



الفصل الرابع والثلاثون

في الصباح، بينما كنت أوقف سيارتي بالمستشفى نظرت إلى يدي على عجلة القيادة. كان إصبع الخنصر خاليًا دون وجود خاتم الخطوبة. قدت سيارتي إلى هنا في حالة من التشتت، فلاتزال أسئلة المحقق تجوب عقلي. هل يعتقد أنه من عادتي تتبع الأشخاص ليلًا؟ هل يعتقد حقًا أنني قد أؤذي لورين؟ ما الذي أفعله هنا حتى؟ ماذا سأقول لهيدرا؟ قال ناثان عندما اتصل بي الليلة الماضية، إنها عانت من جرعة زائدة من مضادات الاكتئاب، لكنها ستكون على ما يرام.. والدم كان سببه جرح سطحي ليس بخطير.. أراد أن يستمر في الحديث والتفسير لكنني أغلقت الهاتف، حيث كانت هناك عاصفة من الغضب تتصاعد بداخلي.

الآن أجلس هنا وأشعر بأنني ثقيلة وخاملة مثل السيارات المتوقفة من حولي.. يريد جسدي أن يغوص في النسيان، لكني خرجت من السيارة ومددت ساقيّ لأدرك كم أن جسدي متصلب وأطرافي يثقلها الإرهاق.. فأنا لم أنم جيدًا.

سرت عبر ساحة انتظار السيارات ودخلت إلى المستشفى.. أخذت المصعد إلى غرفة هيدرا.. رأيت طرف فراشها من خلال الباب المفتوح جزئيًا قبل أن أراها.. تدفق ضوء رفيع من أشعة الشمس عبر نافذة كبيرة لينثر نوره عبر البلاط وفوق سطح الطاولة وطاولة بجانب الفراش والملاءات.. كان هناك تلفاز يتدلى من السقف ويبث الأخبار بصمت.. طرقت الباب بهدوء.

أجابني صوت ناعم وعميق «ادخل».

خطوت للداخل وأنا أمسك بحقيبتي. كانت هيدرا تجلس متكئة على وسائد ورأسها مضمد، بينما كان يتدلى أنبوب الحقن من خلف يدها. نظرت نحوي بينما أفتح الباب على مصراعيه، ثم رأيت كيث منحنيًا على الكرسي بجوار فراشها. لم يسبق أن رأيته بهذه الطريقة أبدًا؛ مرهق ومضطرب كما أن قميصه وسرواله غير مفرودين تمامًا مثل الفراش غير المرتب.. لا يبدو كمعتدي البتة.. يبدو كزوج قلق على زوجته.

قال لي «ماريسا، تفضلي بالدخول».. مد يده نحو الفراش وأمسك بيد هيدرا.

قلت لهيدرا: «جئت لأطمئن على حالك»، وبداخل عقلي أقول جئت لأصرخ عليكِ. لكنها تبدو منهكة وشاحبة.. حاولت السير بهدوء، رغم أن حذائي يصدر صريرًا على الأرض.

«ارتجاج خفيف».. قالها كيث متجاهلًا الجزء المتعلق بالجرعة الزائدة، ثم أردف: «نحن ممتنون لأنكِ عثرتِ عليها وأنقذتِ

حياتها»، لم يذكر أي شيء عما كانت تفعل هيدرا في الفندق.. ماذا عن الحبوب؟ هل تناولت الزجاجة بأكملها؟

سألتها محاولة الحفاظ على تحضري «لكم من الوقت ستبقين هنا؟».

أجابتني: «يمكنني أن أغادر غدًا، ربما اليوم حتى».. ويبقى سبب وجودها في الفندق غير معلن، كالضغينة التي أحملها لها. لمست جبينها وأردفت: «لا أعرف ماذا فعلت.. لا بد أنني فقدت الوعي».

إنها تعرف جيدًا ماذا فعلت.. أريد أن أصرخ عليها لتكف عن التمثيل لكن لم تسول لي نفسي أن استفزها.. نظرت حولي بحثًا عن كرسي آخر، فأشار كيث إلى كرسي بجانب الجدار بالقرب من طاولة ذات حوض.. سحبت الكرسي إلى الجانب الآخر من الفراش، وقلت لها: «أنا سعيدة لأنكِ لم تصابي بجروح خطيرة»، أم أنني سأسعد لو كانت قد أصيبت؟

ضغط كيث على يدها مطمئنًا ثم قال: «نحن جميعًا سعداء».. نظر إليّ ثم أردف «أنتِ شاحبة.. متى كانت آخر مرة أكلتِ فيها؟».

«لا أستطيع أن أتذكر».. ربما تناولت حبوب الإفطار صباح اليوم.. أم لا؟

أشار إلى الطاولة بجانبي وقال: «هناك كيس من الفول السوداني هناك.. يجب أن تأكلي».

«أنا على ما يرام.. لا أستطيع التفكير في الطعام».

أجابني: «لا ألومك، لا بد أن رؤية هذا الجانب من أخي صعب عليكِ».

سألته بحلق جاف «أي جانب؟».

نظر إلى هيدرا ثم إلي وقال: «يمكننا التحدث في وقت لاحق.. ستفهمين الأمر».

«لست متأكدة من أنني أفهم شيئًا».. أردت أن أصرخ قائلة أفهم أنه كذب عليّ.. أفهم أن أيًا منكم أو جميعكم قد يكذب.. أردفت لهيدرا: «أنا لا أفهم ما كان يفعله في غرفتك بالفندق.. ما الذي حدث بالضبط؟».

رمشت هيدرا عيناها الغارقة بالدموع وأشاحت نظرها نحو النافذة، ثم قالت: «لست متأكدة أن الأمر يعني أي أحد».

قلت لها: «ما يفعله ناثان يعنيني بنسبة مائة في المائة».

«فلتسأليه إذًا».

«سألته بالفعل.. أحتاج لسماع جانبك من القصة».

قالت لي: «رأسي يؤلمني».

«يقول ناثان إنكِ ستتعافين».

عبس كيث وقال: «ناثان قال ذلك فعلًا؟».

قالت هيدرا وهي تلمس جبينها بظهر يدها: «أنا لا أشعر أنني بحالة جيدة».

أردت أن أقول إنني لا أشعر أنني بحالة جيدة أيضًا، بسبب فساد خطبتي، لكنني منعت نفسي عن ذلك.. فهي بحالة يائسة. كما أنني أكره أن ما فعلته هيدرا مع ناثان قد أظهر هذا الجانب المرير مني.

قال كيث بلطف «ماريسا، هيدرا، يجب أن تستريح فهي تعاني من إصابة بالرأس».

وقفت وهرعت نحو الخارج، بينما كان يرتجف جسدي ثم توقفت، ونظرت إلى هيدرا وقلت: «أخبرني ناثان أنكِ تناولتِ جرعة زائدة من الدواء، وإن إصابة رأسك سطحية».

رفعت يدها نحو جبينها وقالت: «تم تقطيب جرحي».

«ماذا، قطبة أو اثنتان؟ لا يهم».. حدقت بكيث وقلت له «ألا تتساءل عما كانت تفعله في الفندق مع ناثان؟ ألا تريد أن تعرف ما إذا كانت زوجتك قد مارست الحب مع شقيقك؟ قال لي ناثان إنك كنت تؤذي هيدرا جسديًا وأنه يساعدها على هجرك».. أنا على دراية بالطريقة التي أبدو بها.. أبدو منزعجة ومضللة وأوجه الاتهامات.. لكنني أشعر كما لو أنني لا أملك السيطرة على حياتي.. لقد مررت بموقف لورين أولًا، والآن ناثان.. الوضع أشبه بقطار على وشك أن يخرج من مساره، وليس بوسعي إيقافه.

حدقت هيدرا في يدها اليسرى، وحركت خاتم زواجها.

نظر إليها كيث بألم واضح في عينيه وسألها: «هل هذه هي القصة التي قالها كل منكما؟».

همست مجيبة: «لا، هذا ليس صحيحًا».

دخلت ممرضة من الباب وقالت: «هل كل شيء على ما يرام هنا؟».

أجابها كيث: «نعم، كل شيء على ما يرام.. الأمر تحت السيطرة».

أماءت الممرضة ثم رحلت.. التفت كيث إلي وقال: «اسمعي، هذا ليس الوقت أو المكان المناسبين للتحدث».

«لم يكن الوقت أو المكان المناسب بالليلة قبل الماضية أيضًا، أو أي ليلة أخرى قضتها هيدرا في الفندق مع ناثان. منذ متى والأمر يحدث؟ هل كنتِ مع ناثان حتى عندما تقدم لخطبتي؟».. تذكرت الآن ليلة تقدم ناثان لخطبتي.. تذكرت كيف قامت من على مائدة الطعام وهربت نحو الحمام.. تذكرت ناثان وهو يهمس لها في الرواق.

قالت بهدوء «لا، لم يحدث شيء».. ثم التقطت كوبًا بلاستيكيًا من الصينية فوق الطاولة، وارتشفت بيدها المرتعشة.

قرّب كيث القشة نحو شفتيها وقال: «على رسلك، ستختنقين».

سألتها: «منذ متى إذًا؟».

استمرت بالشرب، وهي تحدق أمامها مباشرة.

وضع كيث كوبها على الطاولة وقال: «إنها مرهقة.. يجب ألا تتحدث كثيرًا الآن. كما أنه على مناقشة الأمور معها أولًا، وسيأتي المحقق ليستجوبها».

إذًا لقد سبقت دان هاردينج.. وضعت حقيبتي على كتفي وقلت: «يجب أن تخبرني. أريد أن أعرف يا هيدرا.. لماذا تقدم ناثان لخطبتي إذا كان يواعدكِ؟ إذا...».

قال كيث بصوت هادئ: «هذا هو ناثان.. لطالما كانت تلك طريقته. لقد فعل هذا من قبل».

«توقف».. قالتها هيدرا وهي تشيح بنظرها نحو النافذة، وكان كيس أنبوب الحقن يشع بالضوء بينما يقطر.

سألت: «هل كان لديه علاقات غرامية من قبل؟».

قالت هيدرا لكيث: «لا تقول شيء».

سألتها: «هل كنتِ تخططين للارتباط بناثان على المدى الطويل؟».

وقف كيث فجأة وكان قميصه خارج سرواله بالخلف ثم قال: «إنها ليست على علاقة به، ستعود للمنزل معي» سألها بصوت حزين «أليس كذلك؟».

قالت دون أن تنظر لي: «نعم، سأعود للمنزل».

وضعت يدي على حقيبتي وقلت لها: «عندما عثرت عليكِ بالفندق، كنتِ تتمتمين. أتذكرين؟».

نظرت لي بحنق ثم أشاحت وجهها نحو النافذة مرة أخرى وقالت: «لا أتذكر أي شيء.. كل ما أتذكره أنني كنت أقف بجانب الفراش ثم وجدت نفسي هنا بعدها».

خفق قلبي وتساءلت هل يمكن أن تكون قد نست؟ سألتها مجددًا: «قلتِ شيئًا عن لورين.. أظنك قلتِ أن لورين تعرف؟».

هزّت كتفيها وانخفضت شفتاها مجيبة «لا أتذكر أي شيء من هذا القبيل».

جلس كيث مرة أخرى ووجهه يشحب، كما لو أن اللون يتسرب من خديه، ثم قال لي: «أنا متأكد من أن هيدرا لا تعرف ما كانت تقول».

سألتها «أمتأكدة؟».

قالت هيدرا، وهي تنظر نحو النافذة «لا أتذكر».

«لكنكِ تعرفين ما أتحدث عنه.. هل تعرفين ماذا حدث لها؟ ماذا حدث للورين؟».

أجابتني هيدرا «سقطت، الجميع يعرف هذا».

«هل أضعتِ وشاح تلك الليلة في منزلنا؟».

سألتني: «عم تتحدثين؟».

«وجدت وشاحًا في الماء، حيث ماتت لورين.. أخذه المحقق.... هذا الوشاح ينتمي إليكِ».

نظرت إلى هيدرا بحدة وقالت: «ليس لدي أدنى فكرة عما تتحدثين».

هناك شيء ما، مثل خيط يربط الأمور ببعضها.. الوشاح ولورين وهيدرا وناثان. ولكن ما هو؟ سألتها: «هل أحضرتِ الوشاح عندما أتيتِ تلك الليلة؟ كيف انتهى به المطاف في الماء؟».

ضغطت بجسدها على الوسائد وسألتني: «أي وشاح؟ لا أملك أية أوشحة».

«رأيت الإيصال في متجر ريان.. كان تاريخه يعود إلى يوم السبت قبل الماضي».

نظرت بقلق إلى كيث، ثم إليّ وأغلقت عينيها قائلة: «اشتريت أشياء من متجرها، لكن...».

حدّق كيث في وجهها، وكأنها مخلوق غريب خرج لتوه من كهف ثم سألها: «كنتِ في ترانكيل كوف ذلك اليوم؟ أخبرتني أنكِ تزورين صديقة مريضة».

قالت بصوت مرتعش: «لقد كنت أزور صديقة».

«ما الذي تتحدث عنه ماريسا يا هيدرا؟ ما أمر الوشاح؟».

«لا شيء.. لا أعرف أي شيء عن الوشاح الموجود في الماء.. ما علاقة ذلك بلورين؟».

قلت لها وأنا أشعر، إن جسدي يرتعش: «لقد كانت تصارع لتنقذ نفسها، لم تكن تريد أن تسقط من الهاوية. حمل جسدها كدمات وكانت فروع الشجيرات مكسورة».

شحب وجه هيدرا وهي تجيب: «لا أعرف ما حدث لها.. كنت نائمة».

وقف كيث مرة أخرى واقترب من فراش هيدرا، ثم أزاح الشعر من فوق جبهتها بحركة لطيفة.. جفلت هيدرا وأشاحت رأسها بعيدًا عنه بينما قال لها: «إذا كنتِ تعرفين شيئًا يا عزيزتي فنحن بحاجة إلى إخبار المحقق».

حبست أنفاسها مجيبة: «لا يوجد لديّ ما أقوله».

«هل أنتِ متأكدة يا عزيزتي؟ إذا كنتِ تعرفين...».

«لا.. أنا لا أعرف شيئًا!».

ربت كيث على ذراعها وقال: «حسنًا، ولكن هل تحاولين حماية شخص ما؟ ناثان مثلًا؟».

«لا.. لقد أخبرتك أنني لا أعرف ما الذي تتحدث عنه ماريسا».

قال كيث: «حسنًا، أنتِ متعبة.. فلتنالي قسطًا من الراحة».

«هذا كل ما كنت أفعله!».

قادني كيث إلى الرواق، وبينما كان يميل نحوي شممت رائحة عطره الخفي.. قال لي: «نحن بحاجة إلى التحدث بخصوص الأمر أنا وأنتِ.. فكلانا يحمل نفس الشكوى».

قلت له وأنا أضع كفيّ داخل جيوب سروالي «أو شكاوى متشابهة».

«ماذا قال لكِ ناثان؟ بخصوصي؟».

«أعتقد أنك تعرف.. أخبرني عن الماضي، عن الطريقة التي كنت تعامله بها...».

«أعترف أنني كنت أحمق.. لكننا كنا أطفال.. يجب أن تكوني حذرة فناثان ليس ملاك وبإمكانه خداعك»، قالها وهو يحك ذقنه المشعرة ويمرر يده على خده.

«الأمر مضحك كونه قال نفس الشيء عنك».. في الوقت الحالي لم ينجح أي من الشقيقين في الصدق معي.

«من تصدقين فينا؟»، انتصب وابتعد عني ليسمح لممرضة أن تمر بيننا.

«أسأل نفسي السؤال نفسه.. ربما لا أصدق أيًا منكم».

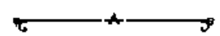
قال كيث: «لا ألومك» نظر إلى حذائه الأسود ثم إلى وجهي وقال: «لكن الآن، هيدرا هي شاغلي الأساسي.. هل تعرفين كم حبة تناولت؟ خمسة وعشرين ملليجرام، أي تسعة حبوب تقريبًا، وهذا كافٍ ليودي بحياتها.. مهما كانت المشكلات التي واجهتنا فهي لا تستحق خسارة هيدرا.. ستحتاج للخضوع إلى العلاج النفسي».

«هل تريد هي أن تخضع للعلاج النفسي؟».. سألته وأنا أكمل بعقلي؛ أم كانت تحاول الهرب منك؟ من حياة لم تستطع تحملها؟

«ستوافق، ستتفهم أهمية الأمر.. أيًا كان ما حدث بينها وبين ناثان فقد انتهى الآن.. أكدت لي ذلك».

«أتفترض أنها تريد العودة إليك؟».

حك فكه مرة أخرى، ثم نظر إلى وقال: «لماذا قد لا تريد ذلك؟ كلنا نشعر بالضيق بين الحين والآخر، ألا تعتقدين ذلك؟ قد تبتعد هيدرا، لكنها ستعود أدراجها في نهاية المطاف بطريقة أو بأخرى».



الفصل الخامس والثلاثون

عندما عدت إلى منزلي كان أبي يحاول أن يطمئنني من صورته.. لطالما كانت عيونه لطيفة ومتسامحة.. كان متسامح جدًا.. كان دائمًا ما يحسن الظن بأمي حتى بعد مغادرتها.. كان يقول لي «تحتاج لعطلة صغيرة وستعود».. لكنه كان مخطئًا.

هجرتنا روحًا قبل فترة طويلة من أن تهجرنا جسدًا.. كل تلك الرحلات القصيرة بمفردها إلى أريزونا ونيو مكسيكو وكاليفورنيا. كانت تدّعي أنها تحضر مؤتمرات، أو تزور أقاربها.. لكننا لم نكن نعرف أنها كانت تخطط لرحلتها الأخيرة لأعوام. كانت تدخر المال وتخطط طريق السفر.. عندما عدت من العام الأول أثناء دراستي بالجامعة لقضاء عيد الميلاد مع أبي كانت قد أزالت ممتلكاتها، بما في ذلك كل صورها وأي شيء قد يذكّرنا بها. لكنها تركت كوبًا مكتوبًا عليه «أفضل أم»، كنت قد أهديتها إياه في عيد الأم عندما كنت بالثانية عشرة.

انعكست أشعة الشمس على آخر بطاقة بريدية منها فوق مائدة الطعام.. كان مكتوب عليها:

عزيزتي ماريسا، أنا وسفين في ميلان لحضور معرض.. يا لها من مدينة.. لو لم أكن أحب باريس كثيرًا لكنت انتقلت للعيش هنا.. فلتأتي للزيارة. أفكر فيكِ.. أحبكِ.. والدتك.

الكلمات تميل إلى اليمين، وكأنها تحاول الهرب من الورقة مثلما كانت تتوق أمي أن تهرب منا.. لماذا لم تغادر مبكرًا؟ فلم يكن يمنعها أحد.

حاولت أن أتخيل مشهدًا مستحيلًا: أمي تتصل بي لتسألني عن حالي وكيف تجري الأمور كما لو أنها تهتم حقًا.. تحجز مقعد بأول طائرة عودة لتدعم ابنتها وقت الحاجة.

لكنها لن تفعل ذلك أبدًا.. إذا اتصلت بها فستتصرف مثلما تصرفت عندما اتصلت بي في عيد ميلادي التاسع عشر، يوم ٩ فبراير، بعد وقت قصير من رؤيتي للورين مع جنسن بالفراش. قالت لي بصوت متسرع وبعيد عن الهاتف «أحيانًا يكون الحب قاسيًا.. لكنكِ ستتعافين ولن تستسلمي، أليس كذلك؟ ماري، يجب أن أغلق الهاتف، وصلت سيارة الأجرة».

لا أتوقع أي شيء منها بعد الآن.. كما أنني لم أحتاجها منذ أعوام.. أراسل أختها، خالتي في مومباي وأقارب آخرين منتشرين في جميع أنحاء الهند.. دعمهم يأتي بشكل خطابات مكتوبة بخط اليد أو رسائل قصيرة على موقع فيس بوك.. لقد تجاهلت جميع العلامات المبكرة لرغبة أمي في الرحيل.. لكن تلك العلامات كانت موجودة؛ فلطالما كانت تحدق في العدم وتسرع بتناول الطعام ثم تغلق غرفة مكتبها على نفسها.. غلبت على الأوقات التي كانت تضحك فيها

معي وتمشط شعري وتذهب معي لشراء ملابس المدرسة.. لكنها لم تستخدم الكوب الذي أعطيته لها قط وتركته وراءها.

هل تجاهلت علامات ناثان أيضًا؟ هل أعرفه جيدًا؟ هل أعرف أي شخص جيدًا؟ قلت لصورة أبي: «ساعدني».. لكنه لم يستطع أن يطمئنني.

عادت هيدرا إلى المنزل مع كيث بعد زيارتي لها بيوم.. لم أتحدث معها منذ تسعة أيام.. ولم أتحدث مع ناثان أيضًا، رغم أنه حاول الاتصال عدة مرات.. أتى ذات مرة عند بابي لكنني لم أجب.. وبينما كان يعود إلى شاحنته بكتفين مرتخين رأيت ستارة بي مورني ترفرف بنافذة غرفة معيشتها.

وجدت عزائي في العمل صباح هذا اليوم.. لوّح طائر القرقف جناحيه فوق حوض الطيور خارج نافذة مكتبي وبهذه السهولة، كان يرفرف الريش وتتناثر قطرات الماء في جميع الاتجاهات.. بدا المشهد مريح وخلاب.. طار المخلوق الصغير فوق مشاكل هذا الكوكب.. هناك شيء خالد وغريب عن الطيور فهي أحفاد الديناصورات الباقية كدليل على الماضي الدهور.. أشعر بالراحة عندما أعرف أنه بعد ملايين السنين من الآن لن تكون لحياتنا قيمة سوى كونها فوضى كونية. ستتحول عيون لورين إلى غبار النجوم.. سيختفي كل من ناثان وهيدرا المتعانقين بحميمية في التاريخ.. أنا متأكدة من هذا.. لن يتذكرني أحد وأنا أفتقد ناثان وآنا والحياة التي ظننت أننا نعيشها.

أنا ممتنة لوجود روتين اليوم الدراسي ليشغلني.. فالأطفال يركضون ويصرخون، ورائحة الكتب والأقلام تفوح.. المنظر من نافذة مكتبي لأشجار جار الماء والقرانيا له تأثير مهدئ على طلابي، أتمنى لو بإمكاني الاسترخاء أيضًا.

قالت جولي وهي تقف على الباب: «من الأرض إلى ماريسا»، دخلت إلى الغرفة مرتدية فستان بلون النحاس وسترة برتقالية واسعة وتحمل كوب قهوة ورقي من مقهى ترانكيل.. وضعت الكوب على مكتبي، وقالت: «نظرًا للوضع، توقعت أنكِ تريدين كوب آخر من القهوة اليوم لكي تفيقي».

قلت لها وأنا أزيح شعري: «أصبحت كئيبة، أليس كذلك؟ أنتِ ملاك القهوة الخاص بي».

«ملاك القهوة، ملاك القهوة».. أخذت بالغناء على أنغام أغنية ملاك الأرض ثم عانقتني عناق سريع وسألتني: «بجدية، كيف حالك؟».

«العمل يساعدني بالتشتيت، فالبقاء بالمنزل يثير جنوني».

«من الأفضل تثير المدرسة جنونك، أليس كذلك؟»، قالتها وهي تجلس على الكرسي وتضع ساقًا فوق الأخرى، ثم تأرجح قدمها.

«العمل يبقيني متزنة عقليًا» قلتها وأنا أنظر لأعمالي الورقية ورسائل البريد الإلكتروني الثلاثة والسبعين على شاشة الكمبيوتر، والتي لم أقرأها بعد. أردفت لجولي قائلة: «لديّ جلسة مع آنا بعد ظهر هذا اليوم.. أنا متوترة».

حدقت جولي بي وفمها مفتوح ثم قالت: «هل ستستطيعين فعل ذلك؟».

- «مشكلة التلعثم تزداد سوءًا.. اتصلت بي ريان، أمس، وطلبت مني أن أفحصها مرة أخرى».

- «يمكنكِ الرفض.. بإمكان أي شخص آخر القيام بالأمر عنك».

- «لقد فكرت في ذلك، لكنني افتقد آنا.. أعرف أنه لم يمر سوى أسبوعين، ولكنها كابنتي».

- «هل من الممكن أن تزيد جلساتك معها من مشكلتها؟».

- «أنا قلقة بهذا الشأن أيضًا، لكن ريان قالت إن آنا تريد رؤيتي. لا أريدها أن تظن أنني تخليت عنها».

- «لم تفعلي.. والدها هو من تخلى عنكِ. دعينا لا ننسى من أساء بحق من.. آسفة لكنني غاضبة من هذا الرجل نيابة عنكِ».

«أشكرك، هذا يساعدني».. قلتها ثم ارتشفت القهوة القوية وأنا ممتنة لشرب جرعة مزدوجة من الكافيين.. أردفت قائلة: «لكنني لم أره معها في الفراش».

- «في غرفة فندق وهو يعانق زوجة شقيقه بحميمية فقط».

- «لا تنسي أنه كان لديه تفسير معقول تمامًا».

- «أنتِ تمزحين، أليس كذلك؟».

- «صدقًا أنا لست متأكدة».

- «حسنًا».

قلت لها: «أنا لا أريد أن أسيء الظن بالجميع».

- «أنت لا تسيئين الظن به.. لقد وثقتِ به».

- «أنتِ على حق، لقد وثقت به.. أنا فقط بحاجة إلى وقت».

وقفت واتجهت نحو الباب، ثم قالت: «فلتأخذي قدر ما تريدين من وقت.. استمتعي بيومك. لدي صف بعد خمس دقائق».

ناديتُ بعد أن غادرَت قائلة «شكرًا على القهوة».

جلستي الأولى كانت مع فتاة تبلغ من العمر ثمانية أعوام تدعى فريا والترز، خضعت لعلاج النطق لمدة ست أعوام قبل أن أشخصها باضطراب الفوضى. حاولت تصفية ذهني قبل أن تدخل إلى مكتبي على أطراف أصابعها.. جلست أمامي على الطاولة الزرقاء في الزاوية ظلت تتحرك وتتقلب بمقعدها.

«صباح الخير يا فريا.. كيف حالكِ اليوم؟».

«أنا بخير».. قالتها بهدوء وتقلبت نحو اليمين، ثم إلى اليسار ومدت ذراعيها فوق رأسها.

«دعينا نتدرب على جملنا.. أتذكرين ما تعلمناه؟ خذي كل بطاقة بالترتيب من اليسار إلى اليمين واقرأيهم بوضوح.. خذي وقتك.. سأقوم بتسجيل صوتك على جهاز الآي باد الخاص بي».. فتحت التطبيق وضغطت على زر التسجيل.

قالت وهي تضع البطاقة الأولى أمامها: «أريد...».. ثم البطاقة الثانية: «أن أطلب...».. ثم البطاقة الثالثة: «بيتزا بالجبن.. أريد أن أطلب بيتزا بالجبن».

قلت لها «جميل».

لكن كلمات الجملة التالية كانت متسرعة ومتلاصقة حين قالت: «أريد أن أتناول بعض الباستا على العشاء».

سألتها: «كيف بدت تلك الجملة لكِ؟».

هزت فريا كتفيها.

«دعينا نستمع إليها.. ثم يمكنكِ أن تخبريني ما إذا كانت سلسة أو متعثرة».

ضغطت على زر التشغيل في التطبيق، واستمعت فريا ثم قالت وهي تتنهد «متعثرة».

«سأقرأ البطاقات ثم ستعيدين المحاولة.. لقد اندفعتِ قليلًا بنهاية الجملة».

ظلت تتحرك وتمد ذراعيها على الجانبين، وتنزلق إلى أسفل الكرسي، ثم تعتدل وتركل بساقيها.. لكنها استمعت لي وحاولت مرة أخرى ونجحت.

قلت لها «ممتاز.. أنتِ تعملين بجد!».

بعد جلسة فريا، كانت هناك جلسة مع صبي يعاني بنطق حرف الراء، وطالب في السابعة من عمره يدعى جيمس، استغرق عشر دقائق لشرح عواطفه، وكيف يتحدث جيدًا عندما يكون بجوار أصدقائه.

سألته: «ماذا يحدث عندما تتحدث إلى شخص لا تعرفه؟».

«أعلق وتتعثر كلماتي».. قالها وهو يمسك بأذرع الكرسي.. مال إلى الجانب الأيمن ثم الأيسر ووقف على قدميه وجلس مرة أخرى ثم أردف: «لكن هذا يحدث عندما أشعر بالقلق فقط».

«من الجيد أن تكون على دراية بنفسك.. أنت نبيه للغاية».. تمنيت لو كنت أفهم نفسي أو الأشخاص الذين أحبهم كما يفهم جيمس مشكلة كلامه.

مع مرور الساعات عدت إلى حالتي وتلاشى حزني في الخلفية.. كان يومًا حافلًا ساعدني على تخفيف الألم.. ولكن عندما أتت آنا وهي تمسك يد ريان تضاربت مشاعري مجددًا. لماذا جاءت ريان؟ عادة يأتي الطلاب وحدهم مباشرة من الصف. ربما أتت لتتشاجر معي.. كانت جولي محقة، يجب أن أرفض معالجة آنا.. حبست أنفاسي ثم أطلقتها ببطء وزيفت ابتسامة وأنا أعانق آنا قائلة: «أنا سعيدة للغاية لرؤيتك».. عانقتني سريعًا وابتسمت ريان لي بقلق.. تركت آنا وقلت لريان: «يجب أن نتحدث.. لا أعتقد أنني يجب...».

قاطعتني ريان «أرجوكِ، كانت آنا تتحرق شوقًا لرؤيتك.. سأكون خارجًا بالرواق».

«حسنًا».. قلتها وأنا أحاول ألا أبدو قلقة.. ما الذي يحدث هنا؟.

غادرت ريان وأغلقت الباب خلفها بلطف.. جلست آنا على كرسيها المعتاد أمام الطاولة لتعيد صدى الماضي.. تذكرت ناثان وهو ينظر من خارج النافذة ثم يدخل ويسرق قلبي كما أتذكر ابتسامة آنا المتألقة.. لكن الآن، بعد عدة أشهر أصبحت منعزلة وصامتة.

سألتها: «كيف تشعرين حيال العودة مرة أخرى إلى هنا؟».

لم تقل شيئًا ونظرت إلى حجرها.. لم تتحرك على عكس كل الطلاب الذين قابلتهم اليوم، فهي بدت وكأنها متجمدة.

«هل تفضلين المتابعة مع شخص آخر؟».

نظرت إلي بعينين واسعتين، وحركت شفتيها لترسم كلمة لا.

«هل تقبلين أن تكوني هنا معي؟».

ظلت تومئ برأسها ولاتزال عيناها واسعتين.

«آنا، هل تريدين أن تخبريني عن مشكلة تحدثك بطلاقة؟».

بدت وكأنها بالكاد تتنفس، وهي تنظر نحو النافذة.

سألتها «هل تواجهك مشكلة في التحدث بطلاقة؟».

أماءت وهي لاتزال تنظر إلى حجرها.

«فيم تفكرين؟ بم تشعرين؟».

نظرت إلى السقف وضربت كعبها بساق الكرسي.

«الأمر صعب بالنسبة لكِ كونك عدتِ إلى هنا، لكن لا بأس بذلك.. سنعمل على الأمر معًا».

فتحت فمها ثم أغلقته دون أن تنطف ببنت شفة.

أشرت إلى المساعدات البصرية على الجدار وسألتها «أتذكرين ما تعلمناه؟ تنشقي ما يكفي من الهواء... وخذي وقتك ثم اربطي الكلمات».

هزت آنا كتفيها ونظرت خارج النافذة.. جربت بعض الأسئلة الأخرى، وأريتها بعض الصفحات لكنها كانت شاردة وصامتة.

«أيمكنكِ الخروج للرواق وتسمحي لي بالتحدث مع والدتك لمدة دقيقة؟».

وقفت وخرجت من الباب.. ثم أتت ريان وهي تحك يداها ببعضها وتعض على شفتها.. أغلقت الباب خلفها ثم سألتها: «ما الذي يحدث لآنا؟».

«أصبح كلامها قليل شيئًا فشيئًا، ومن الواضح أنها لم تكن تتحدث في المدرسة. عليكِ أن تفعلي شيئًا».

«أظن أنه يجب علينا أن نجعلها تتابع مع...».

قاطعتني ريان: «آنا قادرة على التحدث جيدًا.. لكن كل ما يحدث يؤثر عليها.. كل شيء».

قلت لها محافظة على هدوء لهجتي: «أنا أتفهم».

«لماذا لا يمكنكِ العمل على علاج تلعثمها مجددًا؟».

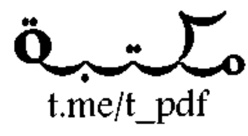
«أريد ذلك، لكن...».

قاطعتني ريان، وهي تهمس بعنف: «لقد قمتِ بعمل جيد من قبل. ابنتي بحاجة إلى التحدث مرة أخرى.. فأنتِ تعرفين كيف يسخر الأطفال منها.. الآن لا تتكلم حتى.. أنتِ تعرفين ماذا تفعلين».

«لكنني قد أذكّرها بما حدث في الأيام الأخيرة.. كما أنني ووالدها...».

«أنتِ وناثان لم تعودا مرتبطين، أليس كذلك؟».

قلت لها: «نعم، لكن...».



«ما المشكلة إذًا؟».

«لم يعد الأمر يتعلق بالتلعثم.. آنا تختار أن تلتزم الصمت هنا معي.. لا أستطيع تشخيص...».

«إنها بحاجة لأن تعود إلى وضعها الطبيعي».. استطعت أن أرى اليأس وقلة الحيلة في عيون ريان.. أشعر بنفس الشيء أنا الأخرى.

«لمَ لا تتحدثين مع ناثان بخصوص عرضها على...».

قاطعتني ريان، بينما كانت تسير ذهابًا وإيابًا على أرضية البلاط «طبيب نفسي؟ لن يروق لها الأمر، ولن يروق لي أيضًا».

«لا يمكنني إجبارها على التحدث.. سأنسحب من معالجة آنا في ظل تلك الظروف.. لكن يمكنني أن أحيلك إلى شخص آخر.. سأتحدث مع المشرف الخاص بي، وسنعمل على حل المشكلة».

تنهدت ريان وفردت كتفيها ثم قالت: «شكرًا.. حسنًا.. ربما هذا هو أفضل مسار للعمل»، قالتها ثم استدارت وأسرعت مبتعدة.

جلست على مكتبي لاستجماع أفكاري ومحاولة تهدئة حيرتي.. انتهى اليوم وهرع الطلاب إلى الرواق في تدافع.. تساءلت ما الذي حدث ودفع آنا نحو الصمت؟

تقلص مكتبي من حولي وأصبح الهواء يضيق بي فجأة.. لا أستطيع تحمل البقاء هنا.. وقفت وتوجهت إلى صف جولي، حيث يوجد ألوان عديدة ولوحات ورسومات وسيراميك وصور مجمعة.. تمتزج رائحة أقلام التلوين والصمغ مع الروائح المالحة العالقة للأطفال الصغار الذين غادروا للتو.

كانت جولي تجلس على مكتبها وتتحدث بالهاتف.. أشارت لي ثم ذهبت أنا لأرى الرسومات الموجودة على الجدران.. أثلج الإلهام الخيالي للأطفال قلبي إلى أن رأيت رسمًا في نهاية الصف يحمل توقيع آنا في الأسفل.. بدأ قلبي يخفق.. لقد رسمَت صورة غريبة ومزاجية ومشؤومة.. السؤال هو ماذا تعني تلك الصورة؟

الفصل السادس والثلاثون

أغلقت جولي الهاتف، ثم أشرت أنا إلى الصورة وأنا أسألها: «ما هذا؟ إنها جميلة، ولكنها غريبة للغاية».

«اعتقدت ذلك أيضًا.. كان أحد تدريباتي هو جعل الأطفال يرسمون صورة لعائلة ومنزلًا وشجرة.. هذا تفسير آنا».. قالتها وهي تشير للصورة.

قلت لها: «سماء مظلمة ومنزل من طابقين دون نوافذ.. لكن منزل ناثان به نوافذ، وكذلك منزل ريان.. إذًا منزل من هذا؟».

«سألتها وقالت إنه ليس منزل أحد، وأنها نسيت رسم النوافذ دون قصد».

«هل أخبرتِ والديها عن الصورة؟».

«ليس بعد.. لم أفكر في الأمر...».

«النوافذ رمزية.. فهي مثلًا تمثل وسيلة للخروج.. أو الدخول.. قد تمثل الستائر على النوافذ الخصوصية.. لكن أي منزل في العالم ليس به نوافذ؟».

هزت كتفيها وهي تحدق بالرسم ثم قالت: «المنزل دون نوافذ لا يقدم أي منظر.. ربما يمثل عدم وجود مهرب.. أو ربما لا يتعلق الأمر بالهروب، بل بعدم القدرة على الدخول.. لا أعرف فأنا لست طبيبة نفسية».

قلت وأنا أشير «لكن هناك بابًا».

«نعم، ولكن يمكن أن يكون موصدًا».

أشرت إلى الجسم المعتم للرجل الذي كان يقف بجوار المنزل في الصورة، ثم قلت «إنه طويل.. تقريبًا بطول الشجرة».

«لقد قالت: إن هذا هو الوالد ولكنه ليس والدها».

- «والد من إذًا؟».

- «لم تقل».

- «المرأة.. إنها كبيرة أيضًا.. طويلة... للغاية ومظلمة كصورة ظلية.. من تلك؟».

قالت: «إنها مجرد سيدة على ما يبدو».

امرأة طويلة.. هل يمكن أن تكون هيدرا؟ أشرت إلى الشخص الثالث في الصورة.

قالت جولي: «إنها الطفلة.. لكنها لم تقل إنها هي تلك الطفلة».

«هل فاتني شيء؟ لا يبدو أن لديها أيدي».

«قالت، إنها نسيت أن ترسمها.. لكنها تعرف كيفية رسم الأيدي».

«هذا مقلق. طفلة بلا أيدي.. هل تشير إلى طفلة تشعر بالعجز؟».

«أراهن أنكِ على حق.. ألم أقل أنكِ سريعة البديهة؟» قالتها جولي، ثم أزالت الصورة من على الجدار ووضعتها على مكتبها قائلة: «سأخبر والديها عن تلك الصورة والصورة الأخرى أيضًا.. لكن الصورة الأخرى لا تثير الكثير من القلق، ربما.. لا أعرف».

سألتها وأنا أشعر بأن أمعائي تتقلب «أي صورة أخرى؟».

قادتني جولي إلى الجانب الآخر من الغرفة حيث توجد سلسلة من الرسومات على جدار آخر.. قالت لي «طلبت من الأطفال تخيل العالم خلال خمسمائة عام.. وكأن هناك عالم آثار ينقّب بأرض الباحة الخلفية.. علام قد يعثر؟ هؤلاء الطلاب مبدعون للغاية.. استخدمنا أقلام التلوين والألوان الزيتية لرسم الأشياء التي قد تكون مدفونة.. وعندما انتهينا قمنا بالطلاء فوق كل شيء بطبقة رقيقة من الألوان المائية لتبدو وكأنها تحت الأرض».

قلت لها: «هذا رائع.. لعب، كتب، أحذية، ألواح شيكولاتة؟».

«أنتِ تعرفين، يعتقد الأطفال أن الأشياء لا تفنى».. أشارت إلى لوحة أخرى وأردفت «هذه لوحة آنا.. هذا ما قد يكون في فنائها.. فراشات وهواتف».

فراشات وهواتف.. نظرت إلى الصورة وشعرت بأن الأشكال تعني شيئًا.. اقتربت من الصورة وأنا أحبس أنفاسي.. «يا إلهي» قلتها

وأنا ألمس الورق والصورة الموجودة تحت الأرض كانت عبارة عن مربع.. أردفت قائلة «هذا يشبه صندوق المجوهرات الخاص بها. إنه مفقود من غرفتها.. اعتقدت أنها نقلته إلى منزل والدتها».

«صندوق مجوهرات؟».. قالتها جولي وهي تميل برأسها إلى الجانب وتحدق في اللوحة، ثم أردفت «اعتقدت أنها تتخيل صندوق تحت الأرض تهرب منه الفراشات».

«نقوش الفراشات موجودة على صندوق المجوهرات؛ فالصندوق ملَكِي.. هاتفها تحت الأرض أيضًا».

«نعم، سيجد عالم الآثار في المستقبل صناديق مجوهرات وهواتف».

«أنتِ لا تدركين الأمر.. هاتف آنا مفقود أيضًا.. أعطتها ريان هاتف بديل».

قالت جولي: «هذه الصورة محض تخيل بعد خمسمائة عام في المستقبل».

- «لا، أعتقد أنها تشير للحاضر.. أنا متأكدة من أن آنا دفنت صندوق المجوهرات الخاص بها وهاتفها».

- «ماذا؟ لكن لماذا؟».

- «لا أعرف.. لكنني سأكتشف الأمر».

الفصل السابع والثلاثون

في السيارة كنت أبحث بحقيبتي عن حلقة المفاتيح الخاصة بي، التي تحمل مفتاح سيارتي ومفتاح منزلي ومفتاح صندوق البريد الخاص بي ومفتاح منزل ناثان. لايزال بحوزتي. اتصلت بناثان لكنه لم يجب.. تركت رسالة أخبره فيها أن يقابلني في منزله.. وبينما كنت أقود سيارتي إلى طريق سيداروود، كانت السماء تزداد ظلامًا وكآبة.. الشتاء منتظر نهاية الخريف بفارغ الصبر ليحل محله.

توقفت في الممر الفارغ ومشيت منحنية عبر الريح في طريقي إلى باب المطبخ. شعرت بقليل من الحزن، فكان من الممكن أن يكون هذا منزلي هنا مع ناثان وآنا. إن لم يحدث... لا أستطيع التفكير في الأمر الآن.

تفوح رائحة المعكرونة والجبن المحترقة من المنزل.. وجدت في المطبخ وعاء يحمل بقايا الخبز، وكان منقوع في الحوض، بخلاف ذلك كان المنزل مرتبًا، باستثناء وجود سترة على الأريكة والأحذية المعتادة بالقرب من الباب الأمامي.. كانت هناك صحيفة غير مقروءة مطوية على الطاولة في الردهة.. وغرفة الضيوف لم تمس، كانت

نظيفة ومرتبة، كما كانت عندما غادرت المنزل آخر مرة.. وكانت ملاءات فراش ناثان مجعدة بجانب واحد والجانب الآخر مفرود.. وكانت طاولة الحمام تعج بمعجون الأسنان وكريم الحلاقة وفرشاة الشعر.

ألقيت نظرة على غرفة آنا. كان فراشها مرتبًا، وكتبها وتذكاراتها مصطفة على الرفوف.. سطح مكتبها منظم ولا تزال صورة ثلاثتهما موجودة لتثير غضبي.. تذكرت التراب على النافذة والمنامة المتسخة وصندوق المجوهرات المفقود وهاتفها المفقود.. كما تذكرت آنا وهي تختبئ في منزل الشجرة وتقطعني من الصورة.

أخذتُ مجرفة من سلة الأدوات المزدحمة وذهبت إلى الجزء الخلفي من المنزل. كانت الأرض خارج نافذة آنا مازالت تحمل آثار أقدامها؛ حيث كانت مرئية على التراب تحت حافة الجزء الخارجي لسقف المنزل. فلا يمكن أن يصل المطر هناك. ماذا لو كانت قد خرجت من النافذة وربضت خلف شجيرة التمر حنة، وهي ترتدي منامة الطيور الخاصة بها، ثم دفنت صندوق مجوهراتها وهاتفها؟ وإذا فعلت ذلك، فلماذا؟

بدأت بحفر التراب أسفل نافذتها.. ولم يستغرقني الأمر طويلًا لأصل إلى شيء صلب.. ربضت على ركبتي وأزلت التراب من على صندوق المجوهرات ثم انتشلته من الأرض.. كان الصندوق في كيس بلاستيكي مغلق. بل ثلاثة أكياس بلاستيكية. كاد قلبي يخترق صدري وكانت أمعائي تتقلب بشدة.. المطر يهطل والرياح الباردة تكاد تقتلع الأشجار.. ردمت الحفرة بالتراب ثم سوّيت الأرض

ونظّفت المجرفة ووضعتها بعيدًا.. دخلت المنزل بعد أن نفضت التراب من حذائي.

فكرت بصوت عالٍ، «ماذا يوجد بالصندوق يا آنا؟».. ثم أزلت الأكياس البلاستيكية ومسحت صندوق المجوهرات بمنشفة نظيفة.. وضعت الصندوق على طاولة القهوة وحاولت فتح الغطاء لكنه كان عالق، بل مغلق.. كان مغلق بقفل لعبة وربما يكون من السهل فتحه.. رن هاتفي باسم ناثان.

سألني بينما كان صوت صفارة الإسعاف يلوح بالخلفية: «ماذا تعنين أن آنا دفنت صندوق المجوهرات؟».

أجبته: «رسمت عن الأمر في صف جولي».

«ماذا؟».. قالها وصفارة الإسعاف تعلو صوتًا.

- «أنا في منزلك.. فلتعد بأقرب وقت ممكن».

- «سأتصل بكِ مرة أخرى».

- «يجب أن نتحدث...».

كنت أتحدث لكنه كان قد أغلق الهاتف.

اللعنة.

ذهبت إلى المطبخ لإحضار سكين حتى يمكنني فتح صندوق المجوهرات.. لكنني وجدت على الطاولة بطاقة أعمال تحمل صورة بالأبيض والأسود وخلفية لامعة بشكل اللؤلؤ.. كُتب على

اليسار «محامي طلاق» وعلى اليمين كان هناك العنوان ورقم الهاتف.. كتب أحدهم في الأسفل بالقلم الأزرق «هيدرا، الجمعة، ٢ مساءً».. هل هذا موعد؟ من المؤكد.. فهيدرا تخطط للقاء محامي طلاق، هذا المحامي هو آرثر نجوين.

بالطبع قال آرثر، إنه رأى ظلين تحت الضوء الذي يعمل بالمستشعر.. محامي طلاق طلبه كل من ناثان وهيدرا.. ماذا يمكن أن يعرف؟

ارتديت معطفي وحذائي وهرعت نحو الطريق المؤدي إلى منزله.. كان الليل يحل وتوقف المطر بينما كان الضوء يشع من نافذة غرفة الطعام وتقف سيارته الحمراء من نوع بي إم دبليو أمام المرأب.. تنفست بعمق ثم اتجهت نحو الممر وقرعت الجرس لأسمع صداه يجوب المنزل ويتبعه صوت نباح بيرت على بُعد.. نظرت إلى الشارع دون دليل على وجود آرثر.. يبدو أن النباح قادم من الفناء الخلفي.

أحطت عيناي بيدي لأنظر عبر النافذة المجاورة للباب وتطلعت على الرواق الخافت.. كان النور مضاء في المطبخ أيضًا.. رأيت حافة الثلاجة المعدنية وزاوية مائدة الطعام.. طرقت الباب منادية «سيد نجوين، سيد نجوين!».

لا إجابة.. أدرت مقبض الباب ووجدته غير موصد.. أصدر الباب صرير عندما فتحته ثم خطوت نحو البهو.. أعلم أنني أتعدى على ممتلكاته، لكن مؤخرًا أصبح الناس يتعدون على ممتلكات الغير كثيرًا.. وكثيرًا ما يتعدوا حدودهم.. «سيد نجوين! مرحبًا! أنا ماريسا

بارليت خطيبة ناثان» قلتها كما لو كنت بحاجة لإعلان تلك المعلومة منتهية الصلاحية.. تمتمت مردفة «خطيبته السابقة»، ولم أسمع رد حتى الآن.

نظرت إلى المفروشات الداخلية الفخمة ذات الألوان الداكنة والتماثيل السخيفة والتذكارات من رحلاته. كان هناك صفوف من الصور تصطف على أرفف الكتب تظهر بناته الثلاث وزوجته اللاتي غادرن إلى كاليفورنيا.. ربما سئمن من دفاع آرثر عن موكليه زيرة النساء.. أعلم أنني حانقة على الوضع، لكن لا يمكنني كبح هذه الأفكار.

إذا لم يكن هنا لماذا سيارته متوقفة بالممر؟ ولماذا ينبح بيرت في مكان من الفناء الخلفي؟ ولماذا الباب الأمامي مفتوح؟ ولماذا الأنوار مضاءة؟ هناك خطب ما. تراجعت وأسرعت نحو الباب الأمامي، ثم ذهبت خلف المنزل إلى أسفل المنحدر. اندفع جسم أبيض نحوي.. إنه بيرت، كان متسخًا ومجعدًا للغاية.

انحنيت لأربت عليه، وقلت له «بيرت، لا بأس.. أين مالكك؟»، فعادة يقوم آرثر بتمشية الكلب مربوطًا بطوقه ليكون بالقرب منه.. استدرت نحو المنزل، ووجدت الباب الخلفي مفتوح والضوء يتسرب منه على شكل مثلث.. لا يسمح آرثر لبيرت بالركض طليقًا أبدًا.. فعادة تتجمع النسور الصلعاء بالسماء، ومن المعروف أنها تصطاد الكلاب الصغيرة.

قلت بقلق متزايد «هيا، دعني أدخلك بالمنزل»، حملت بيرت وأعدته إلى المنزل.. ثم توجهت إلى الحديقة مرة أخرى.

ناديت بقلب نابض عبر صدري «سيد نجوين!».. ثم مشيت متبعة الطريق المار بصفوف الخضروات المزروعة.

ناديت مجددًا «سيد نجوين!».. ثم اتجهت إلى البركة. كان هناك شيء ما يطفو على سطح الماء.. ركضت وأنا أفقد أنفاسي.. ثم تعرفت على قميصه المنقوش باللونين الأحمر والأبيض، والذي كان منتفخ بفعل الماء وقبعته وهالة من الشعر الداكن. كان جثة هامدة.. كان آرثر نجوين يطفو على سطح الماء ووجهه نحو الأسفل. صرخت قائلة: «سيد نجوين! فليساعدني أحد!».

اتصلت بالطوارئ على هاتفي وقلت للعامل: «أنا ماريسا بارليت.. أرسل سيارة إسعاف إلى تقاطع طريقي سيداروود ووترفيو في ترانكيل كوف.. يعيش آرثر نجوين هنا.. إنه في الماء ووجهه نحو الأسفل».

قال لي العامل: إن المساعدة في طريقها إليّ.

«أسرع!».. قلتها ثم ألقيت الهاتف على الأرض.. فأنا أحتاج لكلتا يداي.. خطوت داخل البركة وقلبي يتسارع نبضه.. المياه المجمدة تضرب ساقي.. وتنقبض عضلاتي.. تهاوت الأرض الطينية تحت حذائي وأنا أحاول سحب ذراعه.. لكنه كان ثقيلًا للغاية.. تعثرت وبدأت جثته في الغرق.. ناديت لتلقي المساعدة بينما كنت أجد صعوبة في قلبه.. كانت شفتاه زرقاوين وجلده شاحب.

هززته منادية «سيد نجوين! آرثر!».. لا شيء، لا استجابة.. يمكنني سماع أنفاسي المتخبطة.. وبدأ ينزلق من قبضتي ثم سمعت شخص ما يركض خلفي بخطى سريعة.

صاح جنسن وهو يقترب «ماذا يحدث؟».

صرخت مجيبة «ساعدني في إخراجه!».

قال جنسن، وهو يسحب آرثر للخارج «اللعنة، اللعنة.. ماذا حدث بحق الجحيم؟».

«لا أعرف، لقد أتيت لتوي ورأيته»، قلتها وأنا ألهث أنفاسي وأرتعش بينما يغمرني الماء.. «اتصلت بالطوارئ وهم قادمون».

«هل ناثان بالمنزل؟».

«لا».

أدار جنسن آرثر على ظهره فوق الأرض، وفتح قميصه ثم وضع أصابعه على قلبه وشبكها بأصابع يده الأخرى.. بدأ بالضغط على صدره سريعًا «واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة.... هيا يا آرثر».

اتصلت بناثان مرة أخرى ليحولني هاتفه إلى البريد الصوتي.. قلت «اجب اتصالاتي! آرثر نجوين فاقد الوعي.. ولا يتنفس.. سقط في البركة واتصلت بالطوارئ.. أسرع!».

استمر جنسن بالضغط على صدر آرثر، بمعدل مائة ضغطة بالدقيقة.

«اللعنة.. مازال لا يتنفس.. ربما يملأ الماء رئتيه».

أجبته بصوت ينهار بالبكاء «استمر في المحاولة».

فكرت في الصور العائلية في غرفة المعيشة وبناته الثلاث جنبًا إلى جنب وهن يبتسمن للكاميرا.. تخبطت أسناني وبدأ الظلام يحل. أما بيرت فكان في المنزل ينبح بجنون ويلقي بنفسه نحو الباب.

سألني جنسن وهو مستمر بما يفعله، «هل رأيتِ ما حدث؟ هل سقط؟ هل كان هناك شخص آخر؟ إنه بارد كالجليد».

- «لا أعرف.. جئت للتحدث معه وكان الباب مفتوحًا وبيرت كان يتجول!».

- «لكم من الوقت ظل في الماء؟».

- « لا أعرف».

«آمل ألا يكون قد ظل بالماء لفترة طويلة.. إنه غير منتفخ، أعتقد أن هذه إشارة جيدة».

ارتفع صوت صفارات الإسعاف على بُعد.

سألته بتوتر: «هل يوجد أي استجابة؟».

هز ناثان رأسه بالنفي وكان مقطوع الأنفاس.

قلت له «استمر بالضغط».. تذكرت ابتسامة آرثر التي تظهر بها أسنانه وغمازته الوحيدة على خده الأيسر.

قال جنسن: «إنه يتناول الدواء».

سألته «أي دواء؟».

استمر جنسن بالضغط وهو يقول: «لا أعرف.. حاصرات بيتا أو الأسبرين أو مميعات الدم.. بيوم من الأيام كان يشكو لي من كثرة الأدوية.. اذهبي وابحثي في الخزانات».

كان جنسن في حالة صدمة، كحالي.. قلت له «جنسن، لا يمكنه تناول الأدوية إذا كان فاقدًا الوعي ولا يتنفس».

كان جنسن يلهث من جهد الضغط على صدر آرثر، لكنه استمر بالضغط. قال لي «نحتاج إلى مزيل الرجفان الآلي.. قد يكون لديه واحد. فلتبحثي عنه.. عادة ما يكون في حافظة برتقالية فأبى والدي يملك واحد».

ركضت إلى المنزل وتبع الكلب أعقابي، وأنا أبحث في الحمامات وغرفة النوم.. كان منزل آرثر أنيق ومنظم للغاية، ولكن لم يكن هناك علامة على وجود مزيل الرجفان الآلي.

توقفت سيارة الإسعاف في الممر بأنوارها الوامضة وصفارتها. اندفعت لمقابلة المسعفين في الممر وتركت بيرت في الداخل.. صرخت قائلة ورئتي على وشك الانفجار «إنه في الفناء الخلفي!».

ركض اثنان من المسعفين حاملين لحقائبهما ويرتديان زيًا يشبه زي ناثان. لكن ناثان ليس هنا.

تراجعنا بينما كانا يفحصان مؤشرات آرثر الحيوية ونبضه.. قال أحد المسعفين «حدقتا العين متساويتان ومستجيبتان لكنهما بطيئتان.. لا يوجد نبض.. القلب يعاني متلازمة المزرقة»، قاما

بتوصيل مزيل الرجفان على صدره، وقال صوت إلكتروني «تحليل، ابتعد، تم أخذ الأمر بالصدمة».

قال أحد المسعفين: «أنا بعيد، هل أنت بعيد؟».

أجابه المسعف الآخر: «أنا بعيد» ثم ضغط على زر.. وصدم مزيل الرجفان آرثر ليرتفع جسده عن الأرض.. وضع المسعفان قناع أكسجين على وجهه، بينما كان مزيل الرجفان يعيد الشحن.. تراجعت للخلف وأمسك جنسن بذراعي.. لم أكن أرى بسبب المسعفين اللذين ربضا بالقرب من جسد آرثر.. قاما بوضعه على نقالة واندفعا به إلى سيارة الإسعاف ليستمرا بعملية الإنعاش.. بعدها توقفت سيارة صالون سوداء بجانبهما.. وصل المحقق هاردينج.

الفصل الثامن والثلاثون

«قلت لك، لقد رأيته في الماء ووجهه نحو الأسفل».. قلتها للمخبر بينما كانت سيارة الإسعاف تبتعد مسرعة.. لم يكن هناك دليل على وجود ناثان.. سحبت البطانية الثقيلة التي أعطاني إياها أحد المسعفين حول كتفي؛ لأن ملابسي كانت غارقة بالماء وبرد الليل يهب بوجي.. كان المحقق قد استجوب جنسن بالفعل ثم عاد إلى منزله.

الآن المحقق يسحبني جانبًا ويقول لي: «قرعتِ جرس الباب وطرقتِه ثم سمعتِ الكلب ينبح.. لذلك ذهبتِ إلى الباحة الخلفية ورأيتِ السيد نجوين في الماء».

«نعم، هل سيكون بخير؟».

«لا يمكننا معرفة ذلك الآن.. سأخبرك وقتما أعرف».

قلت له وأنا أشد البطانية حولي: «أحتاج إلى تغيير ملابسي وارتداء ملابس جافة».

- «هل تحتاجين لتوصيلة إلى أي مكان؟».

- «أنا بخير.. لديّ مفتاح منزل ناثان».

قال لي «يبدو أنكِ تظهرين بكثير من المواقف العنيفة.. يجب أن تضعي رقم الطوارئ بقائمة الاتصال السريع».

- «لا أعرف كيف يحدث كل هذا».

- «ربما تعرفين».

انتفضت بعيدًا عنه وسألته: «ماذا يفترض أن يعني ذلك؟».

«دعيني استوضح الأمر.. وجدتِ بطاقة أعمال في منزل ناثان فاعتقدتِ أنه وهيدرا بلاك قاما بتوكيل آرثر نجوين كمحامي لهم».

أجبته وأنا أرتعش، «لا أدري لماذا كانت هيدرا تخطط لمقابلة آرثر.. جئت إلى هنا لأسأله».

- «لم تسألي ناثان».

- «لم أتكلم معه منذ فترة».

- «لكنكِ كنتِ في منزله».

- «جئت لآخذ شيء كنت قد نسيته».

- «هل تكلمتِ مع هيدرا بلاك؟».

- «في المستشفى بعد أن عثرت عليها في الفندق.. لكن لم أتحدث معها منذ ذلك الحين».

- «وعندما وصلتي إلى هنا....».

- «أتيت إلى هنا ورأيت آرثر في البركة».

- «هل رأيتِ أي شخص آخر في المنزل عندما وصلتِ؟».

- «لم أر أحد حتى ظهر جنسن».

- «لقد جئتِ للدردشة مع السيد نجوين.. هل تحولت الدردشة إلى شجار؟».

«ما الذي تحاول قوله؟» ضاق حلقي كما ضاقت بي الدنيا عندما شعرت باتهامه يصفعني على وجهي.. «لقد انتهينا هنا» قلتها له ثم ألقيت البطانية، واتجهت نحو منزل ناثان لكن المحقق أمسك بذراعي.

جذبني نحوه مجددًا وقال «انتظري.. ربما تشاجرتِ مع السيد نجوين وربما لا.. ربما رآكِ بالخارج ليلة وفاة لورين إكلوند».

سحبت ذراعي بعيدًا في صدمة من الاتهام المباشر للمحقق.. ارتجفت غضبًا وقلت له «ماذا؟ لا يمكن أن تكون جادًا».. ثم استرجعت برأسي ذكرى آثار أقدامي.

«كما قلت، اعتدتِ الظهور بـ....».

قاطعته وأنا أشعر بتجمد قدمي والخدر ينتشر بجسدي، «قلت لك لا أعرف السبب. لقد كنت أحاول معرفة ذلك أيضًا».

«صحيح»، قالها وهو ينظر إلي وأنفه كان باللون الوردي بسبب البرد ثم أردف: «الأمر مضحك أن فضولك يقودك من شخص فاقد وعيه لآخر.. واقتحام منزلك محض صدفة، أليس كذلك؟».

أردت أن أصفعه بشدة حتى أنفض شاربه عن وجهه.. قلت له «أتعتقد أنني اختلقت الأمر؟ أتعتقد أنني زيفت اقتحام منزلي؟ لماذا قد افعل ذلك؟».

كثفت أنفاسه الهواء محولة إياه إلى بخار بينما يقول لي «لا اعرف.. لماذا قد تفعلين ذلك؟».

«أنت تفهم الأمور بشكل خاطئ.. لا تنظر إليّ، فأنا أعرف ما تفكر به.. لكنني لم أحاول صرف الانتباه عن نفسي.. لم أفعل أي شيء من هذا القبيل.. أنت لا تعرفني على الإطلاق».

«حسنًا.. ربما لا أعرفك» قالها ثم خطا إلى الخلف، بينما بدأ بيرت في النباح مجددًا.

نظرت نحو منزل آرثر نجوين وسألته: «ما الذي سيحدث للكلب؟».

«سأحتفظ به.. فأنا أحب الكلاب بشدة».

«هل هذا مسموح به؟».

هز كتفيه وأجابني: «على الأرجح لا».

أومأت له بينما كنت أرتعد بردًا ثم هدأ بيرت مرة أخرى.. سألته «هل يمكنني الرحيل؟».

«في الوقت الحالي»، وضع المفكرة في جيبه ثم اهتز هاتفه فأجابه.. «هاردينج.. نعم»، أنصت ثم عبس ونظر إلى حذائه وقال: «شكرًا

لإخباري»، أغلق الهاتف ووضع يده على كتفي ثم قال: «يبدو أنهم استطاعوا إنعاش آرثر نجوين.. سيستغرق الأمر بعض الوقت حتى نعرف ما إذا كان يعاني من أي تلف بالمخ.. إنه فاقد الوعي لكنه حي».

بدّلت ملابسي في منزل ناثان، وارتديت سرواله الجينز ثم طويته عدة مرات، وقميصه وجواربه القطنية السميكة.. ألقيت بملابسي في المجفف، ثم حضرت كوبًا من الشاي الساخن وحاولت تجميع أفكاري.. أصبح الحي هادئ ومظلم بعد اختفاء الشرطة وسيارة الإسعاف.

مازلت أرتجف من الغضب.. لا يمكن للمحقق أن يعتقد أنني خربت منزلي وتظاهرت بأن فستاني قد سُرق.. لا بد أنه كان يحاول الضغط عليّ.. لكن لماذا؟ هل يعتقد حقًا أنه لي علاقة بما حدث للورين؟ أو هيدرا؟ أو آرثر نجوين؟ هل حاول شخص ما قتله؟ إذا كان الأمر كذلك، فمن قد يفعل هذا؟ هل قتل نفس الشخص لورين؟ إذا رأت آنا شيئًا تلك الليلة فربما يحمل صندوق مجوهراتها إجابة.

فتحت الغطاء بسكين وكسرت القفل والمفصلات الواهية.. هذا هو سر صناديق المجوهرات.. توحي بوهم الأمان فحسب.

شعت بوجهي مجموعة رائعة من الفضة والأحجار.. وجدت سوار وقرط من الذهب وعدد قليل من عينات الكوارتز الناعمة وعملات معدنية نادرة.. كلها أشياء عثرت عليها آنا.. وجدت في

الدرج العلوي مظروف مليء بأوراق نقدية صغيرة بفئة واحد إلى خمسة.. أهذا مصروفها؟ وفي الدرج السفلي وجدت هاتفها موضوع بعناية في كيس بلاستيكي مليء بالأرز النيء.. لم تضيّع الهاتف، كان هنا طوال الوقت.. هل دفنت الهاتف لأنه تبلل؟ لكن لماذا لم تقل إنها بللت هاتفها؟ لماذا دفنته؟ ضغطت على أزراره لكن بطاريته كانت فارغة.

لم أعثر على شاحن الهاتف بغرفة آنا.. هل لديها واحد؟ هل أخذته معها لهاتفها البديل؟ هل احتفظت بنسخة من ملفات الهاتف؟

اتصلت بريان من هاتفي.

فتحت الهاتف وقالت بحذر «ماريسا؟» لا بد أنها أدرجت اسمي بقائمة جهات الاتصال.

- «أنا في منزل ناثان، أنا...».

- «في منزل ناثان! لكني اعتقدت...».

- «انها قصة طويلة.. هل يمكنني التحدث معك بخصوص آنا؟».

- «يبدو صوتك غريبًا.. هل كل شيء على ما يرام؟».

- «انها قصة طويلة... يبدو الأمر غريبًا لكن.. آنا دفنت صندوق مجوهراتها في الباحة الخلفية تحت نافذتها».

- «ماذا؟ هذا غريب.. كيف عرفتي هذا؟».

- «رسمت آنا في صف الفن لوحة عما قد يجده عالم آثار، بعد خمسمائة عام من الآن...».

قالت بصوت غاضب قليلًا: «لم أر تلك اللوحة».

«لم تأخذها إلى المنزل.. إنها معلقة على الجدار في الصف.. لكنها رسمت صندوق مجوهرات مطابق تحت الأرض، وقد لاحظت أن صندوق مجوهراتها غير موجود بغرفتها.. لذلك قمت بربط الأمور وفهمتها».

قالت: «وهل حفر ناثان ليخرج الصندوق؟».

أجبتها «لا، أنا من فعل ذلك».

«أوه» قالتها ثم صمتت قليلًا وأردفت «هل أخبرتِه؟ هل هو موجود؟».

- «أخبرته، لكنه بالعمل».

- «حسنًا.. أنا بطريق العودة مع آنا.. هل نسي أنها ستمكث معه هذا المساء؟».

- «أنا وهو لسنا.... أنا لا.. أقصد، لا أعرف تفاصيل جدول مواعيده هذه الأيام».

- «سأحاول الاتصال به ليقابلنا هناك.. شكرًا لإخباري بأمر الصندوق».

أغلقت الهاتف وأنا أشعر بالوحدة.. عقلي ممتلئ بصور لورين، ورأسها الملطخ بالدماء.. وهيدرا وهي مشوشة ومخدرة.. وآرثر

نجوين وهو يطفو في البركة وشفتيه الزرقاء.. شعرت بأن صندوق المجوهرات يحدق بي من طاولة القهوة؛ حيث كان موجودًا ويغطي التراب نقوشه بشكل الفراشات.. بدأ المطر الخفيف يهطل في الخارج.

بعد بضع دقائق فقط توقفت سيارة الدفع الرباعي الخاصة بريان في الممر.. عندما دخلت هي وآنا، حدقت آنا بصندوق المجوهرات وهرعت لتأخذه من فوق الطاولة. كانت قطرات المطر تتساقط منها على الأرض تاركة آثار أقدام موحلة.

قالت ريان، وهي تنظر إلى ملابسي الفضفاضة، وترفع حاجبيها «ليس بتلك السرعة يا آنا».

قلت لريان «إنها قصة طويلة.. نزلت في البركة خلف آرثر نجوين.. كاد يغرق».

- «ماذا؟ لا!»

- «لايزال على قيد الحياة.. لكنه فاقد وعيه.. لا أعرف ما إذا كان سينجو».

- «مسكين.. كنتِ شجاعة».

شحب وجه آنا، وهي تمسك بصندوق مجوهراتها بالقرب من صدرها.

قالت لها ريان بلطف «اعطيني إياه، اخلعي معطفك وحذاءك وارتدي ملابس دافئة. سأتحدث مع ماريسا بخصوص هذا».

فتحت آنا فمها، لكنها لم تنطق ببنت شفة.. صدمني صمتها المؤلم وهي ترفض ترك الصندوق.

كررت ريان «اعطيني إياه.. سنحتفظ به.. اذهبي وبدلي ملابسك الآن».

لم تتحرك آنا كما لو كانت مخدرة. انتزعت ريان الصندوق من ذراعيها برفق. استدارت آنا وهرعت نحو الرواق وهي تخلع معطفها الواقي من المطر في الطريق.

سألتها بصوت حزين «ألم تقل أي شيء؟».

أجابتني ريان: «إنها ليست صامتة طوال الوقت.. تتحدث معنا قليلًا أنا وناثان.. لكن في الأماكن العامة وفي المدرسة الوضع محبط.. لم يكن ينبغي أن أفقد أعصابي معكِ ذلك اليوم لكنني أفقد صبري».

كان وجه ريان شاحب، وبدا شعرها الأشقر بلون رمادي باهت في ضوء غرفة المعيشة المعتم.

- «أتفهم الأمر.. لا تقلقي».

- «أتمنى أن تتحدث معنا وتخبرنا ما الخطب؟».

- «آمل أنني لم أصيبها بصدمة أكبر لعثوري على الصندوق».

- «هل تعتقدين أنه يوجد به دليل؟ دليل على ماذا؟».

جلست على الأريكة ومررت يدي على وجهي.. شعرت بالتعب الشديد يحل في عظامي وأنا أقول لها: «لست متأكدة لأكون صادقة.. لكنها تخفي شيئًا ما».

«عندما أخبرتِني عن الصندوق فكرت أن الأمر منطقي.. مع كل ما فعلته وقالته والآن صمتها والطريقة التي تتصرف بها.. لكنني شعرت بالصدمة عندما أخبرتِني بهذا».

نظر كلانا إلى صندوق المجوهرات، ثم قالت هي لي «أتمانعين إذا فتحته؟».

«افتحيه».

فتحت الصندوق وأخرجت المجوهرات والمال المخبأ في المظروف.. ثم أخرجت الهاتف الذي أخرجته أنا من كيس الأرز سابقًا.. قالت لي «أنا مندهشة لأنكِ وجدتِ هذا.. لا أفهم لم قد تدفنه».

قلت لها: «إنها تلتقط مقاطع فيديو في الغابة خارجًا.. تفسيري هو أن الهاتف تبلل وتوقف عن العمل، وهي ظنت أن كيس الأرز سيجففه».

«لكن هذا مجرد خطأ شائع».

«لكن الكثير يصدقه».

أماءت وهي تفكر ثم قالت لي «أشعر وكأنني لا أعرف حتى ابنتي.. لم أكن أعرف أمر الرسومات بالمدرسة».

قلت لها: «لم أكن أعرف أيضًا».

أعادت كل شيء إلى صندوق المجوهرات، وحاولت أنا التظاهر بأن شيئًا لم يحدث، بينما كنا نسمع صوت الخطوات

يتقدم من الرواق.. أتت آنا مرتدية سروالًا رياضيًا وقميصًا.. كان يضرب الاحمرار وجهها وشعرها لايزال رطبًا.. حدقت بصندوق المجوهرات، وحركت شفتاها بكلمة لا دون أن تصدر أي صوت.

قالت لها ريان وهي تمد لها يدها «لا بأس يا عزيزتي»، لكن آنا اندفعت إلى الطاولة وأخذت الصندوق مجددًا.

رفعت ريان الهاتف، وقالت: «لقد حصلت على هذا.. لست متأكدة لماذا أخفيتي هاتفك في صندوق مجوهراتك».

شهقت آنا بشدة، كما لو أنه قد تم انتزاع رئتيها من صدرها.

قالت والدتها بصبر «آنا، اتركي الصندوق».

وضعت آنا الصندوق على الطاولة ثم مدت ذراعها سريعًا مثل الأفعى، والتقطت هاتفها القديم من يد ريان ثم هرعت نحو الرواق.

قلت: «هل يجب أن أتبعها لأشرح لها لماذا حفرت....؟».

قالت ريان: «لا تقلقي، امنحيها بعض الوقت فحسب».

قلت وأنا أقومك «يجب ألا أكون هنا مع كل ما يحدث...».

انتشرت أضواء على الجدار وسمعت أصوات في الخارج.. قالت ريان وهي تقوم مسرعة «عاد آل إكلوند للمنزل.. أتت برين إلى المتجر أمس وقالت إنهم سيسافرون قليلًا.. لم تتسنى لي فرصة تقديم التعازي في حفل التأبين.. استميحك عذرًا لدقيقة». قالتها ثم نظرت من نافذة المطبخ.

«اذهبي.. سأبقى مع آنا».

ابتسمت لي بامتنان وقالت: «سأعود سريعًا.. أعدك».

ارتدت حذائها واندفعت إلى الخارج وهي تشد سترتها حولها بإحكام.. شاهدتها من نافذة المطبخ.. كانت الرياح تهب بشعرها.. اقترب منها جنسن وهو يفرك يديه التي كان يرتدي بهما القفازات، ثم تبعته برين. صببت كوبًا من الماء ثم تجرعت السائل البارد.. تساءلت ماذا سيحدث بمجرد وصول ناثان لمناقشة أمر صندوق المجوهرات مع ريان؟ ما الأسرار التي سيكشفونها؟

التفت مبتعدة عن النافذة، وطدت أصطدم بآنا.

قلت لها وأنا أضغط بيدي على قلبي «لقد أخفتني».

وقفت على أطراف حذائها الرياضي لتلقي نظرة خاطفة على النافذة، ثم أشارت بإصبعها على شفتيها في إشارة أن أصمت. كان بياض عينيها يلمع في الظلام.

«ما الأمر؟»، قلتها وأنا لا أعرف لماذا أهمس.

وضعت شيئًا في يدي.. كان الهاتف التالف الموضوع بصندوق مجوهراتها.. كانت الشاشة مضاءة يوجد صورة للمحيط على الشاشة الرئيسية.

همست لها قائلة: «إنه هاتفك الذي دفنته.. كان لديكِ شاحن؟».

أماءت وهي تبتلع ريقها ثم أخذت الهاتف مني بعجل.. كان المؤشر يوضح أن البطارية مشحونة حتى ربعها فقط.. تصفحت

الهاتف بأصبعها ثم مدته نحو وجهي لتريني سلسلة من الرسائل.. وعندما كنت أقرأهم بدأ حلقي يجف وتسارعت نبضاتي وشعرت بأن الجدران تضيق بي.

كانت الرسائل بتاريخ حفل العشاء، عندما تقدم لي ناثان.

قلت لها «آنا، هذه الرسائل...».

أرتني الرسائل السابقة من الأيام السابقة، وقرأتها جميعًا، وأنا مندهشة.. كانت الرسائل من كيث عبارة عن نكات.

دعنا نصوّر بعض السناجب؟ أتقصدين بالكاميرا.

كان رد آنا: أنت سخيف.. أنا لا أقتل الأشياء.

أما الرسائل الأخرى، التي كانت تتخللها مزاح جمدت دمي من أثر الصدمة.

نظرت نحو الأعلى للحظة.. كانت ريان تسير بالممر مبتعدة مع برين وجنسن.

قلت لآنا: «هل تخفين هذا السر يا آنا؟ الرسائل؟ هل دفنتِ الهاتف لأنكِ أردتِ إخفاءها؟».

كان وجهها شاحب.. ضغطت على الهاتف لتفتح الصور.. مررت عبر الصور وتوقفت عند مقطع فيديو ثم ضغطت على زر التشغيل.. في البداية، رأيت شخصية وحيدة في الظلام ثم مرت لورين تحت الضوء الذي يعمل بالمستشعر بشرفتها الخلفية، وكانت ملامحها

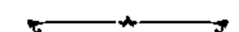
مضاءة.. كانت ترتدي معطفها الأسود الطويل وتحمل مظلة لوريل بورش الخاصة بي.. رؤيتها على قيد الحياة بهذه الطريقة تغرق قلبي حزنًا.. أريد أن أدخل إلى الهاتف لأنقذها.. أسرعت مبتعدة عن الضوء نحو الحديقة.. سارت على طول الطريق مارة بشرفة المراقبة بالقرب من حافة الهاوية. بدت مترددة وكان الظلام يغطيها.. ماذا كانت تفعل هناك؟ فهي كانت تخاف من المرتفعات.

التفتت ونظرت باتجاه آنا.. ربما رأت وميضًا أو بريقًا من العدسة أو سمعت صوتًا من الأشجار.. توقف المطر.. هل كان آرثر نجوين بالخارج مع بيرت فعلًا؟ هبت الرياح وأصبح المشهد أخف قليلًا.. ربما كان القمر يشع عبر فجوات السحب.

ثم دخل ظل من اليسار إلى الصورة.. اندفع ظل شخص نحو لورين.. كانت المظلة تشير في اتجاه المعتدي ويشع لونها الأزرق بالظلام.. أصبح القمر مضيئًا الآن. أردت أن أصرخ قائلة «احذري! أحدهم قادم.. أنظري خلفك. اهربي!»، لكنها لا تلتفت. انقض الظل عليها حتى قبل أن تلتفت.. سمعت صوت بعدها.. بدت كمشادة. وكان الكلب ينبح في الخلفية ثم تلاه صدى بعيد لصوت ينادي «مرحبًا؟». هل كان هذا صوت آرثر؟ أكثر الكلب بنباحه.. وسقطت المظلة ثم هبطت نحو الظلام.

أردت أن أقول لها «لا، اصمدي يا لورين.. حافظي على توازنك».. لكن تعثرت لورين نحو الخلف وتشبثت بالفروع، بد

الظل كأنه يقترب منها لكنها اختفت.. لا يظهر شيء سوى الظلام.. لا يوجد أي صوت. التفت المعتدي وهرع باتجاه المنزل. أضاء الضوء الذي يعمل بالمستشعر في الباحة مرة أخرى، وفي تلك اللحظة السريعة ظهرت كل ملامحه وبدت واضحة وقابلة للتعرف عليها.. لا مجال للخطأ بهويته.



الفصل التاسع والثلاثون

ظهر وجه ريان على الكاميرا، ثم اندفعت مبتعدة عن الضوء لتخرج من إطار الكاميرا.. انتهى الفيديو.

كانت آنا ترتجف.

قلت لها «إنه وجه أمك.. إنه واضح.. هل رأتك؟».

هزت آنا رأسها بالنفي ثم نظر كلانا من النافذة.. مازالت ريان تتحدث إلى برين، لكن جنسن أدار شاحنته.

سألتها وأنا مشتتة «لكن لماذا؟».

امتلأت عينا آنا بالدموع.

تصفحت الرسائل:

ريان: لن تكون والدتك أبدًا. أنا والدتك.

أنا: أنا أحبك يا أمي.

ريان: لا أريدك أن تدعيها والدتك.

أنا: لن أفعل.. أنتِ أمي. أما هي ماريسا فحسب.

ريان: يجب أن تبتعد.

تبتعد...

وقبل ذلك:

من هي تلك المرأة التي يواعدها والدك؟ نحن بحاجة إلى أن نلم شملنا كأسرة مجددًا.... ألا تريدين أن نكون أسرة؟

أثناء قراءتي للمحادثات تبينت لي الصورة الحقيقية لريان، إنها امرأة مليئة بالكراهية والخوف.. إنها تحتقرني لكن لماذا دفعت لورين من فوق الهاوية؟ كانت مظلتي الزرقاء مقلوبة رأسًا على عقب في الرمال.. تلك المظلة التي حملتها للعمل خلال موسم الأمطار حتى استعارتها لورين.

همست في رعب متزايد «أنا، ظننتِ.... هل ظننتِ أن والدتك دفعتني من فوق الهاوية؟ هل ظننت أن والدة برين كانت أنا؟

أماءت آنا بقوة تعبيرًا عن الإيجاب.. لا عجب أنها اختبأت في منزل الشجرة، وطلبت مني المغادرة.. تذكرت قولها لي «هل يمكن لشخص أن يكون خيّر وشرير؟ حتى انا؟ حتى أنتِ؟ حتى....؟» هل كانت على وشك أن تقول «حتى أمي؟» عندما قاطعتها في منزل الشجرة؟ لا عجب أنها أصبحت تتلعثم مجددًا.. لا عجب أن آنا ترفض التحدث.

سألتها «أتعرفين الصورة الموجودة في ألبوم الصور الخاص بك، التي التقطناها في المهرجان؟ هل والدتك من قطع صورتي منها؟».

أماءت آنا والدموع تتساقط من عينيها.

«لا تحذفي هذا الفيديو يا آنا».

أماءت لي، بينما كان جسدها بالكامل يرتعش.

قلت لها وأنا أعانقها: «أنا أعلم أنها والدتك.. أنتِ قلق من أنها ستقع في ورطة.. أو من أنكِ ستقعين في ورطة».

أماءت آنا مرة أخرى.

«سيكون كل شيء على ما يرام».

كانت تبكي بهدوء.. إنها تحب والدتها وتريد حمايتها حتى بعد ما فعلت.. حاولت حل كل ما قالته لي ريان، حاولت فصل الحقيقة عن الأكاذيب.. لكن رسائلها لابنتها ومقطع الفيديو يحولون دون ذلك. ريان عائدة.. مقبض باب المطبخ يهتز. أخفت آنا هاتفها في جيب سترتها، وتراجعت إلى غرفة المعيشة.

خطت ريان نحو الداخل وأغلقت الباب خلفها بقوة.. خلعت حذاءها ونظرت إلى آنا ثم قالت «قررتِ الخروج من غرفتك»، نظرت بعدها نحوي وسألتني: «أي أخبار من ناثان؟».

كذبت عليها قائلة: «اتصل بي، يريدني أن أوصل آنا إليه».

عبست ريان وحكت كتفيها مرتعشة ثم قالت: «توصلين آنا إلى عمله؟ هل جن جنونه؟».

«هذا وارد».. قلتها آمله أن تبدو ابتسامتي حقيقية وألا ترى ريان النبض السريع في عنقي من أثر الكلمات التي أرسلتها لابنتها والتهديدات. لا أستطيع نسيان التعبير الذي كان على وجهها في مقطع الفيديو.. كان تعبير الغضب.

«يجب أن ننطلق» هل ستسمح لي بأخذ آنا؟ نحن بحاجة إلى الهروب.. لن تؤذي ريان ابنتها جسديًا، أليس كذلك؟ لكنها أذتها عاطفيًا.. ربما لا تدرك أنها تسببت لها بهذا الألم.. أو ربما تدرك ولكنها لا تهتم.

قالت ريان: «لن أسمح لكِ أن تأخذي ابنتي إلى أي مكان.. سأتصل بناثان»

«سنذهب»، قلتها وأنا أرتدي حذائي.

أشارت إلى جيب آنا وقالت: «ما الذي أرته لكِ آنا على هاتفها؟ أراه يخرج من جيبها».

شهقت آنا وأدخلت الهاتف في جيبها.

قلت لها «لا أعرف عما تتحدثين».

«عليها أن تخبرنا لماذا دفنت هاتفها».

أجبتها «لا، ليس الآن».

« بل ستخبرنا، إنها ابنتي أنا».

قلت لها «كانت تريني صور».

مدت ريان يدها وقالت: «أريد أن أراهم أيضًا».

أمسكت حقيبتي ووضعت حزامها على كتفي ثم قلت: «هيا بنا يا آنا، لنذهب».

وقفت ريان في طريقنا، ووضعت يديها بوسطها، ثم قالت: «لم يعاود الاتصال بكِ».

قلت لها «لقد فعل».

«لا، لم يفعل.. آنا عزيزتي، أعطيني هاتفك».

قلت لآنا: «لا تفعلي ذلك، احتفظي بهاتفك» أمسكت يد آنا واتجهنا نحو الباب الأمامي.

«من تظنين نفسك لتعطي أوامر لابنتي؟» قالتها ريان وانتقلت لتقف أمامنا مرة أخرى. كانت هادئة، تمامًا كالهدوء الذي يسبق العاصفة.. أردفت ريان «أعرف أن هناك المزيد على هذا الهاتف.. شككت أن هناك خطب ما عندما قلتِ إنك قد حفرتي لتخرجي صندوق المجوهرات».

بدت آنا صامتة وكأنها مقطوعة الأنفاس.

قلت لها «أنتِ والدتها.. لكن لا يمكنكِ رؤية مدى اضطرابها؟».

«أعرف أن تفكك أسرتنا قد أذاها.. اتركيها.. أنا لا أثق بك لتكوني مع ابنتي».

استنكرت، وأنا أحكم قبضتي على يد آنا، ثم قلت: «لا تثقين بي؟ جديًا؟».

قالت لي: «لقد أفسدتِ حياتها.. من يعرف ماذا فعلتِ أيضًا؟ يعرف الجميع أنكِ كنتِ تكرهين لورين.. كنتِ تغارين منها».

تخيلت وجه لورين في ضوء القمر وآثار الأقدام على التراب.. تحاول ريان أن تتلاعب بي بقولها: «من يعرف ماذا فعلتِ أيضًا» لكنني لن أسمح لها أن تغضبني. قلت لها بصوت مرتعش «سأغادر مع آنا».

«اتركيها لي.. برأيك كيف ستؤثر علاقتك بناثان عليها؟».

«ألا تعتقدين أن سلوكك له أي تأثير عليها؟».. قلتها وأنا أفكر أننا على بعد عشرة أقدام فقط من الباب، لكن يجب أن أتجاوز ريان أولًا.. إنها أضخم وأقوى مني.

كان عيناها سوداوين تحت مصباح السقف، وهي تمد شفتيها وتقول: «لا تملي على طريقة تربية ابنتي».

«لم تهتمي لأمرها أبدًا.. لم تهتمي سوى بنفسك.. أنتِ فقط لا تريدين أن يتزوج ناثان بي».

«كيف تجرؤين على قول ذلك؟ لطالما اهتممت بآنا وأسرتنا».

«هل أرسلتِ لي تلك الزهور؟ لترحبي بعودتي إلى منزلي؟» قلتها وأنا أعتمد على تضييع الوقت.. فلا يمكنني إجراء مكالمة لأن هاتفي موجود على طاولة المطبخ.. إذا تراجعت ستتمكن ريان من أخذ آنا.

قالت ريان «أنتِ لا تفهمين الذوق الجيد.. عندما تحدثت إلى آنا في ذلك اليوم أخبرتني أنكِ عدتِ إلى منزلك.. كنت مرتاحة وسعيدةً من أجل الجميع. لذلك اتصلت بفاز أوف فلاورس لطلب الباقة على الفور.. حاولت أن أكون لطيفة معكِ».

- «لطيفة؟ أتسمين هذا لطف؟ أسميه تلاعب.. أنتِ من اقتحم منزلي، ليس برين، أليس كذلك؟».

- «لا أسميه اقتحام إذا تركتي نافذة مفتوحة.. بل أسميه دعوة».

- «أتعترفين بذلك! لقد سرقتي فستاني».

«لم يعد فستانًا».. قالتها وهي تفرد سترتها وتبتسم لي كما لو كانت فخورة بفعلتها.

«ماذا فعلتِ به؟».

«مزقته إربًا.. لم يكن سوى قماش بالي على أي حال.. مناسب تمامًا لمسح الأرضيات».

«سنغادر الآن».. قلتها وأنا مازلت أمسك بيد آنا.

قالت ريان وهي تتجه نحونا «أنا.. يجب ألا تذهبي مع ماريسا.. من الممكن أن تؤذيكِ».

قلت «لم أكن لأؤذيها أبدًا».. لكن همس صوت في رأسي قائلًا «ماذا لو كانت على حق؟».

يبدو أن ريان شعرت بعدم ثقتي لذلك ابتسمت، وقالت «ستكون آنا بأمان مرة أخرى عندما أعود إلى المنزل.. سيصبح كل شيء على ما يرام».

قلت لها «أنتِ تتوهمين.. أتعتقدين حقًا أنكِ ستعودين إلى هنا؟».

كانت لاتزال تقف بطريقنا عندما أجابتني «العديد من الأزواج انفصلوا ثم عادوا لبعضهم بعضًا مرة أخرى.. على سبيل المثال، إليزابيث تايلور وريتشارد برتون. كانوا قد تطلقوا لمدة عام ثم تزوجوا مرة أخرى.. ناتالي وود وروبرت فاجنر أيضًا؛ كانا متزوجين لمدة ثلاثة أعوام ثم تطلقا لمدة عشرة أعوام، وبعدها تزوجا مرة أخرى لأكثر من ثمانية أعوام حتى توفيت ناتالي. عندما يهتم شخصان ببعضهما البعض حقًا يعودان لبعضهما بعضًا مرة أخرى. أعرف ناثان جيدًا، أكثر من أي شخص آخر يعرفه».

قلت لها: «لن أجادلك» لقد فقدت عقلها.

«أتيت فقط لأشرح هذا لكِ.. أنا شخص منطقي.. لقد رأيت مظلتك تتوهج في الظلام وناديت اسمك، لكنك لم تقومي حتى بالرد».

- «لم أكن بالخارج، كانت تلك لورين!».

- «كيف من المفترض لي أن أعرف؟».



- «لقد دفعتيها من فوق الهاوية!».

تجهمت ريان وقالت: «لقد انزلقت لورين.. فقدت توازنها.. تعثرت.. لم يكن خطأي. لو لم تكوني أنتِ عنيدة وتصرين على الاستمرار بتمثيليتك الهزلية تلك مع ناثان....»، ثم توقف صوتها.

قلت بهدوء «لم يكن الأمر تمثيلية هزلية».

قالت وكأنني لم أتكلم: «لقد شعرت بالصدمة عندما أدركت أنها لم تكن أنتِ.. لقد ارتكبت خطأ فادح. فمن مسافة بعيدة أنتِ ولورين تشبهان بعضكما بعضًا كثيرًا. تملكان نفس الطول ونفس الشعر».

سألتها وأنا أرتجف: «كان الوشاح ملكك، أليس كذلك؟».

«لم أدرك أنها شدته إلا عندما كنت قد غادرت.. وعندما أتيتِ إلى المتجر اضطررت إلى التفكير بسرعة».

«قلتِ لي أن هيدرا من اشترى هذا الوشاح.. هال زورتِ الإيصال؟».

لفّت يدها في الهواء وقالت: «منتهى السهولة.. كان العنصر الصوفي عنصرًا صوفيًا مختلفًا عن الوشاح.. ليس أمرًا جللًا».

- «لقد حاولتِ توريط هيدرا».

- «إنها تستحق، فهي مجنونة كونها بصحبة كيث.. ناثان على حق بشأن كيث، فهو مختل.. لقد رأيت الطريقة التي يتحدث بها معها.. لكنكِ لم تكوني مع ناثان بما فيه الكفاية لمعرفة الأمر.. والآن عدتِ إلى هنا مرة أخرى.. يجب أن تبقى بعيدًا».

- «عندما أتيتِ بآنا لعلاج النطق، هل كنتِ تتفقدين أمري لمعرفة ما إذا كنت مع ناثان حتى الآن؟».

- «طرق السؤال ذهني، لذلك سألت».

قلت وأنا أهز رأسي «غير معقول، ماذا عن آرثر نجوين؟ هل فعلتِ شيئًا له؟».

أطلقت صوت قرقرة وقالت: «إنه ثرثار.. لم يكن لدي أدنى فكرة أنه رآني في تلك الليلة حتى أتت صديقته إلى متجري وأخبرتني هذا الصباح.. كان على معرفة ما يعرفه آرثر.. وجدته يتجول في تلك البركة الغبية وقمت بالتكلم معه».

- «ماذا فعلتِ له؟».

- «أنا؟ لم أفعل له شيء على الإطلاق! هو من سقط بينما كنت أغادر».

قصة محتملة.. سألتها «ولم تحاولي مساعدته».

«ماذا بوسعي أن أفعل؟ الرجل المسكين كان ضعيف القلب».

بدأت آنا في البكاء.. لا عجب أنها وصلت مع والدتها بسرعة.. هل كانت آنا تنتظر في السيارة بينما كانت ريان تتشاجر مع آرثر؟

قلت لها «لقد كان شاهدًا محتملًا.. ومازال على قيد الحياة».

- «من المستبعد أن يتذكر ما حدث له».

- «هل دفعتيه أيضًا كما دفعتي لورين؟».

- «كيف تجرؤين على اتهامي!».

- «لقد رميتِها من الهاوية! لقد قتلتِها».

«قلت لكِ انها انزلقت.. لم أقتلها!» قالتها ريان واندفعت نحوي بسرعة كبيرة دون أن أحظي بوقت لأتصرف.. بالكاد رأيتها قادمة.. حدث الأمر دون تحذير أو زيادة بحدة الغضب.. طرحتني أرضًا وهي تصيح. انتشر الألم برأسي وزحف خلف عيناي ثم ضغطت ريان بإبهاميها على حنجرتي. حاولت أن أفلت من قبضتها لكنها كانت قوية مثل الفولاذ.. بدأت ألهث، لا بد أن أدافع عن نفسي، لكنني لا أستطيع التنفس. رأيت وجه ريان فوقي ينظر لي بعينين واسعتين واللعاب يتجمع بأطراف فمها. تردد بأذني صدى ما قالته لي آنا سابقًا «أتؤمنين بالنعيم والجحيم؟ ماذا لو كنتِ كلا الشخصين؟ خيّر وشرير؟»، ثم أصبحت رؤيتي ضبابية وتمايلت الصور من حولي كما لو كنت تحت الماء.

اخترق صوت آنا مخي وهي تصرخ قائلة «لاااااا» سمعت صوت كسر عالٍ ثم سقطت ريان على الأرض.. لهثت ممسكة حنجرتي وأنا أتزحزح من تحتها.. رأيت قطرات من الدم تسقط على جبينها، وكانت آنا تقف فوقها وهي ترتجف وتمسك عنق إناء الزهور التي كسرته على رأس والدتها.. صرخت قائلة «أمي!! لاااااا!!!!»

تحسست عنق ريان وكان لديها نبض.. قلت لآنا في ذهول «إنها على قيد الحياة يا آنا» ثم هرعت إلى طاولة المطبخ وأمسكت هاتفي.. اتصلت بالطوارئ وأردفت لآنا «يجب أن نغادر، حسنًا؟».

وقفت آنا هناك في حالة صدمة ترتجف وتقول «لا لا لا».

أجاب عامل الطوارئ الهاتف، وسألني أين تقع حالة الطوارئ.. هذه المرة الثالثة التي اتصل فيها بالطوارئ خلال أيام قليلة.. اتصلت عندما وجدت هيدرا وآرثر والآن.... ريان.

هرعت آنا عبر الرواق إلى غرفتها.. أجبت العامل قائلة: «أنا بحاجة إلى سيارة إسعاف» أبقاني العامل على الخط وسألني المزيد من الأسئلة عما حدث وعن ريان. قلت له «هاجمتني.. إنها قصة طويلة.. نعم، يبدو أنها تتنفس.. لا، ليست واعية. اسمع، على أن أغلق الهاتف.. لديّ طفلة هنا. أحتاج أن أطمئن عليها» قلتها ثم أغلقت الهاتف وضغطت قائمة الاتصال السريع للاتصال برقم ناثان وأنا أركض عبر الرواق إلى غرفة آنا.. كانت نافذتها مفتوحة والباب السلكي مرفوع مرة أخرى. اختفت آنا.

الفصل الأربعون

قال لي ناثان عبر الهاتف: «أنا في طريقي.. اخرجي من هناك.. اذهبي للجيران!»..

«يجب أن أعثر على آنا» قلتها وأنا أركض في المنزل وأناديها.. نظرت في غرفة الضيوف لكن لم أجد علامة على وجودها.

- «أليست معكِ؟ آنا ليست معكِ؟».

- «أبحث عنها.. أعتقد أنها هربت مرة أخرى».

- «اللعنة يا ماريسا».

ارتديت حذائي ومعطفي وخرجت مرتدية ملابس ناثان الفضفاضة.. قلت لناثان على الهاتف «تعال إلى هنا بأسرع ما يمكن»، ثم أغلقت الهاتف.. فتحت الكشاف لأنير الطريق وبحثت بالباحة.. ركضت إلى منزل الشجرة وتسلقت السلم.. لم تكن هناك. نزلت مجددًا وأنا أناديها.. نظرت باتجاه الشمال واتجهت نحو الريح.. كانت هناك عاصفة كبيرة آتية من البحر حاجبة للأفق.. ركضت نحو الشمال، وأنا أمسك سروال ناثان الذي ربطته بحزام، لكنه كان

يعوق حركتي رغم ذلك.. ناديت على آنا عند سلم الشاطئ لكن لم أرها.. استمررت في السير بالطريق المؤدي إلى ملجأ الحياة البرية.. لا يُسمح لها بالمجيء إلى هنا بمفردها.. لكنها أتت.. أنا متأكدة من ذلك.. بينما كنت أمر بنفق من الأشجار كنت أتذكر صوت آنا في رأسي، وهي تقول لي «اذهبي بعيدًا.. اتركيني وحدي».. كان يشوب الخوف كلماتها.. كانت خائفة من والدتها.. كانت خائفة عليّ.

«آنا! آنا!»، ناديتها وكان صدى صوتي يتردد في الغابة بشكل غريب.. حاولت الركض لكن أطراف سروال ناثان ظلت تهبط.. كنت أمسك الحزام بيد واحدة وأتوقف من حين لآخر لأرفع أطراف السروال مرة أخرى.. لا يمكن أن تكون قد ابتعدت.

انقسم الممر إلى قسمين أمامي، وكانت الأرض على اليسار غير مستوية وتحمل آثار أقدام.. سرت بالفرع الأيسر المؤدي إلى البحر.. إذا كانت هنا فهل تعرف حتى أين تذهب؟ انفتح الممر فجأة مؤديًا إلى منحدر.. رأيتها.. بدت كصورة ظلية تتمايل أمامي.. ناديت عليها «آنا! انتظري!».

نظرت خلفها ثم ركضت مسرعة وكانت حقيبة ظهرها ترتد على ظهرها.. اختفى الدرابزين الخشبي، يجب أن يكون هناك لكن الآن لا يوجد سوى منحدر خطير. أسرعت وأنا ألهث.. صرخت وأنا أركض قائلة «لا تذهبي بالقرب من تلك الحافة. آنا!».. رأيت قبعتها المغزولة بينما كانت تلتفت للنظر في وجهي بعيون واسعة.

خلعت حقيبة ظهرها وأسقطتها على الأرض.

توقفت ورفعت يدي ثم قلت «آنا.. ماذا تفعلين؟ ابتعدي. أنتِ لا تريدين.... تعالِ إلى هنا».

انفجرت آنا بالبكاء.

قلت لها «لن أذهب إلى أي مكان.. يمكننا التحدث عن الأمر، فإنها ليست نهاية العالم».

تراجعت خطوة إلى الوراء نحو الهاوية ثم تمايلت.. تساقط الحصى خلفها على طول الصخور إلى المحيط أدناه.

«آنا، ابتعدي الآن يا عزيزتي! الآن! والدك قادم. كل شيء سيكون على ما يرام ووالدتك ستكون بخير.. ستأخذها سيارة الإسعاف إلى المستشفى».

مسحت آنا عينيها.. شعرت بأن الوقت يتباطأ في انحسار بعيد مع تدفق الأمواج أسفل الهاوية، بينما تسقط قطرات المطر في حركة بطيئة.

لن يأتي أحد.. يجب أن أعتمد على نفسي.. أستطيع أن أنجح. يمكنني أن أهرع نحوها أو أصارعها أرضًا، لكنها قد تنزلق أو تقفز.. يمكنني محاولة التحدث معها لتهدئتها.. تذكرت جميع الطلاب الذين يكررون تدريباتهم على الكلام مرارًا وتكرارًا حتى يحدث تقدم صغير.. بالنسبة لآنا فهي انعزلت على نفسها وفقدت قدرتها على النطق بسبب خوفها وألمها.

قلت لها وأنا أجلس على العشب أسفل المطر «سأجلس هنا، اجلسي معي يا آنا، لن أتركك».

شبكت ذراعيها على صدرها. قلت لها: «لنستريح قليلًا» كان المطر يغرق شعري.. أغلقت جيب سترتي على هاتفي لأبقيه جافًا.. ظللت جالسة وأنا أقاوم رغبتي للاندفاع نحوها.

جلست آنا ببطء جانب حقيبتها لكنها كانت لاتزال قريبة جدًا من الحافة.

«أعرف أنكِ لا تريدين العودة إلى المنزل وتريدين العيش هنا إلى الأبد».

أماءت وهي تنظر إلى البحر.. كتمت بداخلي قولي «أرجوكِ لا تنزلقي».

قلت لها «لا ألومك.. تشعرين بأنه لا يمكنك العودة.. الأمر صعب جدًا».

أماءت مرة أخرى.

«حسنًا.. أنا أتفهم.. نحتاج بعض الدفء.. يمكننا أن نشعل النار.. تعلمت كيفية إشعال النار حين كنت أصغر سنًا بالمخيم.. وسنحتاج إلى طعام».

نظرت إلى الأرض ووجهها يتلألأ بالمطر والدموع.

قلت لها «يمكننا اقتطاف التوت.. لكن التوت نادر بهذا الوقت من العام».

توقفت عن البكاء وبدأت تشهق.

«يمكننا أن نبحث عن التوت البري» قلتها وأنا أريد أن أصرخ عليها قائلة: «ابتعدي عن الحافة!» لكنني جلست ثابتة والمطر يغرقني.. لا أعرف لكم من الوقت كنا نجلس هناك.. اشتدت العاصفة بيننا.. اتجهت نحوها ببطء عبر العشب الرطب لدرجة أنني لم ألحظ أنني أتحرك.. نادانا ناثان على بُعد.

قلت لها «سيأتي والدك قريبًا.. أتريدين الجلوس معي؟ أريد بعض الصحبة».

أنا الآن على بعد عدة أقدام منها، قريبة جدًا.. انتظرت محاولة ألا أحبس أنفاسي. شعرت بأني أنتظر إلى الأبد.. تذكرت نجاحاتي وإخفاقاتي لكنني تناسيتهم.. شعرت أن دهر قد مر بينما أنتظر والعالم يتباطأ من حولي.. التقطت آنا حقيبة ظهرها واتجهت نحوي وجلست بجواري.. أحطتها بذراعي وقرّبتها نحوي ثم قلت لها: «أنا أحبك يا آنا».. وعلى الرغم من أنها لم تنطق بكلمة إلا أنني أعرف ما هو ردها.

الفصل الحادي والأربعون

قال ناثان لآنا: «إذا أردتِ أن تجعلي الصخور تقفز على سطح الماء، يجب أن تكون مسطحة مثل هذه» أخذ صخرة ورماها وهو يلف معصمه.. قفزت الصخرة على سطح الماء عدة مرات قبل أن تغرق في البحر الهادئ.. راقبت وجهه وسلوكياته السهلة والسلسة.. ظننت أنني أعرفه لكنه رجل معقد.

ابتسمت آنا وهي ترتدي معطفها وقبعتها وقفازاتها.. تبدو صغيرة وضعيفة.. ركضت نحو حافة الماء بسعادة وهي تبحث عن حجر مسطح آخر.. من الصعب التصديق أنه مر أسبوع واحد فقط على مواجهتنا الصادمة لوالدتها.. آنا طفلة مرنة.

تراجع ناثان إلى الخلف ووقف بجانبي، ثم قال: «سأذهب معك لرؤية هيدرا».

«يجب أن أذهب وحدي.. لاتزال لدي أسئلة».

تنهد ثم قال «حسنًا، لكن اتبعي الاتجاهات التي وصفتها لكِ.. لن تجدي العنوان على الخريطة».

«أعرف.. سأحاول ألا أتوه».

أماء والاكتئاب في عينيه ثم قال: «كان ينبغي أن أفعل الكثير من الأشياء بطريقة مختلفة.. كان ينبغي أن أخبركِ عنها.. كان ينبغي أن أقاتل من أجل الحصول على حضانة كاملة لآنا منذ البداية. كان ينبغي.... في كل مرة عادت فيها آنا إلى ريان.... لن أسامح نفسي أبدًا. لماذا لم أعرف؟ أتمنى أن أعود بالزمن».

قلت له «ليس بوسعنا سوى المضي قدمًا.. لا يمكننا التمسك بالأوهام.. هذا ما قالته لي بي موزني أمس».

«بي؟ جارتك الفضولية؟».

«ألا تعرف الأمر؟ ستنتقل إلى هاواي لتعيش مع ابنتها.. قالت لي إن السبب الوحيد وراء بقائها هنا هو كونها تؤمن بأن روح زوجها مازالت باقية في منزلها.. تتحدث إليه كل ليلة.. والآن تعتقد أنه ذهب إلى هاواي لقضاء بعض الوقت مع ابنتهما، لذلك ستذهب هي الأخرى إلى هناك».

قال لي ناثان: «سمعت برين في الخارج تتحدث مع والدتها».

أجبته «أتفهم شعورها.. مازلت أتحدث مع أبي.. أشعر أحيانًا أنه يجلس بجانبي. أتساءل عما إذا كانت برين تشعر أن لورين قريبة منها».

«ربما تشعر بوجودها في الباحة الخلفية.. فبرين وحبيبتها زرعا شجرة قرانيا بيضاء كذكرى لوالدتها.. ويبدو لورين أن لورين تحب الزهور البيضاء».

- «إذًا جنسن يعلم بأمر برين وحبيبتها؟».

- «أعتقد ذلك. كان بالخارج معهم».

ابتسمت بداخلي في ساعدة لبرين.. إنها تمضي قدمًا بحياتها.

انحنى ناثان لالتقاط صخرة مسطحة أخرى، ثم رماها لترتد عن سطح البحر.. قال لي: «لقد عرضّتك أنتِ وآنا للخطر. كنت أعرف أن ريان بوسعها التصرف بتهور وعدوانية.. وكنت أعرف أنها تريد لم شمل الأسرة بأي طريقة ممكنة.. فهي تعاني من اضطراب الشخصية الحدي».

- «أهذا ما قاله لك الطبيب النفسي؟».

- «الأمر معقد أكثر من ذلك لكن... باختصار، سيطر عليها الشعور بالهجر حتى أصبحت تتصرف بعدوانية.. إما تكونين بصفها أو ضدها.. لا يوجد خط وسط».

- «لم نكن لنعرف أنها ستفقد عقلها».

- «أتساءل لماذا لم تثق بي ابنتي بما يكفي لإخباري؟».

- «إنها أصغر من أن تفهم أنها ليست الطفلة الأنانية والشريرة، التي كانت تصورها لها ريان... إنها أصغر من أن تفهم أنها ليست الشخص الفظيع، التي كانت تصوره لها والدتها. ربما ستتفهم الأمر في الوقت المناسب».

قال لي ناثان وهو يمد يده نحوي، «ماذا كنت سأفعل دونك؟» لكنني وضعت يدي في جيوب معطفي. لا أريده أن يتوقع شيء مني.. فخطوبتنا معلقة الآن.

قال لي ناثان بهدوء «أحبك بجنون».

ابتسمت له دون رد.. فأنا لم أسامحه كليًا بعد. تقدم رجل طويل القامة نحونا مرتديًا معطف أسود طويل.. انه المحقق.. لوّحنا لبعضنا البعض وبينما كان يقترب قال «سعيد لأنني وجدتكم».

قلت له وأنا أزفر «ما الأخبار؟».

«ريان قيد التقييم» قالها وهو يتطلع نحو آنا، وهي جاثمة على الشاطئ لتشاهد شيئًا ما في الرمال.

قلت له «ماذا عن الوشاح؟ أيوجد نتائج من الجيولوجيون الشرعيون؟».

ضحك المحقق وقال: «نحن نوصل خيوط القضية. سيستغرق الأمر بعض الوقت. كيف حال آنا؟ هل بدأت تتحدث؟».

أجابه ناثان «قليلًا.. تتحدث معنا في أغلب الأحيان. لكنها مازالت تصمت بوجود الغرباء».

«هل أخبرتكم أي شيء آخر عما حدث في تلك الليلة؟».

«قالت، إنها كانت ستحذف الفيديو لكن هاتفها تبلل.. كانت تستطيع رؤية الشاشة لكنها توقفت عن العمل.. كانت تصوّر مقطع

فيديو للبومة، وكانت تعرف أنها لم يكن من المفترض أن تكون خارج المنزل لكنها خرجت؛ لأن بعض البوم يصطاد ليلًا فقط».

قال المحقق: «لقد وضعت الهاتف في الأرز.. لكنه كلن ليجف من تلقاء نفسه»

رفعت آنا صخرة مسطحة ولوحت بها لناثان، الذي ابتسم لها بدوره.

«إذا عاد الفيديو فقد يشاهده شخص ما.. وهي لم تكن تريد أن يراه أي أحد».

قال المحقق: «كان من الممكن أن تدمر الهاتف تمامًا».

«كانت خائفة أن تغضب عليها ريان أو تقع بورطة.. لذا ظنت من الأفضل أن تدفن الهاتف لبعض الوقت حتى يجف. ثم يمكنها استرداده لاحقًا وحذف الفيديو».

ربضت آنا للبحث عن المزيد من الصخور.. نظرت نحوي كما لو كانت تتأكد من وجودي.. ابتسمت لها وأومأت محاولة إخفاء حزني.. أكره حقيقة أنها شعرت بالوحدة والضعف والخوف.. أكره حقيقة اضطرارها لدفن هاتفها داخل صندوق مجوهراتها.. أتمنى لو بإمكاني الدخول إلى مخها ومحو ذكرى دفع والدتها لشخص آخر من فوق الهاوية.

مازلت أشعر بأن روح لورين تحوم بالقرب مني. أحيانًا أشم رائحة عطرها عندما أدخل إلى غرفة.. كما أراها أمامي على بعد عندما أسير

على الشاطئ.. دائمًا ما تكون بعيدة المنال، لكنها تزورني بمنامي دومًا وهي تضحك وترفع كأس النبيذ. وذات مرة اعتذرت لي قائلة «اعتذر بخصوص ذلك اليوم في الشقة.. كنا صغارًا وأغبياء.. أتمنى لو بإمكاني التراجع عن فعلتي»، وعندما استيقظت تبخرت كلماتها في الجو.

ذهبت إلى المنحدر عدة مرات سعيًا وراء إجابات لن أحصل عليها أبدًا.. عندما رأيت مقطع الفيديو، مرت لورين عبر شرفة المراقبة واتجهت نحو الهاوية، رغم أنها كانت تخاف من المرتفعات.. إذا لم تدفعها ريان تلك الليلة فهل كانت ستقفز؟ أم أنها كانت ستستدير، وتعود وتمكنت من جعلها تقفز مرتين قبل أن تغرق.. نادت على ناثان قائلة: «أرأيت ما فعلت يا أبي؟».

ابتسم وقال لها: «رائع يا حلوتي!».

كلنا صفقنا لها، وهي رفعت إبهامها لنا بدورها.

نظرت لساعتي لأجدها تقرب إلى الثالثة.. أخبرت هيدرا إنني سأزورها في الرابعة وسيستغرق الطريق قرابة الساعة.

قلت للمحقق الذي كان يعرف مسبقًا إلى أين أنا متجهة «عليّ الذهاب.. هل ستبقيني على إطلاع بالمستجدات؟».

قال لي وهو يرشدني إلى السلم: «تعرفين أنني سأفعل ذلك.. توخي الحذر.. فلا أحد يعرف ماذا يمكنكِ أن تجدي هناك».

الفصل الثاني والأربعون

تردد صدى كلماته في ذهني، وأنا أقود في الطرق الخلفية أسفل الجبال.. كانت المظاهر الحضارية والمباني تقل كلما ابتعدت أكثر نحو البرية.. انعطفت مرتين نحو طرق ترابية ضيقة خاطئة ثم استدرت وعثرت على المنزل.. كان عبارة عن قصر على الطراز الفيكتوري دون أي علامات ويغطيه الطلاء الأخضر الداكن، ممتزجًا مع الغابة من حوله. دققت جرس الباب، ولوحت لكاميرا المراقبة المثبتة فوق الباب.. بعد دقيقة فتحت هيدرا الباب وأدخلتني.. كانت تبدو شاحبة وهزيلة كشبح. ابتسمت لي بخفة وأرشدتني للأعلى عبر الطابق الثاني إلى غرفة معيشة كبيرة. مررنا بامرأتين أخريين في طريقنا للغرفة.. أشارت إلى كراسي بجانب موقد غاز ثم جلسنا أمام بعضنا البعض.. يبدو كل شيء هنا متهالك، فالطلاء على الجدران بالٍ والسجادة البنفسجية ممزقة، كما يوجد رائحة عفن خفيفة.

قلت لها وأن أكذب قليلًا: «من الجيد رؤيتك.. كيف حالك؟».

«بخير.. أتيت هنا منذ أيام قليلة فقط لكنني أشعر وكأنه قد مر زمن.. وأنتِ كيف حالك؟».. قالتها وهي تشبك يديها على حجرها وتنظر في اتجاهي لكن لم تنظر لي.

- «عدت إلى العمل، وأعيش الحياة يومًا بيوم».

- «سمعت بأمر ريان. هل سيتم اتهامها بالقتل؟».

- «لا أعرف، هناك الكثير من الأسئلة عن مقطع الفيديو، وعن اعترافها المشوش، وعما رآه آرثر نجوين».

- «كيف حاله؟».

- «لايزال في المستشفى للتعافي.. كان من الممكن أن يتوفى إذا كنت قد عثرت عليه متأخرًا».

«الحمد لله أنه لم يمُت».. قالتها وهي تتطلع نحو النافذة وكتفيها مشدودين وتفرك يداها فوق حجرها.

«كيف الحال هنا؟ هل غرفتك مريحة؟».

لمست الجرح الذي أصيبت به على جبينها عندما اصطدمت بالطاولة في الفندق ثم قالت «كالأحلام، من الجيد أن يكون عقلي صافي دون أدوية ولو لمرة واحدة.. فمنذ أن وصلت إلى هنا لم أرد تناول أي أدوية سوى الأسبرين».

سمعت الكلمات التي لا تقولها.. حيث إنها سابقًا تناولت دواء سينيكوان متعمدة.

«الأسبرين آمن».

قالت لي: «نعم، فهو قانوني ولا يحتاج لوصفة.. الأمر باختياري هذه المرة، ليس باختياره».

«كيث هو من وصف لكِ سينيكوان؟».

تنهدت هيدرا ورفعت يدها لتنظر بحزن إلى الكدمة الباهتة على معصمها، ثم قالت: «ظل يقول لي أن أكف عن الشكوى وأن أضع الثلج عليها كما لو كان الأمر بسيطًا.. أتصدقين ذلك؟».

- «إذًا كيث هو من أذاكِ.. لم يحدث الأمر أثناء...».

- «جلسة تصوير؟ لا».

- «أريد أن أعرف حقيقة ما قلته.. قلت لي إن لورين تعرف.. هل عرفت بما كان يفعله كيث؟ أم كنتِ تشيرين إلى شيء آخر؟ ليلة وفاتها أخبرتني أنها تريد التحدث معي بخصوص ناثان».

أراحت هيدرا يديها على حجرها وهي تلامس الكدمة برفق ثم قالت: «عندما فعل كيث هذا بي، انتظرت حتى ذهب إلى العمل، وذهبت إلى غرفة الطوارئ.. كانت لورين كان في الخدمة. فوجئت برؤيتها في بالفيو.. شعرت بالصدمة حقًا.. وصُدمَت هي الأخرى لرؤيتي».

شعرت بشيء ينقلب بداخلي وأنا أسألها: «ماذا كانت تفعل هناك؟».

«كانت تعمل ببعض المناوبات هناك، بعدما قللت مستشفى كوف ساعات عملها. عرفت أنها اكتشفت الأمر بمجرد أن رأت معصمي».

تقلبت في الكرسي، ونظرت إلى اللهب المتصاعد من موقد الغاز، ثم نظرت إليها وسألتها: «ماذا قلتم لبعضكما البعض؟».

- «حاولت إقناعي بهجر كيث.. لكنني لم أكن مستعدة.. أعني، كنت مستعدة نوعًا ما.. لكنني لم أكن متأكدة.. شجعتني لورين على هجره».

- «إذًا بطاقة الفتح الذي وجدتها في الخزانة...».

- «كانت ملكي.. أعطاني مدير الفندق بطاقتين. كان لدي واحدة اضافية».

- «وناثان لم يكن يعرف بالأمر؟».

- «لم يكن يعرف وقتها.. لكن حثتني لورين على التحدث معه.. قالت إن بإمكانه مساعدتي».

- «لماذا اعتقدت أن بإمكانه مساعدتك؟».

لفت هيدرا خصلتها حول سبابتها، كما فعلت في صباح اليوم التالي لوفاة لورين، ثم قالت «قالت لي إنها رأته في العمل، وهو ينقل المرضى إلى غرفة الطوارئ في مستشفى كوف. قالت إنه رجل صالح وعطوف وحكيم. كما قالت إنه سيخفي سري»

قلت لها بمرارة :»سيخفيه عنى حتى» ناثان رجل صالح مع الجميع إلا خطيبته؟

حدقت هيدرا بوجهي وقالت «لا أعتقد أن هذا ما كانت تقصده».

«أتمنى ذلك».

«أعتقد أنها كانت ستخبرك بأمري بعد العشاء.. ولكن بعد ذلك اضطرت أن توصل برين من الحفلة.. كانت ستطلب منكِ التحدث مع ناثان لحثه على مساعدتي لأنني لم أكن لأطلب منه ذلك بنفسي.. كنت مازلت أمتلك غرفة الفندق لكنني عدت إلى كيث».

لم أسألها عن السبب، على الرغم من أن السؤال كان بطرف لساني.. أردفت لها «وفي العشاء بمنزل ناثان....».

« أرسلت لورين لي رسالة تسألني فيها كيف تسير الأمور، ورأى كيث ما كتبته لي.. ربما لم تلحظي الأمر، لكنه كان غاضبًا..».

«حدث كل هذا وراء ظهري أو دون أن ألاحظه؟».

«أسرعت إلى الحمام... حيث كنت مضطرة على منع نفسي من الانهيار.. راسلتني مرة أخرى في وقت لاحق من تلك الليلة محاولة إقناعي بالعودة إلى الفندق.. كانت ستواجه كيث؛ لأنه بذلك الوقت كان يعرف أنها اكتشفت الأمر».

«كان بإمكانك إخباري. لكنت ساعدتك.....».

«لم أكن أريد أن يعرف أحد بالأمر.. مازلت لا أريد ذلك».. كان صوتها ضعيف وهش مثل الفروع الآيلة للسقوط. أردفت قائلة «استغرقني الأمر بعض الوقت لأدرك أنها كانت على حق.. هددني كيث بكسر معصمي الآخر.. لذلك طلبت المساعدة من ناثان، وهو قام بتمديد إقامتي بالفندق».

«وأنتِ وناثان...».

نفت قائلة: «لم يكن هناك أي شيء بيننا»، لكنني شعرت بالأسف يشوب صوتها وتوقعت ما لم تستطع قوله مثل تمنيها أن يكون هناك شيء بينهما.

تذكرت ناثان، وهو يدفن وجهه في شعرها ثم سألتها: «كنتِ قد بدأتِ تكنين له المشاعر، أليس كذلك؟ فأنتِ من أرسل له الرسائل التي قال إنها كانت من ريان. في وقت متأخر من تلك الليلة عندما خرج من الفراش، أليس كذلك؟».

- «لم أكن أنا».



- «لكنكِ راسلتِه في اليوم التالي»

هزت كتفيها، وهي تنظر حولها في الغرفة على السجادة البالية.

«لقد فعلتِ»، طرأت ببالي فكرة أخرى وسألتها «لماذا تناولتِ تلك الحبوب؟».

أجابتني دون أن تنظر بعيني «كنت أشعر بالإحباط».

«هل من المحتمل أنكِ كنت محبطة بسبب ناثان؟ كنتِ تريدين أن تكوني معه لكنه رفضك؟».. كنت أحزر فحسب، ولكن أرى أنني أصبت كبد الحقيقة.

ارتعشت شفتاها وهي تركز على الطلاء الباهت على الجدران.

سألتها مجددًا «لقد رفضك، أليس كذلك؟».

همست لي: «لم أكن بكامل قواي العقلية».

أجبتها وأنا أحاول ألا أبدو قاسية «لا، لم تكوني بكامل قواكِ العقلية».

«عندما أخرج من هنا... أحتاج أن أعتمد على نفسي.. أحتاج أن أتطلق وتقير ما إذا كنت أرغب في رفع دعوى قانونية على كيث.... أتعرفين لماذا أتيت إلى الملجأ أخيرًا؟ لقد هددني كيث بكسر جميع عظامي».

«إذا لم يدفع ثمن ما فعله بكِ قد يفعل ذلك لشخص آخر».

«أعرف ذلك.. أحتاج لبعض الوقت فحسب».

قمت لشعوري، أنني لم يعد مرحب بي ثم قلت لها «بالطبع.. أنتِ شجاعة كونك هجرتيه».

سمعنا صوت محرك يقترب من الخارج. انتفضت هيدرا وهرعت نحو النافذة ثم فتحت الستارة.. شحب وجهها، وبدأت يدها في الارتعاش.

ذهبت لأقف بجانبها وسألتها: «ما الأمر؟».

قالت لي: «لا بد أنه تتبعك» كانت سيارة كيث المرسيدس تقترب من الممر، ثم توقفت أمام المنزل.. ضغطت هيدرا زر إنذار على الجدار لأسمع صوت على السلمِ وأرى امرأة ترتدي فستانًا تندفع إلى هيدرا بجوار النافذة.. كانت بطاقة اسمها مكتوب عليها «وينيفريد، مديرة».

قالت هيدرا لوينيفريد بصوت مرتعش: «هذا زوجي».

خرج كيث من السيارة مرتديًا بدلة سوداء، مصنوعة حسب الطلب، دائمًا ما يكون بأبهى صورة.

قالت وينيفريد لهيدرا: «ابقي هنا، أنتِ بأمان هنا في الداخل».

قلت لها: «إنه خطأي».

أجابت وينيفريد قائلة: «لا بأس، الأمر وارد.. لقد حدث من قبل».

سار كيث فوق الممشى وطرق الباب، ثم دق الجرس مرارًا وتكرارًا.

نادته وينيفريد من النافذة المفتوحة، وقالت «دكتور بلاك، أنا مضطرة أن أطلب منك المغادرة».

تراجع كيث حتى يتمكن من النظر إلينا ثم قال: «هل زوجتي هيدرا هنا؟ يجب أن تعود إلى المنزل.. ماذا تفعلين هنا يا ماريسا؟».

قلت له بينما كان قلبي ينبض بقوة «هيدرا لا تريد أن تراك».

كانت هيدرا ترتجف، لذلك سحبتها بعيدًا عن النافذة.. تراجع كيث أكثر وسأل «أين هي؟ قولي لها أن تخرج».

قالت وينيفريد له «لن تخرج.. من فضلك غادر.. الشرطة في طريقها، وسأرسل حارس الأمن لك».

«الشرطة! أنا زوجها».

سمعنا صوت الباب الأمامي يفتح ويغلق مجددًا ثم خرج رجل ضخم يرتدي زي حارس أمن خاص أزرق، وقال له «سيدي، ارحل عن هنا من فضلك».

حاول كيث المرور لكن الحارس الضخم منعه.. صرخ عليه كيث قائلًا: «افتح الباب اللعين.. سآخذها إلى المنزل».

قال له الحارس «سيدي، عد إلى سيارتك من فضلك».

«لن أعود لسيارتي! دعها تخرج إلى هنا».

قالت هيدرا بهدوء وهي تتنفس بعمق، «وإلا ماذا ستفعل؟».

قال الحارس وهو يشير إلى سيارة كيث، «لن تأتي زجتك معك».

عبس وجه كيث في غضب ونظر إلى النافذة وهو يقبض يداه.. سقطت خصلة شعر على جبينه ثم قال وهو يلكم المرآة الجانبية لسيارته «أعيدوا لي زوجتي» انكسر الزجاج وسقطت المرآة.. فرك كيث قبضته الدامية، وقال «أعيدوا لي تلك العاهرة اللعينة!».

عدت للخلف من وقع كلماته.. لم اسمعه يتكلم بهذه الطريقة أبدًا.. تركت هيدرا يدي وانهارت على السجادة، وهي تتنفس بسرعة.. حملتها وينيفريد من تحت إبطيها وساعدتها لتصل إلى الأريكة.

اقترب الحارس من كيث، وقال: «سيدي، غادر المبنى الآن».

تردد كيث، ثم ألقى نظرة أخيرة على النافذة بعينين غاضبتين، ثم دخل سيارته وقادها مبتعدًا.. كنت أرتجف والأدرينالين يضخ بدمي.

انحنت وينيفريد أمام هيدرا، وقالت لها «لقد رحل.. أتريدين أي شيء يا عزيزتي؟ ماء؟ شاي اعشاب؟».

أجابتها هيدرا بضعف «أريد الشاي».

قلت «سأبقى معها».

أماءت وينيفريد وذهبت نحو السلم.. جلست بجانب هيدرا وأمسكت يدها.. كانت أصابعها باردة ومتعرقه.

قالت لي: «يجب أن أرحل مرة أخرى. سيستمر في العودة إلى هنا».

«عليكِ أن تبلغي الشرطة عندما يصلون إلى هنا».

تنفست وهي ترتجف وقالت «أنا أدري... لا أصدق أنني كنت أحميه. اعتقدت أنني كنت أقوم بعمل جيد.. اعتقدت...».

شدّت على يدي بإحكام.

سألتها: «مم كنتِ تحميه؟».

نظرت إليّ بعينين يائستين، وقال: «لقد خرجت بتلك الليلة».

«ماذا تقصدين أنكِ خرجتِ؟ أية ليلة؟».

«بعد العشاء بمنزل ناثان أيقظني ضجيج.. ظننت أن كيث قد خرج.. لكنه كان قد عاد بالفعل إلى الفراش معي.. كان لايزال غاضبًا من رسائل لورين.. كان معصمي يؤلمني كثيرًا ويؤرقني.. لذلك ذهبت للتمشي».

كان قلبي ينبض بصوت مسموع في الغرفة، وأنا أقول لها «أنا لا أفهم ما تقولين».

«لم أحضر معي حذاء المشي، لذا اقترضت حذاءك».

تذكرت حذائي الرطب والعشب المتعلق به.. وآثار الأقدام الذي رأيتها على الممر صباح اليوم التالي.. «ارتديتِ حذائي ليلة وفاة لورين.. أهذا ما تحاولين قوله؟».

أماءت لي، وهي تتنفس بسرعة وبصعوبة. تركت يدي وشبكت ذراعيها فوق ثم بدأت بالتمايل جيئة وذهابًا، وهمست «نزلت إلى الشاطئ وكان الوقت مبكرًا، قبل أن تشرق الشمس.. كان الجو باردًا وعاصفًا ومظلمًا.. أخذت معي كشافًا».

سألتها وأنا أشعر بأن أحشائي تتقلب: «لماذا لم تقولي أي شيء؟ لماذا لم...؟».

قاطعتني بوجه يغطيه الضيق: «عثرت عليها حيث كانت مستلقية على الشاطئ فحسب».

شعرت بالدوار وضيق نفسي وأنا أقول «لكنكِ لم تتصلي بالطوارئ.. لم تخبري أحدًا. لماذا؟ لماذا لم تفعلي؟» بدأ صوتي يرتفع.

«اعتقدت أن كيث هو من دفعها.. كنت متأكدة من ذلك.. لقد كان غاضبًا جدًا أن لورين كشفت أمر تعنيفه لي.. اعتقدت انه فقد عقله».

شعرت بالغثيان وأنا أقف ثم قلت لها «كان عليكِ إيقاظنا.. كان عليكِ الاتصال بالطوارئ».

نظرت لي ببؤس شديد وقالت: «اعتقدت أنه كان حادث.. لا بد أن كيث قد تشاجر معها وسقطت.. لم أكن أريد أن أزج به في السجن.. ولكن كان على مساعدتها.. أنا أعرف ذلك الآن».

صعقتني كلماتها وشعرت بأن رؤيتي تبهت.. صرخت عليها وأنا أهز كتفيها قائلة: «ماذا تقصدين أنه كان عليكِ مساعدتها؟».. كانت رأسها تميل ذهابًا وإيابًا كالدمية القماشية كما لو أنها لا تهتم.

شعرت بشخص يسحبني بعيدًا عنها ثم سمعت صوت وينيفريد تصرخ قائلة: «توقفي، توقفي! هدئي من روعك. ستصل الشرطة خلال دقيقة».

أخرجت هاتفي من جيب معطفي، وكانت يداي ترتعش بشدة، لدرجة أنني بالكاد استطعت طلب رقم المخبر.. وبينما كنت أنتظر أن يجيب الهاتف، وقفت هيدرا ثم تراجعت، وتعثرت قليلًا وهي

ترفع يديها لتمنعني من التكلم بالهاتف وتقول: «لم يكن خطأي.. لم أفعل أي شيئًا لها.. لقد عثرت عليها بتلك الحالة».

صرخت عليها، بينما كان هاتف المحقق يرن «أية حالة؟».

قالت هيدرا وهي تنفجر باكية، «لقد كانت بالكاد على قيد الحياة.. وعندما أخرجت هاتفي توقفت عن التنفس.. أقسم أنها كانت ميتة بالفعل».

شكر واجب

وافر الشكر لمحررتي الرائعة دانييل مارشال، ووكيلة أعمالي المدهشة بايج ويلر، وشريكتها آنا ماريا بونر، والمتدربين، ومديرة علاقات المؤلفين الدؤوبة جابرييلا تي دومبيت، ومحررة النسخ الرائعة ريبيكا فريدمان، ومديرة الإنتاج الرائعة نيكول بوميروي، والمدققين العباقرة كالي ستوكرجراهام وماركوس ترويز، وفريق ليك يونيون للنشر بأكمله لكونه رائعًا في كل شيء.

خالص التقدير للرائعة تارا بارسونز، التي أرشدتني وآمنت بي.. كما أقر بأنني مدينة لزملائي والخبراء وطاقم تقارع الأفكار: ريتش بينر، وسوزان ويجز، وكيت بريسلين، وأنيتا لاراي، وكريستا لاراي، وسينثيا بوتمان تيفيت، وباتريشيا ستريكلين، وديان جاردنر، ولويس فايي داير، وشيلا روبرتس، وإلسا واتسون، ومايكل دونيلي، وشيريل ليوناردي، وإليزابيث رين، وراندال بلات.

شكر خاص لكل من جلين كيرنز، وليه هيرون، وآن كليرمونت، وجيمس هانكينز، ويولاندا سيبيلي من أفانتي.

كما أنني ممتنة للملاحظات التحريرية الدقيقة، التي أعطاها لي كيلي مارتن، وشانون أونيل.. وأتقدم بشكري لجنيفر براش من القسم الطبي لإفصاحها عن معلومات عن الأدوية.

شكر خاص لجانين دونوهو على ملاحظاتك الدقيقة على المخطوطة، عندما طلبت منك قراءتها خلال أيام قليلة فقط.

أخيرًا وليس آخرًا، أعبر عن كامل تقديري للقراء.. أنتم السبب وراء كتابتي للروايات. وأنتم من تجعلون الأمر يستحق العناء.

بَعد حُلول الظلام

تنتهي حفلة الخطوبة بموت مفجع ومفاجئ لنكتشف أن جميع الضيوف يخفون أسرارًا رهيبة.

احذر من الأصدقاء الذين يخفون الأسرار.

تعيش بطلتنا ماريسا بارلوت هذا الكابوس بعد أن تم خطبتها للتو. من المفترض أن تحتفل بزفافها القريب لكنها لا تستطيع نسيان مظهر جثة صديقتها على الشاطئ. هل سقطت؟ هل دفعها أحدهم؟ أو قامت هي بالإنتحار بنفسها؟

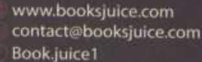
تحاول ماريسا يائسة البحث عن إجابات بأحداث الحفل. لكنها تكتشف أن ما حدث بعد حلول الظلام يحمل في طياته تفاصيل شريرة. الاقتناص المريع والمقابلات السريّة والمغازلة أثناء الثمالة. وكلما تحرّت البحث، كلما شكّت بكل شيء ظنّت أنها تعرفه عن أصدقائها وخطيبها الذي تثق به وحتى نفسها.

تصميم الغلاف كريم ادم karimadam.com


9 789779 921044







www.booksjuice.com
contact@booksjuice.com
Book.juice1
books.juice
Books_juice